

الذخائر والعبريات

مُعْجَمٌ مُتَّفَقٌ فِي جَامِعِ

فَيْدِهَا فِيهِ دَقِيقَةُ مَا قِيلَ وَأُثْرٌ فِي سَبِيحِ الْوَارِدِ الْمَعَانِي
مَعَ الْفِطْرِ وَالشَّرْحِ وَالْتَقْرِيبِ وَتَحْرِيرِ الْعَالِمِ وَمَعَانِيهِمْ بِرَبِيعِ الْبَرِيَّةِ

لِخَادِمِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ
عَبْدِ الرَّحْمَةِ الْبِرْقَوِيِّ

١

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

الذخائر والعقبات
منجم شفا في جامع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد، فهذا مُعْجَمٌ تَفَاقَى جَامِعٌ لِسْتَى الْوَأَنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَدَارَكُهَا النَّاسُ وَيَتَعَاوَرُونَهَا بَيْنَهُمْ، فِي شَتَى أَغْرَاضِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ، وَمُتَافِقَاتِهِمْ وَمَعَاوَرَاتِهِمْ، وَسَائِرِ أَسْبَابِهِمْ؛

ولقد أُلْقِيَ فِي رُوعِي^(١) أَنْ أَقُومَ بِوَضْعِ هَذَا الْمُعْجَمِ وَتَحْقِيقِهِ، فَكَانَ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ وَتَمَامِ تَوْفِيقِهِ؛

ولقد أُسْمِيَتْهُ «الذَّخَائِرُ وَالعَبْقَرِيَّاتُ»،

ولهذا المُعْجَمِ وَتَأْلِيفِهِ قِصَّةٌ: ذَلِكَ أَنَّ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ الْمِصْرِيَّةَ كَانَتْ قَدْ أَعْلَنْتْ رَغْبَتَهَا مَذْهُبَاتِ، فِي أَنْ يَخْتَارَ مَنْ يَرْتَقِبُ^(٢) مِنَ الْأَدْبَاءِ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْقُدَامَى الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارُ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ فِي الْوِزَارَةِ، كِي يَهْدُبُوهَا وَيَجْلُوهَا عَلَى التَّلَامِيذِ وَأَشْبَاهِ التَّلَامِيذِ مِنَ النَّسَاءِ

(١) أُلْحَمْتُ، وَالرُّوعُ: الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي رُوعِي: أَيُّ فِي نَفْسِي

وَوَخَلَدِي وَبَالِي، وَالْمَرْقُوعُ: الْمَلْهُمُ كَأَنَّ الْأَمْرَ يَلْقَى فِي رُوعِهِ

(٢) يَرْتَقِبُ: يَرْغَبُ

الشادين^(١) جلوة حسنة تحلولي بها في أعينهم ، وتطبي^(٢) أهواءهم ، وملتبني بها عنهم ماعسى أن تدبوه طباعهم ، وتتجاف أذواقهم ؛ وكان من بين هذه التواليف التي اختارتها الوزارة كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبي القاسم حسين بن محمد المشهور بالراغب الأصبهاني^(٣) ، ولما كان هذا الكتاب من الكتب القيمة بحق في بابه حُبب إلى بادى الرأي^(٤) أن أضرب بسهم ، في هذا العمل

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشئ. يتكادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والادب ونحوهما ، أى أخذ طرفاً منه
(٢) طباه واطباه : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة - وقد سماه المفضل بن محمد - قال : المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات - أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة - قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكتاب جلبي : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفسه . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيراً ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب - الذريعة - لأن طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب بيدولى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام ؛ وهذا وإن لم يك منكراً إلا أننا لم نألفه من غير رجال الشيعة
(٤) فعلت كذا بادى الرأي : فيما بدا من رأى وظهر

الضَّخْمُ، فَأَعْمَدَ عَمْدَ عَيْنٍ إِلَيْهِ ^(١)، وَأَحَقَّقَ بِذَلِكَ مَاتَرَامَتِ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ إِلَيْهِ،
 بَيَّنْتُ أَنِّي لَمَّا أُنْعِمْتُ النَّظْرَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَسْتَقْرَيْتُهُ رَأَيْتُ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ
 يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ أُدَيْبٌ ضَلِيعَ دَرَاكٍ، بِالضَّبْطِ وَالشَّرْحِ
 وَالتَّحْرِيرِ. مِمَّا اسْتَبَدَّ بِهِ وَطَفَى عَلَيْهِ وَتَخَوَّنَهُ ^(٢)، مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ
 وَالأَخْطَاءِ الَّتِي أَلَوْتَ بِمَحَاسِنِهِ.

ولقد تلامح لي، بل بدأ لمحا باصراً ^(٣) : أن الراغب إنما وضع هذه
 المحاضرات المنتهين، لا للشادين، لأن مختاراته تكاد تكون خداجاً ^(٤) مُقْتَضِبَةً
 مبتورةً كأنها مذكرات، أو رءوس مسائل «أملها الراغب لتكون منبهةً للأديب ^(٥)
 إذا هو استذكرها ما قد اقتراً ^(٦)، فداعت ^(٧) الأشباد ونجاوبت النظائر، فطاع
 له المراد ^(٨) خاور وحاضر وناقل وثاقف، فبذ الأقران، فأشربت إليه الأعناق،
 ونُتِيت به - كما يقال - الخناصر ^(٩)؛ ومن هنا لا يكاد ينتفع بمحاضرات الراغب
 غير أولئك الذين اضطلعوا قبلاً بما فيها كاملاً غير منقوص في مظانها

(١) إليه : متعلق بأعمد، أى أقصد إليه متعمداً، وعمد عين، قال الزخشرى في
 الأساس : فعلت ذلك عمد عينٍ : إذا فعلته بجد ويقين قال عمر بن أبي ربيعة .

ثم صَدَّتْ بِوَجْهِهَا عَمْدَ عَيْنٍ زَيْبٌ لِقَضَاءِ أُمِّ الْحَبَابِ

(٢) تخونه وخون منه : تنقصه (٣) لمحا باصراً : أمراً واضحاً

(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب . تعلق قدره

(٦) اقتراً : قرأ (٧) تداعت ونجاوبت : دعا بعضها بعضاً فأجتمعت :

ونجاوبت كما تنجاوبت القبارى . . (٨) طاع له المراد : أمه طائعاً سهلاً

(٩) يقال : فلان نثني به الخناصر : يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ
وموسوعات الثقافة العربية في شتى ألوانها .

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حدوده، لم ترقني ،
أما تلك العناوين الصغيرة التي طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد
فقد راقنتي كل الروق، وإن لم ترق جلال الدين السيوطي (١) ...

لهذا كله رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذي اقترحت وزارة
المعارف، وانصرفتُ نَفْسِي عن ذلك إلى وضع مُعْجَم حاشِدٍ حافِلٍ مستقل ،
يهجم فيه الطالب على طَلِبَتِهِ ، في أي معنى من المعاني «مَوْضُوعَةً على طَرَفِ
الثَّام (٢) وجبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقيح عنها إلى الإيجاف
والإيضاع. (٣)

على أنني جَعَلْتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلِي الأَوَّلَ في هذا المشوار ، (٤)

(١) اختصر السيوطي محاضرات الراغب وسمى كتابه « مختصر محاضرات الأدباء،
واقصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية في دار الكتب
المصرية ، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطي عن عدوله عن العناوين
الصغيرة هو أن كتابه مختصر . (٢) الثام : نبت ضعيف له خوص أو شبيهه
بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت ، الواحدة ثمامة ويقال : هو لك
على طرف الثام وجبل الذراع إذا كان هين المتناول .

(٣) الإيجاف : ضرب من سير الإبل والخيال قال تعالى : فما أوجفتم عليه من خيل
ولاركاب ، أي ما عملتم ، والإيضاع ، الإسراع في السير قال تعالى : ولا وضعوا خلالكم
والمراد : أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة (٤) المشوار : المكان تشار فيه
الدابة أي يجربها رائضها لتعرف قوتها ، وعشر عشر عثاراً : كبا

الكثير العثار، ومنهلى العذب الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعمدتى فى
 لم شمل الأشباه والنظائر، وكل ما كان من المعانى قد وشجته القربات والأواصر
 ولقد تحيرت من المحاضرات سويدوات القلوب وأناسى العيون^(١)، وضممت
 إليها أولات الأرحام^(٢) مما أعفله الراغب وأثبتته الآخرون، مثل ابن
 قتيبة فى عيون الأخبار، وابن عبد ربه فى العقد الفريد، وأبى هلال
 العسكري فى ديوان المعانى، والنويرى فى نهاية الأرب، وفلان، وفلان،
 ولم اجتزئ بذلك، بل زدت خيراً ما أترسمه^(٣) مما قرأت وأدارست طوال
 هذا الدهر، فترى خير مافى الكامل للبرّد، والأمالى لأبى على القالى، وما
 لا يكاد يُحصى من الدواوين والأسفار، وما خلقه لنا الأوائل والأواخر
 من عبقرى الآثار.

«وبعد» فليسمح لى القارئ فى أن أزيده علماً بكنه هذا المعجم وحقيقه
 الطريقة التى اتبعتها، والجهد الجاهدة التى بذلتها، والملاحظات التى يصح
 أن تلاحظ عليه، والنقد الذى ربما يوجه إليه؛ فإنى بما أعتمل^(٤)
 جد بصير...

وأول ذلك وأولاه بالإشادة والتنويه: أنى أودعت هذا المعجم، كما
 أسلفت؛ خيراً مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى كيصح أن يُطلق عليه

(١) أحسن مافيه، وسويدوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعانى التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشري فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى

أذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان في هذا الإطلاق بعض الظلم «للذخائر والعبقریات» لأنها في الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات، وإياك والظن أن هذا العمل وحده هينٌ لئِنْ، فقد علمت أن المحاضرات لقد طغى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أن كلَّ حَرْفٍ، فضلا عن كل كلمة، من آيةٍ كريمة، أو حديثٍ شريف، أو بيت من الشعر، أو كلمة مأثورة، لا بد أن أحققه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يستقيم ويقرَّ به القرار، وإذ ذلك ألقى عصا التسيار، إذ تقرَّ عيني كما قرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يحيء بعد ذلك أني كلما رأيتُ الراغب يورد في أي باب من الأبواب أثرا من آثارهم، أكان من المنظوم أم من المنثور، فزعت إلى مظانِّه، فأكلت مالا بدَّ من إكاله، وزدت ما أستحسن زيادته، من كل ما قد يعلق بالذاكرة، أو أتعثر عليه في أثناء مطالعاتي ومراجعاتي.

أما أبوابُ هذا المعجم فقد عدتُ بها وانحرفت لآ عن أبواب المحاضرات فحسب، بل عنها وعن سائر ما كان على غرار المحاضرات من سائر الموسوعات، وأنت إذا تصفحتُ الذخائر والعبقریات بدالك أني ابتكرتُ طريقة مُشلي في تبويبها، فقد جَهدتُ جَهدِي أن تكون الأبواب متجانسة متجاوبة، ومن ثمَّ كسرتُ هذا المعجم على كُتب وطويتُ الكتب على أبواب وأدرجت في كل باب سائر المعاني المتشابكة الأرحام ...

أما عناوين المعاني فقد انتفعت بعناوين الراغب كل الانتفاع، فخذت على حذوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة في أكثر العناوين^(١)

(١) يلاحظ الناظر في الجزء الأول من الذخائر والعبقریات، أن خطني

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزت عن الراغب وغير الراغب بعمَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يَجْمَلُ شَرْحُهُ من العبقریات ، وقد يُلاحَظُ أنى تبسطت فى الشرح - فى كثير من المواضع - إلى الحد الذى قد يُتَكْرَهُ الخاصّة ، ولكن يَجْمَلُ أن يلاحَظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ الخاصّة وغير الخاصّة ، أى لكل قارئ ، على أن هذه الشروح هى الأخرى لَوْنٌ من ألوانِ الأدب والثقافة ، وقبلنا تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أن هناك من العبقریات - كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة - ما حرّفه السواد الأعظمُ عن مواضعه وجعلوا مغزاه الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تبيان معناه^(١)؛ وفى هذا علاوة على ذلك امتثال لقول سيدنا رسول الله : يَجْمَلُ هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى ما منها بُدُّ .

وبما امتاز به هذا المعجم أنى لم أقتصر على إيراد العبقریات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعاني فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من تلك صفحات هذا الجزء ثم استحسنت أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه - كما يرى القارئ - من الهنات الهيئات التى اغتفروا قد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

وإنما عَرَضْتُ فيما عَرَضْتُ لترجمة بعض العبقرين الذين نبغوا في معنى من المعاني، مثل القاضي أحمد بن أبي دواد، تلك الشخصية الضخمة التي حُلِدَتْ آثارها في اصطناع المعروف والإحسانِ إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول في ذلك كلَّ الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت في هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك في أجزاء اختصار، وقد يلاحظُ أني أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت في بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إما لأنني عَرَفْتُ ما من يجب أن يُعرَفَ وشرحت ما يَحْتُمِلُ أن يشرح في مواضع أخرى، وإما حَدَثَ ذلك سَهْواً ورفلة، وقد يَحْدُثُ - وذلك في النَّدرة - أن يكون الإغفال - ولا سيما إغفال التعريف بالرجال - لائقاً لم أوفَّق إلى التَّعَرُّفِ عليهم ...

هذا وكانت النِّيَّةُ أن أتوسَّع في إيراد عبقریات المعاصرين، ولكنني اقتصدت في ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتاب مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم معاني، وإن كنت قد عملت ما وجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتاب مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية تحشيتُ أن أنهم بما أنا براء منه في الواقع إذا أنا أوردت المختار من عبقریات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرة التداول بين قراء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقریات المعاصرين بمن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنته إirاده بما أقبل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً في مجلة البيان التي كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختياري على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقرين من الغابرين، وإن كان ذلك في النادر الذي لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول.

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقرات» فلهذه التسمية مغزى أغزوه، أما العبقرات فإنني أريد بها - كما هو واضح - كلماتهم القصيرة الماثورة المتفوّقة في معناها، على أني لم آلُ جهداً في تختيار العبقرى في معناه ومبناه معاً؛ وأما الذخائر فإنني لم أقتصر في هذا المعجم على اختيار نوايغ الكلم، وإنما قد تُلجئُ الحالُ إلى أن أشعّسه كما تُشعّشع الرياح، بالماء القراح^(١) فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية، على شريطة أن تكون بجانب مكاتها الرفيعة في بابها جميلة مستطرفة مُحذقة^(٢) قصيرة مُتجردة من الأذنان والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تراها مبعثرة ههنا وههنا في كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاء والخصيان، وكلامه على العين وأفعلها في المعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره... وأمثال لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين - الذخائر والعبقرات - مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يؤثرو ويذخر لنفسه، سواء كان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيم هو عبقرى من العبقرات.

(١) شعشع الشراب: مزجه، والماء القراح: الخالص الذي لا يشوبه شيء.

(٢) كلام محذف: من قولهم حذف الصانع الشيء: سواه تسوية حسنة كأنه حذف

كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب

وهذا المعجم يقع في زهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يستوعب ما يُرَبَّى على العشرين والثلاثمائة صفحة من هذا القِطْع ، من هذا الورق الذي تَرَى ...

«وبعد» فإنى على هذا الجَهْدِ الجَاهِدِ لأُبْرِيءُ هذا الكتاب ، من العاب^(١) ، وهل يصح في الأفهام أن رجلاً يَجْرُ وراءه نَيْفًا وستين سنة ، مُوقِرَةٌ بِكَلِّ ما يُضَعِفُ المُنَّةَ^(٢) ويوهن القوى ، وَيَعِصِفُ بالحيوية عَضْفًا ، لا تتكاثر هفواته وَعَثْرَاتُهُ ، وتَوَافُرُ سَقَطَاتُهُ وزَلَّاتُهُ ، في عَمَلٍ مِثْلِ هذا يُجَاهِدُهُ ، وتَأليفِ تَشَعُّبِ موضوعاته وَمَسَائِلِهِ ، وإذا كانت الموسوعات التي منها تَخَيَّرْتُ حِسَابًا بهذا المعجم فَذَلِكَ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظامًا نَهَى نِثَارُ مَبْدَدَةٍ هُنَاكَ ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم في العادة بالوراقين^(٣) والمصححين فلقد قمت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك ... على أن النقصان ، عالق بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للحى الذى لا يموت ذى الجلال ...

اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، يا مَنْ لا يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ^(٤) ، يا مَنْ وَعَدْتَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ^(٥) بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وحاشَ لَهِ أَنْ يُخْلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنَّة : القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم « السكرتيرين الخصوصيين »

(٤) الجد : الحظ ومعنى لا يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ : لا يَنْفَعُ ذا الْغِنَى عِنْدَكَ غِنَاهُ ، وإنما يَنْفَعُهُ الْعَمَلُ بِطَاعَتِكَ ، وَمِنْكَ : مَعْنَاهُ عِنْدَكَ

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانك تبارك اسمك وتعالى جدك ، أسألك يا مَنْ تُجيبُ دعوةَ
الداعي إذا دعاك ، أَنْ تَهَبَ هذا الكتاب من توفيقك ما يتصل معه برضاك ،
وَيُعْمُ الانتفاعُ به والإفادةُ منه ما اختلف الملوآن ، وكرّر الجديدان (١) . . .

عبد الرحمن البرقوقي

ديسمبر سنة ١٩٤١

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

(١) الملوآن والجديدان : الليل والنهار

استدراك

نُدت بعض أخطاء مطبعية في المقدمة وما هي ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها وفيه النور	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يجمل بكل من ينشد السعادة في
الدارين أن يجهد جهده في التحلي بها

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر باباً بينها]

[جميعاً لِحَمَّةِ نَسَبٍ وَقَرَابَةِ]

الباب الأول

في البرِّ والتقوى

البرُّ وألوانه

قال علاؤنا ما خلاصته: إِنَّ أَوَّلَ مَعْنَى الْبِرِّ: السَّعَةُ ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلُّ فِعْلٍ مَرَضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو كِبَابُ الْبِرِّ ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، وهي دُنُوَانُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جِمَاعُ الْبِرِّ^(١) ، قال تعالى : وَإِذْ لَبَّيْكَ مِنْ آتِقِي ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا الْإِنْتِمِ - وَالْإِنْتِمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرَضِيٍّ بِمَا يُؤْتِمُّ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمِ وَالْعُدْوَانِ . وَاقْتِرَانَهُ بِالْتَّقْوَى يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ دِينِ التَّقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنْتِمِ ، فَقَالَ : الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِه قَلْبُكَ ، وَالْإِنْتِمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسَ ، أَوْ كَمَا قَالَ . « حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَى أَثَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ

(١) ولان البر يطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوى : البر ثلاثة : برٌّ في

عبادة الله ، وبرٌّ في مراعاة الأقارب ، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالِإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالسِّرُّ كَالغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمرٌ : كثيرٌ مُبارك ، ومن أسماء الله البرّ -
يفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تُحِبُّونَ ، فمعناه : لن تنالوا برَّ الله ، أى لن تنالوا خَيْرِي الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما يسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأما خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البرّ - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون . . . والأبرار : الأخيار ، جمع برّ ،
وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجَّار فى قوله تعالى : إن الأبرارَ لنى نعيم . وإن
الفُجَّارَ لنى جحيم - والفجار : الذين يبعثون فى الشرور والآثام - وحب
مَبْرُورٍ : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه بهذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البرّ فى الخیر مرّده . . .



ولهم فى البرِّ مُطلقاً ، أى الخیر غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فمن ذلك قول الحُطَيْبَةِ :

وَمَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَا يَعدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ الله والناس

« جَوَازِيَهُ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطّيبَةِ

هذا ، فقيل له : فقول طَرْفَةَ بنِ العَبْدِ :

مَسْتَبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بالأخبار مَن لَمْ تُزَوِّدِ

فقال: «ن يأتيك بها بمن زوّدت أكثر، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن، إلا قول الخطيئة هذا. ويروى أن كعباً الحنبر - المشهور بكعب الأخبار - لما سمع هذا البيت قال: والذي نفسي بيده: إن هذا البيت لمكتوب في التوراة... وقال عبيد بن الأبرص:

والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به والشّرُ أَخْبَثُ ما أوعيتَ من زادٍ
« يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء »
وقال أبو العتاهية:

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنِ الثَّقَى وَالْبِرِّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

وقبله قال الأخطل - ورواه المبرد في الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض -:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
روى صاحب الأغاني: أن هشام بن عبد الملك لما سمع الأخطل وهو يقول هذا البيت قال: هنياً لك أبا مالك هذا الإسلام! فقال الأخطل:
يا أمير المؤمنين، ما زلت مسلياً في ديني؛ وقبل هذا البيت في ديوان الأخطل:
والناس همهم الحياة وما أرى طول الحياة يزيد غير خبال
« الخبال: الفساد، أو هولون من الجنون... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة: - وهذه الآيات يصح أن تذكر في باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع -:

يا نفسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وإنْ بَدَأَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمِ-
فَضَى بِنَقْوَاكِ فَأَمَّا كَلِمَا صَحَّكَتْ كما يَفُضُّ أَدَى الرَّقْشَاءِ بِالنَّرَمِ-
لا تَحْنَلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا الموتُ بِالزَّهْرِ بِمِثْلِ الموتِ بِالْفَحْمِ-

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ رَجْعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعِ وَخَمِ
«المبتسم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الشجر. والرقشاء
من الحيات: المنقطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سُئِمَهَا. والثرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: ما يُجْنَى من الشجرة ويقطف من ثمرها؛
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألم
غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَكْرٍ - وهو جنائتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويحُلب حتى ينال منها، إذ أن من ورائه السَّمَّ ناعماً، فثقلها في
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر، كلاهما موت، وإن كان هذا من
أثر الاختناق بأرج الزهر، وذلك من دَخْن الفحم. والمرتع: من رتعت
الماشية: أكلت ماشاءت، والمرتع: مكان الرتوع، والوخم: الردىء البوبء،
وقال المعرى:

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِالْأَجْلِ ثَوَابِهَا
«يقول المعرى: إن فعل كل ما هو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فعل
مالميس بجميل، ولو لم يجن المرء من وراء الجميل وفعله إلا أنه خير وأحسن
وأسمى وأرفع؛ لكان في ذلك الغناء كله، أما فعل الجميل ونصب عين فاعله
ذلك الثواب الذى سيجازى به، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض
الأوهد، ويُعدُّ من الأعمال التى يرفعها الله إلى أسفل، وجملة القول: إنه غير
لائق بالكمال والمثل الأعلى، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرون الله الذى
يعلم السرّ وأخفى، والذى هو جميل يحب الجمال! وسترى في باب التقوى

كثيرا من عقوباتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أي لم أر مثلهما لا يميز بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهرب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وصاله إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سببا في دخول النار مثل الشر^(١).. هذا، وإن أبي المجدون وأشباه المجددين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعر بها الأخيار البررة ويرآحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهبها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويحلون لهم، إذ أن هذا - أي سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشر فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مرادا لانباء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، على أن الإسلام على ذلك يمتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار بيده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر. الجامع الصغير،

خير الناس خيرهم لنفسه » وممناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كفاؤه بمثله « وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شَرُّ الناس من خافه الناس اتقاء شَرِّه « ومثل هذا القول تبكيت للشَّير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسِرٌ دائمٌ « وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخَيْرَ يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركتموه منهما كفاكوه أهله « يقول رضى الله عنه : إنَّ عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر وتركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فمله غيرك وحظي بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالدم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذن يجزى بالعاقل أن يُؤثرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فُلانٌ تَقَى الساحة من المآثم ، يَرىُ الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رَضِيَ لم يقل غيرَ الصدق ، وإذا سَخِطَ لم يتجاوزَ

جانبَ الحقِّ ؛ يرجع إلى نفسِ أمارَةٍ بالخيرِ ، بعيدةٍ من الشرِّ ، مدلولَةٌ على سبيلِ البرِّ ... ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً بلون من ألوانِ البرِّ وبالأمعية والذكاء والحصافة والآنأة قال : كان - والله - الفهمُ منه ذا أذنين ، والجوابُ ذا لِسائِنين ، لم أرَ أحداً كان أرتقى لِخَلَلِ رأيٍ منه ، ولا أبعدَ مسافةً رويتهُ ومَرَّادَ طَرْفٍ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يتَحَسَّى مَرارةَ أخلاقِ الإخوانِ وَيَسْقِيهِمْ عُذوبةَ أخلاقه ...

« كان الفهم منه ذا أذنين : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللِّسَن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مهلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البرُّ في بُردِيهِ بألوانِ شتى من المثلِّ العليا وأخلاقِ السادة ، في أسلوبٍ بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - : كان لي أخٌ في الله ، كان أعظمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ماعظمه في عيني صغرُ الدنيا في عيني ، كان خارجاً من سلطانِ بطنه ؛ فلا يشهَى مالا يجِدُ ، ولا يُكثِرُ إذا وجدَ . وكان خارجاً من سلطانِ فرجه ؛ فلا يدعو إليه ، وؤنة ، ولا يستخفُّ إليه رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطانِ لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الجهالة ؛ فلا يُقدِّم أبداً إلا على ثقةٍ بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صابِنا ، فإذا قال بزَّ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في وراء ، ولا يُدلي بِجَبَّةٍ ، حتى يَرى قاضيا فهِمًا وشُهودا عدولا ، وكان لا يلومُ أحدا فيما يكون العذر في مثله حتى يعلمَ ما عذرُه ، وكان لا يشكو وَجَعَه إلا عند من يَرجو عنده البرَّ ، ولا يستشير صاحبا إلا أن يَرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرَّم ولا يتخط ، ولا يتشكَّى ولا يتشهى ، ولا ينتقمُ من العدو ولا يَغفُلُ عن الوليِّ ، ولا يُخصُّ نفسه بشيء دون إخوانه ، من اهتمامه وحيلته وقوته ... فمليك هذه الأخلاق إن أطقها ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القائل خَيْرٌ من ترك الجميع ... قوله كان لي أخ الخ : فليس يعنى أبا بعينه ولكن هذا كلام خارج مخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم في الشعر : قفلت لصاحبي ، وبإصاحبي : وقوله : فلا يتشهى مالا يجدد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جَنَّبُوا مجالسنا ذكر تَشهى الأطعمة وحديث الكاح ؛ ومن طُرف الجاحظ مارواه عن نفسه : جالسنا في دار فمِلنا نتشهى الأَطعمة ، فقال واحد : أنا أشهى سِكباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشهى هريسة الدارصيني ... وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئرُ الدارِ ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطوني مِلءَ هذه الغَضارة - الصحفة - من طيبخكم ، فقال ثمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تسم رائحة الأمانى وقوله : وكان ضعيفا مستضعفا : يريد : كسِبَ الجانب ، وطأ الأكناف ، ... وقَرَعَ رَجُلٌ بابَ بعض الخَيْرين من السلف ، في ليل ، فقال لجارته : أبصرى مَن القارع ، فأتت الباب فقالت : من ذا؟ قال أنا صديقُ مولاك ، فقال الرجل : قولى له : والله إنك لصديق ؟ فنالت له ذلك ، فقال :

والله إني لصديق ، فهض الرجل وبيده سيف وكيس يسوق جاربه ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لابلك ماساءك ، فإنى قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكون - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجملها فى أعيننا ، ويجعلها مُحْتَمَلَةً مطاقَةً ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير - أى لا خير فيه - (١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ
وَنَفْسَ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً
عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرِّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قَطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القطوف من الإنسان والحيوان : البطء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَفَرَسَى رِهَان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هُما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . » والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فألفبوا أن يتسموا بالعبيد وقالوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة . ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِيكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك

حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهها ، فقال أبياتا منها
هذان اليتان

وقال الأشعرُ الرِّقْبَانُ - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمِّه
له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرُّ
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشْرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرُّ
إِذَا مَا اتَّدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وُلِدْتَكَ الْحُمُرُ
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِّ الْحَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرُّ

« قوله : غنيٌّ مُضِرُّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضرةٌ من المال ، وهي القطعة من
المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا
في ناديتهم ، والمسِيخُ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصَّ به بعض الغويين
الحواري الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :
المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالسُه ولا تسمعُ أذُنك
حديثه ، والحواري : ولد الناقة ساعةً تَضَعُه » ... ومما يحسنُ إيرادَه في هذا
الباب لِلْبُسْتَةِ واشتباهه قول عمر رضي الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف
الشر - فقال : ذلك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلاً وإنما
الواجب النفطة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر
واللؤم والخداع ، وفي معناه يقول حكيم لابته : استَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ
وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضي الله عنه لا يَقَعَّعُ
له بالشَّنَانِ^(١) وكان سيئ الظن بالناس ، يَدُلُّ على ذلك شدتهُ وصرامته

(١) لا يقع له بالشَّنَانِ : مثلٌ ، أي لا ينجح ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد
اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقة : التحريك ، والشَّنَانِ : جمع شن وهو القرية الخلق
أو الخلق - البالي - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد، فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق ...

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلَّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ تُؤلُّوا وُجوهكمُ قِبَلَ المَشْرِيقِ والمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائكةِ والكِتابِ والنبيينِ وآتَى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى والميتامى والمساكينِ وابنِ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصَّلَاةَ وآتى الزَّكَاةَ ، والمُؤفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهدوا ، والصابرينِ في البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينِ البأسِ ، أولئكَ الذين صدقوا وأولئكَ هُمُ الملتقون ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجُّه إلى قِبَلَتِهِ ، ففندَ اللهُ سبحانه هذا الزعمَ وبهرجَهُ وقال : ليس البرُّ العظيمُ الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرِّ هُوَ أمرُ القبلة ، ولكنَّ البرَّ الذي يجب الاهتمامُ به وَصَرَفُ الهِمَّةِ إليه هُوَ برُّ مَنْ آمَنَ وقَامَ بهذه الأعمال ... هذا ، وقوله . ليس البرُّ أنْ تُؤلُّوا ، فالبرُّ بالنَّصب خبرُ ليسَ مُقدَّم ، وأنْ تُؤلُّوا ، وولَّ بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمّا مثلُ قول الخنساء (١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هي إقبال وإدبار ، من آيات ترى أجاها صخرًا تقول فيها :

فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ هـ أو تقول ؛ ولكن البرّ: أى ذا البرّ
 أو تقول، إنه على حذف مضاف، أى برّ من آمن. وقوله سبحانه: والكتاب،
 يعنى جنس كتب الله، أو القرآن. وقوله: على حبه، أى مع حُبّ المال
 والشعّ به، وقدم ذوى القربى لأن الإحسان إليهم أفضل، كما ورد في
 الأثر: صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذى رحك أئتان، صدقة وصلة،
 وابن السبيل: المسافر المنقطع، وقيل الضيف: لأن السبيل يرعف به - أى
 يتقدم به ويبرزه للقيمين كما يرعف الأنف بدم الرعاف - وقوله: وفي الرقاب: أى
 وفي معاونة المكاتبين حتى يفكروا رقابهم وقيل: في شراء الرقاب وإعتاقها،
 وقيل: في فك الأسارى. وقوله: والموفون بعهدهم: عطف على من آمن
 وقوله: والصابرين، فهو منصوب على المدح، ولم يعطف، لفضل الصبر على
 سائر الأعمال، والبأساء، أى في الأموال كالنقر، والضراء، أى في الأنفس
 كالمرض. وحين البأس: أى وقت مجاهدة العدو... أليست هذه الآية الكريمة
 - كما قال الإمام البيضاوى، وكاترى - جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها، دالة
 عليها صريحا وضمنا، فإنها على تشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد،
 وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: من آمن

فما عجولٌ على بؤٍ مُطيفٍ به لها حنينانٍ إعلانٍ وإسرارٍ
 ترتعُ ما غفلت حتى إذا أدكرتُ فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ
 يوماً بأوجد منى حينَ فارقتى صخرٌ وللدهرِ إحلاء وإسرارٍ

د العجول من الإبل: الواله التي قدمت ولدها، لعجلتها في جئتها وذهابها جزعا
 والبؤ: جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدر، وقولها: فإنما
 هي إقبال وإدبار: جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة، أى أنها تنلهى عن الرعى فتقبل
 وتدر جزعا

بِالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصلةُ الرحم

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى °

وإليك شدوا من عبقرياتهم في لَوْنٍ من ألوان البر لقد نراه بادي الرأى قليل الخطر ، وهو عند الله الحق ، ولدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيم كلِّ العظم ، خطير كلِّ الخطر ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ، ولقد قرن الله برَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثر في كتابه المُنزَل من الحضِّ على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان الدين ، وأساس من أسس الأخلاق لا يُؤبَّه لسائرهما بدونهُ ، وإنه لكذلك ، وفي الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم لِمَا يُعْتَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التي يمتاز بها . فليُتَّقِ أبناءُ اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هذا وستسمع بادي ذى بدء خير

(هـ) البَابَةُ عند العرب : الوجه ، والبَابَاتُ الوجوه وأنشدوا تميم بن مقبل :

بنى عامر ماتأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائياً

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب وهى أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والأقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرفة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَجَزَّأُ بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةَ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزْتَحِرُّ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلْمِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه: وَاقْضَى رَبُّكَ: أى أمر أمرًا مقطوعاً به... وإِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مُرْوَعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ مَا زَلَّالَا شَدِيدًا. وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ. أَمَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ: أى قَضَى رَبُّكَ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ. وَقَوْلُهُ: وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا، أى وَقَضَى رَبُّكَ أَنَّ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا، وَقَوْلُهُ: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا، فَإِمَّا: هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا تَأْكِيدًا لَهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ يَبْلُغَنَّ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ، وَأَفٍ: صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ، وَعِنْدَكَ: قَالَ الزُّنْجَشَرِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلَاءً عَلَى وَلَدِهِمَا لِأَنَّ كَافِلَ لَهَا غَيْرَهُ، فَهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتْفِهِ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطَأَةَ الخُلُقِ وَإِينَ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستقذر منهما أو يستثقل من ثؤنهما - : أف ، فضلا عما يزيد على أف ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرخص في أدنى كلمة تنفكت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ومتمتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنههما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، وقل لهما قولاً كريماً : أى جميلاً ، كما يمتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للدومنين ، فأضافه إلى الذل أو الذل^(١) كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذلّه أو لذلّه لهما جناحاً خفياً كما جعل لبيد - الشاعر المخضرم - للشمال يداً وللقرّة زماماً^(٢) مُبالغة في التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ، لكسبرهما وافتقارهما إلى من كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ، وبضها أيضاً - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرِقَّةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
 ، القرّة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهي أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كمنفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كفت غرب عاديته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَضِيَ اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسُخِطُهُ فِي سُخْطِهِمَا . وَرَوَى : يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ : وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنْ أَبَوِيَّ بَلَّغَا مِنَ الْكِبَرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَا وَوَلِيَا مَنِيَّ فِي الصَّغَرِ ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا ؟ قَالَ : لَا ، فَإِنِهَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهِيَ يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا : وَعَنْ حُدَيْفَةَ : أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : دَعُهُ بِلَيْهِ غَيْرُكَ . وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ . فَقَالَ : أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا تَنْظُرَ شَرًّا إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا ، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا ، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أُودَادَيْهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ . . . أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْأَقْرَابِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ : أَنْوَهُمْ حَقَّهُمْ ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَامَرَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَعَاوَدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ .

« انظر التفصيلات في كتب الفقه ، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني أريد الغزو ، فقال عليه الصلاة والسلام : أحسّ أبواك ؟ قال : نعم ، قال : فَمِنْهُمَا فَجَاهِدْ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ تَبْدُلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لك به عِلْمٌ فَلَا تُطْعُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يُؤَثِّرُ من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أرَ أحداً
أَبْرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكي - بأبيه ، بَأَخ من برِّه به أن يحيى كان
لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّن وهما في السجن ، فنههما السجنان من إدخال الحطب
في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أَخَذَ يحيى مَضْجَعَه - إلى مُقْمٍ ^(١) كان يُسَخَّن
فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى
أصبح ... وقيل لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنك
من أبرَّ الناس بأملك ولنا نراك تأكلُ مع أمك في صحفة ، قال : إني أخاف
أن تسبقها يدي إلى شيء سبقت عينها إليه فأكون قد عققته . وقيل
لِعمر بن ذر ^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ آبيك بك ؟ قال :
ما ماشيته قط نهاراً إلا مشى خافئاً ، ولا ليلاً إلا مشى أمامي ، ولا رقي
سطحاً وأنا تحته .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العققة : « والعقوق ضد البر »

(١) إناؤه من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الهمداني
كان واعظاً بليغاً وعباداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيعا له . دخل يوما على
ابنه وهو موجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقفور -
ولابنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره : وقال :
يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لانا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم
إني وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقه
واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين
قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقِّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والده يُعَقِّه عَقًّا وعقوقًا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والديه : قطعتهما ولم يصل رحمهُ منهما وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّحمِ ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَةٌ ، مثل كَفَرَةٍ « فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكَلُّ من لا يُشكَلُ » الشكل الموت والهلاك ، وأكثر ما يُستعملُ في فقدان الرجل والمرأة ولدهما ، يعنون أن مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ » وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَحِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعتْ آذتُ ... وقيل لأعرابيٍّ كيفَ ابْنُكَ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَدَابٌ رَعِفَ به الدهرُ ، فإلْتَنِي قَدْ أودَعْتُهُ القَبْرَ ، فإنه بلاءٌ لا يقاومه الصبرُ ، وفائدة لا يجب فيها الشكرُ » قوله رَعِفَ به الدهرُ : يريد تقدم به الدهرُ وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أم ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقًا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :

رَيْبَتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَعْبًا
حَتَّى إِذَا آضَ كالفُحَالِ شَدَّبَهُ أَبَارُهُ وَنَقَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرَبَا
أَنْشَا يُحَرِّقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الأَدْبَا
إِنِّي لَأُبْصِرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبًا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِي رِفْقًا يَا ابْنَ لَنَا فِي أُمَّنَا أَرَبَا
لَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارِ مُسْعَرَةٍ مِنَ الجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبًا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةِ حالِ الابنِ العاقِ يكون حَظْلُهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِه على أمِّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبرُ
 أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
 آخر للفرخ، وَالزَّغْبُ: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
 ابنها، وآض: صَارَ، وَالْفُجَّالُ: خال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وَأَبَارُهُ: الذى
 يصاحبه يقال: أَبْرَتِ النَّخْلُ: إذا لَقَّحْتَهُ، وشَدَّ بِهِ: قطع ما عليه من الكرانيف
 وهى أصول السَّعْفِ الغلاظ التى إذا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكتافِ،
 ومته: فمن كل شيء ما ظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعْفِ فى النخل
 تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشا: أصله أنشا، تريد: آتدا
 وأقبل، وقولها: أبعدستين عندى يتغى الأدبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديها
 بعد أن بلغت الستين حق منه وعبث، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها:
 إنى لأبصر ... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنكب، والترجيل: تسريح الشعر
 تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأمنا .. أضاقها إلى نفسها خديعة،
 وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينها ...

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لم أبطأت؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
 فى اليتم قبل أن يسبقونى فى العقوق ...

وأورد المبرد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخْشِ حديثا طريفا قال:
 قال أبو المِخْشِ: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فُتَبْرزُ كَفًّا كأنها
 طَلْعَةٌ، فى ذراعِ كَأَنَّهَا جَمَّارَةٌ، فلا تقعُ عَيْنُهَا على أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّتْنِي بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكِنَّةِ وأنت الكِنَّةُ إلا ضنَّه

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلسُ معي على المائدةِ ابنُ ثُلِي ، فَيُسَبِّرُ كَمَا كَانَتْهَا
 كِرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعِ كَانَهَا كَرَبَّةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
 سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... « الطَّلَعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمِنْخَشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلَعٌ ، وَهُوَ نَوْرُ
 النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ وَعَاؤُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
 الَّتِي إِذَا قَطَعْتَ رِقَّةَ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ سَنَامٌ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
 الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
 فَإِنَّ نَافِيَةَ بِمَعْنَى مَا ،

وأورد أبو تمام في باب الهجاء من حماسته لأحد الشعراء أياتاً لها قصة
 فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عقبة الأبناء ، وإليك هذه القصة والآيات :
 كان في زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
 لِمُنَازِلِ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيْجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّ
 خَلِيْجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْيَاسَمَةَ ، مُسْتَعْدِيًّا
 عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّمَنِي حَتَّى خَلِيْجٌ وَعَقَّيْ عَلَى حِينِ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي (١)
 لَعَمْرِي لِفَسْدِ رَيْبَتِهِ فَرِحَ بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي امْرُؤٌ بِنُغْلَامِ
 وَكَيْفَ أُرَجِّي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامِ (٢)
 وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَرَدَّتْهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامِ (٣)

(١) كانت كالحني عظامي : أي كانت عظامي كالحني ، وهو جمع حنية ، وهي القوس ،
 لأنها حنية ، أي معطوفة

(٢) حرامية : نسبة إلى حرام وهي قبيلة

(٣) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذي لا يستطيع أن يتفصى منه قال

تعالى : إن عذابها كان غراما : أي هلاكا دائما ملحا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبُهُ ، فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لا تَعَجَلْ عَلَى
أَعرَفِ هَذَا ؟ قال : لا ، قال : هَذَا مُنَازِلُ ابنِ فُرْعانَ ، الَّذِي عَقَّ أَباهُ ، وفيه
يقول أبوه :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلِ	جَزَاءً كما يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ (١)
لَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْظُمًا	يَكادُ يُسَاوِي غارِبَ الفَحْلِ غارِبُهُ (٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخُصًا	قَرِيبًا وَذا الشَّخْصِ البَعِيدِ أَقارِبُهُ (٣)
تَعَمَّدَ حَتَّى ظالِمًا وَلَوَى يَدِي	لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غالِبُهُ (٤)
وَكانَ لَه عِنْدِي إِذا جاعَ أَوْ بَكَى	مِنَ الزَّادِ أَحلى زادِنا وَأَطابِئُهُ
وَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذا ما تَرَكَتُهُ	أَحا القَوْمِ وَأَسْتَخْنَى عَنِ المَسْحِ شارِبُهُ (٥)
وَجمَعَتُها دُهما جِلادًا كَأَنا	أَشاءَ نَحْيِـلٍ لَمْ تُقَطَّعْ جَوازِئُهُ (٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه
يقول : جزى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطان : الطويل ، ولربيتة : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيتة وربيتة
وتربيتة وربيتة تريبا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قدماه السنام - ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره وأقرب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعفت نظره واختلفت مواقع

بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تعمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى فلتها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أحا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أحا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيْبًا كَأَنِّي حُسَامٌ يَمَانُ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ (١)
 إِنَّ أُرْعَشْتَ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتَ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ (٢)
 فقال الوالي : يا هذا ، عَقَقْتُ فَعَقَقْتَ ، فَمَا لَكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدِ
 لِأَبِي ذُوَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزي : وذلك أن أبا ذُوَيْبٍ (٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُوَيْبٍ إلى صديقه بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُوَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما ترجّل أبو ذُوَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وحُجِبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُوَيْبٍ ، فقال أبو ذُوَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيَنِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَمْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشام بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحده أشامة (١) السليب : الذي سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعددتها لي وله ، عدا على بعد
 أن ريته وبلغ مبلغ الرجال وجرذني من الخيل وتركني سليبا ، فأشبه حال السيف
 اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُوَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُوَيْبٍ الهذلي ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هي امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بني عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميبداني في شرحه هذا المثل ، ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَحْزَنْ عَنِّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتِ سِرَّتِهَا البيت
 ولأُمِّيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشَّاعِرِ الجَاهِلِيَّ (١) أَيْبَاتُ حَسَانٌ يَشْكُو فِيهَا هُوَ
 الآخِرُ ابْنَهُ الَّذِي عَقَهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ : وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَاةِ قَالٍ :
 عَذُوْتُكَ مَوْلُودَا وَعُائَتُكَ يَا بَعْمَا تُعَلُّ بِمَا أُذِنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُّ (٢)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتِ إِشْكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَّلُّ (٣)
 كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُّ (٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُّ
 جَعَلْتُ جِزَائِي مِنْكَ جِبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُنْفَعَلُّ (٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخزفي الجاهلية ورفض عبادة الاوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه

(٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك ، من مان
 أهله يموتهم مونا : أنفق عليهم ، ويا فعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت إليه من الماء ليلا ، وكلهن فوادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من
 أنمله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ رِطْبُهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوِي فَأَخِي طِبِّي
 وَأَتَمَّلُّ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا بنا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقة الهم يطرقة - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلِمَتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعِ حَقَّ أَبِي تَنِي فَقَلَّتْ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
 وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ الْمَفْنَدِ رَأَيْهُ^(٢) وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٣)
 تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ^(٤)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً بعث ابنه ليُشترى حَبلاً ، فقال له : آجعلهُ عشرين ذراعاً ، فقال الولدُ : في عرض كم ؟ قال : في عرض مُصِيتي فيك .. وكان لأبي العباس المبرِّد صاحبِ الكامل ابنٌ مُتخلفٌ ، فقيل له يوماً : عَطَّ سَوْءَ تَك ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ ابْنِهِ .. وقيل لصبيٍّ : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فقال : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ وَالِدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَفْلَحُ أَبَدًا ...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقٌّ . وما ورد في ذلك ما جاء في الحديث : من حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنَى تَرْبِيئَهُ وَتَهْدِيئَهُ وَتَعْلِيمَهُ ، وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيِ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فِي زَوْجِهِ » ... وقال حكيم من آدَبِ وَلَدِهِ صَغِيرًا ، سُرَّ بِهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْعَمَ حَاسِدَهُ وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادَكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَفَرُّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ ؛ وَمَنْ كَلَامُهُمْ : لَا عِبَّ ابْنُكَ سَبْعًا وَعَلَّمَهُ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانَكَ

(١) كما الجار المجاور يفعل : أي كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المفند رأيه : اسم مفعول من فند رأيه : خطأه (٣) معدا : اسم فاعل ،

أعد الأمر عدته : هياه له

سبعاً يَتَّبِينُ لَكَ أَخْلَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أُمَّ خَلْفٌ « الْخَلْفُ - بفتح اللام: الولد الصالح، والخلف - بسكونها: الطالح، تقول: أعطاك الله خَلْفًا مما ذهب لك ولا تقل خَلْفًا، وتقول أنت خَلْفٌ سَوِيٌّ من أبيك، هذا هو الأعراف عند أهل اللغة^(١)، وقال رجل لأبيه. يا أبت، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَيَّ لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ، وإن الذي تَمُتُّ بِهِ إِلَى أُمَّتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ، ولستُ أُرْزَعُ أَنَا عَلَيَّ سِوَاهُ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء... »

وقالوا: إِنَّ الْوَالِدَ الْبَارَّ أَبْرَأُ مِنَ الْوَالِدِ، لِأَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ، وَبِرُّ الْوَلَدِ وَاجِبٌ، وَالْوَاجِبُ أَبَدًا ثَقِيلٌ، وَلَعَلَّ الْمُنْبِيَّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمُنَى إِذْ يَقُولُ:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَائِمُ
طَعُ أَخِيَّ مِنْ وَاصِلِ الْوَالِدِ

ومما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العققة لعقوقهم: فقد قيل لبعض الفلاسفة: لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ؟ قال: لأنهما أخرجاني إلى السكون والفساد... وضربَ رَجُلٌ أَبَاهُ، فقيل له: أَمَا عَرَفْتَ حَقَّه؟ قال: لا، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي، فبيل: فما حقُّ الولد على الوالد؟ قال: أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ، وَيُحْتَنِنَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لَمْ يُحْتَنَنْ - وَقَالَ: آسَمِي بُرْعُوثَ... وَلَا أَعْلَمُ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ... فقيل للوالد: احتمله، فإنك تستأهل... »

(١) قال الله عز وجل: خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وقال لبيد:

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وعير رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمّة... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشكل يا بني! فقال الابن: اليتم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومربضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم...

دأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلا من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغاظة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سره بنوه ساءته نفسه... وفي ضد هذا المعنى يقول أكرم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِي صَيْفِيَّةٍ صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ

ويقال أصاف الرجل يصيف إصافة: إذا لم يولد له حتى يسن ويكبر وأولاده صيفيون، والواحد صيفي، والرّبعيون: الذين ولدوا في حدائثه وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت لأنه لم يكن في أبنائه من يقبله العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر. وهذا على نقيض قول القائل: من سره بنوه ساءته نفسه، وإن كان لكل وجه هو مولياها،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خدّمك بنوك، فقال عمر:

بَلْ أَغْنَانَا اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكان يقال: ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا، وخَادِمُكَ سَبْعًا ثم عدوٌّ أو صديقٌ ...

وفي الأثر: رَيْحُ الْوَالِدِ مِنْ رَيْحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى -
يوماً، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرةً من الأولاد ما أقبأت واحداً منهم،
فقال رسول الله: فما أصنع إن كان الله تَزَعِ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الرجل انقطع
عمله، إلا من ثلاث: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ.
وقالوا: خيرٌ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَلَدٌ مُوَافِقٌ.
من زوجةٍ موافقةٍ * ومُتَعَةٍ الْعَيْشِ بَيْنَ الْإِهْلِ وَالْوَالِدِ *

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وِلْدَانَ لَهُ صُنْبُورًا، وَالصُّنْبُورُ فِي اللُّغَةِ: الْإِبْتَرُ
لِأَعْقَبٍ لَهُ وَلَا أُخَّ، فإذا مات انقطع ذِكْرُهُ وَكَانَ كَفَّارٌ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: صُنْبُورًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إِنَّ شَانِتَكَ هُوَ الْإِبْتَرُ « شَانِتُكَ:
مِبْغُضُكَ، وَالْإِبْتَرُ الَّذِي لَا عَقَبَ لَهُ » ...

وقال حكيم في مَيِّتٍ: إن كان له ولد فهو حَيٌّ وإن لم يكن له ولدٌ
فهو مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب: أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أي ابنُ نَفْسِكَ لِأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ،
ومثله: وَوَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقِيبُكَ » يعنون: الذي نَفِسْتِ بِهِ فَادَمَى النَّفْسُ
عَقِيبُكَ، أي: ابْنُكَ مِنْ وِلْدَانِهِ لِأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ، وقيل لحكيم: ما السَّعَادَةُ؟ قال:
أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ، فقيل له: الواحد يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ! قال:
لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهادِ : هَلَّا تزوّجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارينِ ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُومَلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى الدَسَلِ
هَلِ الوَلَدُ المَحْبُوبُ إِلَّا تَعَلَّةٌ

وهلْ خَلْوَةٌ الحَسَنَاءِ إِلَّا أذى البَعْلِ (١)

وقد ذُفَّتْ خَلْوَاءُ البَنِينَ عَلَى الصَّبَا فلا تَحَسَّبَنِي قَلْتُ مَا قَلْتُ عَنْ جَهْلٍ
وقال المَعْرِيُّ - وهو إمام الساجدين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وُلْدَ الفَتَى عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أُنْضِيَ عَقِيمًا
فإِذَا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِنَّمَا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِنَّمَا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَبْقَى حُزْنُهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ بِابْنٍ فَقَالَ : لا مَرْحَبًا بَيْنَ إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي ،
وَإِنْ كُنْتُ فَقِيرًا أَتَعْبَنِي ، لا أَرْضَى كَدِّي لَهُ كَدًّا ، وَلا سَمِيحِي لَهُ فِي الحَيَاةِ
سَعِيًّا ، أَهْتَمُّ بِفَقْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِي ، حِينَ لا يَنَالُنِي بِهِ سرورٌ ، وَلا يُهِمُّهُ لِي حُزْنٌ ،
وَأَحْضَرُ الحَسَنَ يَوْمًا - أَي ذَهَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ - فَرَأَى صَيَّادًا فَقَالَ : مَا أَكْثَرُ

(١) تَعَلَّةٌ : يُقَالُ : فُلَانٌ يَمَلَلُ نَفْسَهُ بِتَعَلَّةٍ : أَي لَهَاهَا بِهِ كَمَا يَمَلَلُ الصَّبِي بِشَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ يَتَجَرَّأُ بِهِ عَنِ اللَّبَنِ . يَقُولُ : إِنْ السَّرورُ بِالوَلَدِ المَحْبُوبِ لا يَدومُ وَإِنَّمَا هُوَ تَعْلِيلٌ إِلَى وَقْتٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَخَلْوَتُكَ بِأَمْرَاتِكَ أذى لَكَ فِي الحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا تَجَلِبُ لَكَ وَلِذَا تَعْتَمُ مِنْ أَجْلِهِ وَتَتَأذى بِتَرْبِيَّتِهِ وَرَبَّمَا كَانَتِ العَاقِبَةُ إِلَى الشَّكْلِ

ما يَقَعُ فِي شَبَكَتِكَ؟ قَالَ: كُلُّ طَيْرٍ زَاقٍ «أَيُّ يَزُقُّ أَفْرَاخَهُ أَيْ يُطْعِمُهَا بَقِيهِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: هَلَكَ الْمُعِيلُونَ «أَيُّ الَّذِينَ لَهُمْ عِيَالٌ كَثُرَ،

وَقَالَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدِ ابْنَيْ بَدْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ وَإِنَّكُمْ لَتُجْلُونَ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: الْوَالِدُ مَجْبُتُهُ مَجْهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ.. «يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْوَالِدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجَبَنِ، فَلَا يُجَاهِدُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمَلَاعِبَتِهِ إِيَّاهُ وَتُرْوَاهُ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكُهُ الْعَقْلَ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالَهُ بِهِ عَنِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَعَلَى الْبُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخُلُ بِهِ وَيَشْعُ»..



وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْإِشْفَاقِ عَلَى الْأَوْلَادِ: فَوَلُ حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وَهُوَ

شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ، وَأَيَّاتُهُ هَذِهِ فِي الْحَمَاسَةِ -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخِ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي
لَوْلَا بُبَيَّاتُ كَرْغَبِ الْقَطَا رُدُّدَنَ مِنْ بَعْضِ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَمَّتْ عَيْنِي مِنَ الْقُمْضِ
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ،

وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطْمَئِنٍّ مِنَ الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ، وَبِوَفْرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُتَلَبَّ ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

✽ وأدركُ ميسورَ الغنى ومعنى عرضى ✽ أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدها زغباء والذكر أزغب والصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِّدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ واضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهن ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم العين : النوم ،

✽ ✽ ✽

ويقول إسحاق بن خلف ^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الإغاني وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

ألقى بجنايب خصره أمضى من الأجل المتأخ
وكأنما ذرَّ الهبا عليه أنفاس الرياح =

تسمى أئيمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهي من أبيات الحماسة :

لولا أئيمته لم أجزع من العدم ولم أفاس الدجى في حديد الظلم -
وزادنى رغبة في العيش معرقى ذل اليتيمة يجفوها ذور الرحم -
أحاذر الفقر يوما أن يُيلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم -
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا

والموت أكرم نزال على الحرم -

أخى فظاظة عم أو جفاء أخ

وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

«العدم: الفقر، وقوله: فيهتك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه

أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضم ، فالوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب في باديتها إذا نحر بعير للحمي بقسمونه ، تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مقطعا يأخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد ، وكانت تضرب المشل في

== وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكررمة إذا لم يلحن
قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تكررمة إذا لم يلحن من حديث حدثنا
به عن الأصمعي قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدري من هم : رجل رأته
راكبا فى شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم
بالاستصغار حتى يدري من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو سمعته فى
مصر عربى يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل
رأته على ظهر طريق ينازع فى القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وألقه
بأخلاق السادة .

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلابهن إلا أن يذادَ عنهن ، بذلك اللحم مادام مع الوضم .
 وقوله : شفقا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحُرْم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المسكُرات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقى عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيتَ عليه
 ورحمته « ... وقال عمرانُ بنُ حِطَّان - وقد كان رأسَ القَعْدِ من الصُّفْرِيَّةِ
 » طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

أقد زاد الحياةَ إلى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَحَاقَّةَ أَنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافِ
 وَأَنْ يَعْرَبْنَ إِنْ كَسَى البَجَوَارِي فَتَذُبُوا العَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافِ
 ولولا ذاك قد سَوِّمْتُ مَهْرِي وفى الرحمن للأضعفاءِ كافِ
 أبابا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَتَ عَنَّا وصارَ الحَيُّ بَعْدَكَ فى اِخْتِلافِ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإثنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والنجف : الهزال
 وسومت مهري : فالخيل المسومة : المرسله وعليها ركباتها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسومة ، من قولك سومت فلانا إذا خائته وسومه ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسومة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِسَبْرِهِ بِهِ ، وهى من آيات الحماسة :

رَأَيْتُ رَبَّاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَى شِبَابِي لَيْسَ فى بَرِّهِ عَثْبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَرَازَةَ فَأَنْتَ الحَلَالُ الحُلُوُّ والبَارِدُ العَذْبُ

لنا جانب منه دَمِيثٌ وجانبٌ إذا رَأَمَهُ الأعداءُ مُمْتَنِعٌ صَعْبٌ
 وتأخذه عند المكارم هِزَّةٌ كما هَتَزَتْ تَحْتَ البَارِحِ الغُصْنُ الرَطْبُ
 «قوله ليس في بَرِّهِ عَثْبٌ: يريد ليس في بره لَوْمٌ ولا سَخَطٌ، وقوله:
 إذا كان أولاد الرجال حَزَازَةً، فالحزازة: وجع في القلب من غَيْظٍ ونحوه
 والجمع حَزَازَاتٍ، وتروى: إذا كان أولاد الرجال مرارةً، وهي الأنسَبُ
 بقوله فأنت الحلال الحُلُو، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه، على المَثَلِ بالحُلُو
 الحلال مما يُذَاق، يصف طيب أخلاقه، وقوله: دَمِيثٌ: أى سهل لِينٌ،
 والبارح: الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبية
 وكانت امرأته تُؤذى ابنه عِرَاراً - وكان من أمة سَوَدَاءَ - تُعِيرُهُ بالسواد
 وَتَشْتُمُهُ، فلما أَعَيْتُ أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها
 أبو تمام هذه الأبيات:

أرادت عِرَاراً بالهوانِ وَهَنٌ يُرِيدُ	عِرَاراً لَعَمْرِي بالهوانِ فَقَدْ ظَلِمَ
فإن كنتِ مَنِيٌّ أو تُرِيدِينَ صُحْبِي	فكوني له كالسَّمَنِ رُبٍّ له الأَدَمُ
وإن كُنْتِ تَهْوِينَ الفِرَاقَ ظَعِينَتِي	فكوني له كالذَّئِبِ ضَاعَتْ له الغَنَمُ
وإلَّا فِيسِرِي مِثْلَ ماسارِ را كُبِّ	تَجشَّمْ خِمْسًا ليس في سَيْرِهِ يَتَمُّ
وإنَّ عِرَاراً إن يَكُنْ ذا شَكِيمَةٍ	تُقاسِئُهَا مِنْهُ فما أَمَلِكُ الشَّيْمِ
وإنَّ عِرَاراً إن يَكُنْ غيرَ واضِحِ	فإنِّي أَحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْسِكِ العَمِّ

«قوله: فإن كنت مني: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب ومعنى فإن كنت مني: فإن
 كنت توافقيني، من قولهم فلان منياً. أى: يوافقنا. وقال المرصفي: معناه: فإن كنت
 مثل نفسي سيدة، وقوله: أو تريدين صحبتي: أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لا حظ

لها في السيادة، وقوله: فكوني له كالسمن: أى كوني له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع الأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فساده ويزيد فى طيب ريحه، فقوله: رُبّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذئبا أهملت له الغنم يعيث فيها، ويقال لزواج
الرجل: ظعينة، وهى دقيمة، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاةٌ بعد ماؤها حتى إر الإبل كترده فى اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: التتور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقني وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخليقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أفدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حدته، وإما أن تفارقني فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضح الصبح
وهو يياضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنتكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعمم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجّاج رسولا
فى بعض فتوحه، فلما مثل بين يدي الحجّاج لم يرفه، وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد فى كل ما سأل، فأنشد الحجّاج
تمثلا:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرُدُّ عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجِبَ به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ما قالوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهي مؤنثة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكْرِمَ وَاذْكُرُوا

أَوْاصِرَنَا وَالرَّحِمُ بِالغَيْبِ تُذَكِّرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ به والأرحامَ ، أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفي قراءة : والأرحام بالخنض ، وإذن يكون المعنى : تَسَاءَلُونَ به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللهم صلِّ مَنْ وَصَّأَنِي وانقطع مَنْ قَطَعَنِي . . . قال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بيني وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وامتسك بَعْضُهُ ببعض ، وعبارة أبي عبيدة في تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن (١) من أبيات جميلة تراها في خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ وطبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة « وقال عبد الله بن أبي أوفى: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: لا يجالسنا قاطعُ رحمٍ ، فقام شاب ، فأنى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي: إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث: من أحبَّ أن يُبَدِّطَ له في رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ له في أَجَلِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ « يُنْسَأُ: يُؤَخَّرُ ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنَسَأَةٌ في الأثر . منسأة: مفعلة من النَّسَأِ أَي مَظَنَّةً له وموضع ، والأثر: الأجل ، وفي الحديث: لا تستنسؤا الشيطان أي إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستعملوا الشيطان ، يريد: أن ذلك مُهَلَّةٌ مُسَوَّلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر: البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ، ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم: من كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعِمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أي امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب وَيُقْصِي الإقاربَ وَيَجْرِمُهُم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب ... وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه: كان عمر يمنعُ أقرباهه ابتغاء وجهِ الله ، وأنا أُعْطِي قراباتي لوجهِ الله ، ولن يُرى مثلُ عُمرٍ ... فنأمل قوله: ولن يُرى مثل عُمر ... أي لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلُ مِنِّي، رَضِيَ اللهُ عن الجميع ..

ومما يروى في معنى حث الأقارب على التعاون: أَنْ أُنْكَمَ بنَ صَيْفِيَّ
حكيمَ العرب دعا أولاده عند موته ، فاستدعى بِضَمَانَةٍ من السهام « أَى حُرْمَةٍ
منها ، لغة في الإضمائة ، وتقدم إلى كل واحد أَنْ يَكْسِرَهَا ، فلم يقدر واحد
على كسرها ، ثم بددها وتقدم إليهم أَنْ يكسروها ، فاستسهلوا كسرها ، فقال :
كونوا مجتمعين ، لِيُعْجِزَ من ناوأكم « أَى عاداكم ، عن كسركم ، لعجزكم ...
وقال الشاعر في هذا المعنى :

إِنَّ القِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فزَاهَا بِالكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشِ أَيْدٍ (١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُنْكَسِرْ ، وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر في هذا المعنى :

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ ذُلَّ قَبِيلَةَ رَمَاهَا بِتَشْقِيَتِ الهوى والتخاذل
« وهذا كما يقال في الأقارب يقال في كل جماعة بينهم كُفْمَةٌ تجمعهم ، من
وطن وغير وطن ، ومما يروى : أَنْ رجلا من العرب قتل ابنَ أخيه ، فدُفِعَ
إلى أخيه لِيَقْتَادَ منه فلما أهوى بالسيف أُرْعِدَتْ يدهُ ، فَأَلْقَى السيف من
من يده وَعَمَّأَ عنه ، وقال : - والبيتان في الحماسة - :

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان : الغضب والغيط ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ :

أَسْوَدُ شَرِّى لَاقَتْ أَسْوَدَ خَفِيَّةً تَسَاوَأَا عَلَى حَرْدِ دِمَاءِ الأَسْوَدِ
والأيد : القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيبَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدْ (١)
 يَكْلَاهُمَا خَلْفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ رِذَاوَلَدِي (٢)
 وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وائلة الذهلي - وهي من
 أبيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُسِّمَ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
 فَلَيْنَ عَفْوَتُ لِأَعْفُونَ جَلَالًا وَلَيْنَ سَطَوْتُ لِأُرْهَتِنَ عَظْمِي
 لَا تَأْتِنَن قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالشِّمِّ وَالرَّغْمِ
 أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِعَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبِي
 وَزَعَمْتُمْ أَنْ لِأَحْلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
 وَوَطِئْنَا وَطَأً عَلَى حَنْقٍ وَطَأَ الْمُقَيْدِ نَابِتِ الْهَرَمِ
 وَرَكَتْنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ لَوْ كَتَّ تَسْتَبِقِي مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قومي - يأئمة - هم الذين فجعوني بأخي
 ووتروني فيه ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
 لأن عزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس ياخبار . وقوله :
 فلئن عفوت ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
 عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أُرْهتُ عَظْمِي : أي أضعفُته ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الأسوة ، يقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيري عن
 قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتنى خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
 في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول: كل واحد من الأخ الوائر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضا

من فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
من الأضداد : يكون الصغيرَ ويكون العظيمَ ، وهو المراد ههنا . وقوله :
لاتأمننّ قوما ... ألبيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فعلت به ما يُرْغِمُ أنْفَه ويُذَلُّه ، وتوله :
أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
قال : لاتأمننّ أبرّ قوِمَ ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرّت النخل وأبرّته :
إذا لَقَعْتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فنشتفي
أعداؤك منك : فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتتحولون أو
يملككم العدوُّ ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال
أبو الدلاء المدري : قد اختلف في معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ
ويَهْبِطُ هو وتوهُ أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ،
كأنه يتهدّدهم بترخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلِّ ، واستدلوا على هذا
الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضِ خِيَانِكَ وَالتَّمَسِ بِلَدَا يَنْأَى عَنِ النَّاشِيكِ بِالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
أبرت ، إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
أنه يسبي نساءهم قوطاً فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال
التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يَكُونُونَ
النخلةَ بالمرأة . وقوله : وزعمتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
كان باطلا أو فيه آرتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كتابة عن التنبية ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، فتييل عمرو بن الظرب العدواني
وقيل عمرو بن جُمّة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب
يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن حُمّة
يتحاكمون إليه ، فغلطَ في حكومته - وكان قد أسنَّ - فقالت له ابنته : إنك
قد صرْتَ تهمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيتِ ذلك مني
فأقرعي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فطن . يقول : زعمتم أنه لا عقول
لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر
بهم ، وقوله : ووَطِنْنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو
البقلة الحقاء - هي التي تُسَمَّى الرَّجَلَة - ، أو صَرَبٌ من الجِمض فيه مُلوحةٌ
وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من
الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المقيد إذا
وَطِيَ هذا النبات الضعيف ، وخصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن
من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن
قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطانى ، لأن وطأته
أشد لسوء ملكته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغْلَبٍ
وخص النباتَ وأراد : الحديثَ النباتِ ، وهو أغصنُ له وأرق ، ويروي :
يابسَ الهرمِ ، وقوله وتركنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُقُ
الجزارُ اللحمَ عليها يُوقِي بها اللحمَ من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزارِ ، وقد تقدم
يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
تستبقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم ،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا :
« أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ دَنَّ ^(١) » وَعَيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشْبَابًا ^(٢) وَقَالَ
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى قَزَعْتُ إِظْلَمَهُ فَحَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا ^(٣)
وقيل لأعرابي : مات قول في ابن العم ؟ فقال عدوك وعدو عدوك ، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت ، فقيل له : أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك ؟ فقال : حركني للبقاء عليه ارتكاضنا في بطن ،
وارتضاعنا من ندي . . . ودخل رجل من أشرف العرب على بعض الملوك ،
فسأله عن أخيه . فأوقع به يعيبه ويشتمه ، وفي المجلس رجل يشؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول ، فقال له : مهلاً ! إني لآكل لحمي ولا أدعه
لآكل . . . وقال الشاعر - قيل هو زارة بن سبيع ، وقيل فضلة بن خالد ، وقيل
دودان بن سعد ، وكلهم من بني أسد ، شعراء جاهليون ، والآيات من الحماسة :
لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَفْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيٌّ جَزِيلٌ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجْرَبٍ

(١) دَنَّ أَنفَهُ يَدَنُّ : إذا سال ، والذنان والذنين : الخياط الرقيق الذي يسيل من
الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أي أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم . .

(٣) هَرَّتْ الْكَلْبُ يَهْرُ هَرِيرًا : إذا نبح وكشر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن
يهز دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ فَكُلِّ مَاعَلَفْتَ مِنْ خَيْثٍ وَطَيْبٍ
 « عالوا به يريد: علّوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الاقصى ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعِدَى بالكسر : غرباء ، فأما قومٌ عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ماعلفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروي للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثْتُكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَاحَوْتِ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذَّبْ

* * *

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأشهم بك
 رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادُهم
 بشيءٍ من الحيئل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك... ولذلك شكّوا من أنّ عداوة الأقارب أشدّ على النفس من عداوة
 الأباعد فقالوا : - والقائل طرفةُ بن العبد - :

وَوَظَلُّ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْتَدِ
 ونال الشريف الرضى :

وَلِلذُّلِّ بَيْنَ الْإِقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالذُّلُّ مَا بَيْنَ الْإِبَاعِدِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَيْتَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصَ فِسْهَامِ ذِي الْقُرْبَى الْقَرِيبَةَ أَجْرَحُ (١)
 فمنهم من يحلم ويُبقي على مقتضيات القرابة ، ويتجأى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذبة قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَمِرُونَهَا وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجِنَادِ عُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلِّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةِ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف -
والجنادع في الأصل - كما قال أبو حنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
علم أن الضب خارج فيقال حينئذ : بدت جنادعه ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشي على حد الهلاك وإن بالغ في
الإساءة ، والمناوأة : المداواة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُناوأة : أى عاداه ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذي القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوأة ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا ذَوَالِنَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونَا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُوا وَنُكْرِمَكُمُ وَأَنْ نَكْفَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُؤَيْدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُجِبُكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّ لَهُ نَيْسَةٌ فِي بُعْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقوا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من الغضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعائب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلی طرفی نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة

وقال ذو الأصبغ العدواني: (١)

لولا أواصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن بريتك برياً لا انجبارله إنى رأيتك لا تنفك تبريني

ومهم من اضطر إلى الاتقام من أقاربه: أو ممن تربطه بهم آصرة مأم تأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النخعي:

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه مُحَرَّثان بن الحارث بن محزث، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيته هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جدا أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أوسى تذكّر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دارالكتب،

وقال المنبئ في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكٍ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ المُصَابُ
وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر

صالح بن تغلب - :

وِفِسانِ هَيْجاءِ تَجِيئِشْ صُدُورُها بأحقادها حتى تضيقَ دُرُوعُها

تُقْتَلُ من وَتِرٍ أَعَزَّ نُفُوسِها عليها بأيدٍ ماتَكَادُ تُطِيعُها

إذا احتربتُ يوماً ففاضتُ دماؤها تَذَكَّرَتِ القُرْبى ففاضتُ دموعها

وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ

نَفْسى ، وَجَدَعْتَ أنْفى - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا

الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فى عِداءِ أَقارِبِهِ خَباً ولا يبالى -

وقد قال قائلهم - أوس بن حَبِباءِ التيمي - :

إذا المَرءُ أُولاكِ الهوانَ فَأُولُهَ هَواناً وإن كانت قريبا أوِاصِرُه

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبي على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :

وَكَنتَ كَذِئبِ السُّوءِ لَمَّا رَأى دَمًا بصاحبه يوماً أحالَ على الدِّمِّ

« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه

لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يثمر إلا الضرر الموبق ، وقد

قال قائلهم فى ذلك - وهو أبو يعقوب الخُرَيْبى - :

كانوا بنى أمٍ فَفَرَّقَ شَمَلَهُمُ عَدَمُ العُقُولِ وَخِيفَةُ الأَحلامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكَّن ... ولاكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيَارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعريّ: مُرِّدْ ذِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له مرافع السوء - :

دَاوَابْنِ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّأْيِ وَالْغِنَى كَفَى بِالْغِنَى وَالنَّأْيِ عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْأَلُ الْغِنَى وَالنَّأْيُ أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُبِيدِي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَلْتُهُ بِي كَافِيَا

« النَّأْيُ : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه ، وأَطْرَحَهُ فلم يلتفت إليه ، وَيَسْأَلُ : ينتزع برفق ، وأدواء صدره : أضعافه وأحقادها ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتقاليا : تباغضا ، وحك بركه : فالحك : إمرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كلكل البعير ، وهو صدره الذى يدكُّ به مآخته ، استعاره لادهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدان الدهر وحده في الاساءة فلا تكون إغائته وحادث الدهر ماعليه »

ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمُوا أَصْغَرَهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَكْبَرُ السَّكْبَرُ ... « الكبر : جمع الأكبر ، كأخمر وأخمر : أى لبدأ الأكبر بالكلام ، أرقده والأكبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه ؛ أهذا أخوك ؟ فقل بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : أدخل

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سمعتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكرهه أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما روى في الأخوين يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسٌ رَفِيعٌ ، وهذا أَحْمَقُ وضيق ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبي وأنت أخى ولكن تفاضلت العناكب والرؤس
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهتدي به إلى المجدِّ والدِّ
وتختلف الأثمار في شجراتها إذا شَرقتْ بالماء والماء واحدٌ

وقال رجل لأخيه : لا أهجوَّكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأمك ؟ فقال :

غلامُ أتاها الأثوم من شطرِ نفسه ولم يأتِه من شطرِ أمِّ ولا أب
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، : ما أمك إلا شجرة البلوط ، تحمل سنة بلوطاً وسنة عَفصاً^(١) وفي هذا المعنى يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَدْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْرٌ بَقَالٍ وَكُتَابٍ (١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها - والقطيعة الهجران ، ضد الصلة - : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيمَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وكتب الفضل بن سهل الوزير إلى المأمون - الخليفة العباسي - : أما بعد ، يَا خَلِيعَ الْخُلُوعِ - يريد الأمين أخا المأمون - وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النَّسَبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ نَبَأِ نُوحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، وَلَا صِلَةٌ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيعَةٌ مَا كَانَتِ الْقَطِيعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِبُزْرِجِمَرٍ : أَخُوكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحِبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيَقَالُ : الْقَرَابَةُ مَحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْإِنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرَّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْإِنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل يُجَاهِ الْبَنَاتِ - وكذلك الناس إلى يومنا هذا - فَرِيقَيْنِ - : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونُ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أُوَيْسَ الْمَرْزَبِيَّ - شَاعِرَ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْفَحْوَلِ -

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كان مثنائاً - وكان له ثمان بنات ، وكان يُحْسِنُ مُحَبِّبَتَهُنَّ وَتَرَبِّبَهُنَّ ، فَوَلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِلْتٌ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَسْكُرُهُونَ بِنَاتِهِمْ

وَفِيهِمْ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءً صَوَالِحُ

وَفِيهِمْ - وَالْأَيَّامُ يَعْتُرُنَ بِالْفَتَى - عَ - وَائِدٌ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَنَوَاحٍ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَابِ ؛ فَقَالَ : أَنْيذُهَا عَنْكَ ، قُلْ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ يَلِدُنَ الْأَعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنَ الضَّغَائِنَ ^(١) ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَرَضَ التَّرَضَى وَلَا تَدَبَّ الْمَوْتَى وَلَا أَعَانَ عَلَى الْأَحْزَانِ مِثْلَهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبِيبَتَهُنَّ إِلَى ..

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونُ نعمٌ ، والحسناتُ مُثَابٌ عليها ، والنعمُ مُسْتَوْلٌ عنها ..

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَكَبِيرٍ - كما قال سبحانه وتعالى - وَتَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ الْحَتَنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ ...

* وَمَا خَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ *

ونظر أيرابى إلى بِلْتِ تُدْفَنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهِرْتُمْ ... وَقَالَ

(١) يورث : من أزث النار : أوقدها (٢) الحتن : زوج البنت

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد البنت مُتَّعِبٌ ، والدُ بنتَيْنِ مُثْقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعينوه... وقال الزهري : كانوا لا يرونَ علي
 صاحب ثلاثِ بناتٍ صدقةً ولا جهاداً ... وكانت العربُ لا تأكل طعاماً
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شبَّ له بناتٌ عَصَبِنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات (١) ... وما قِيْتُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البِشْرِ صلوات الله
 عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأَنْزَلَ اللهُ عز وتقدس : وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيراً من الآيات في هذا المعنى المُفْطِعِ ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ آثَمَتِي عَشْرَةَ بِنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقْ عَنْ
 كُلِّ نَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثر العرب مالا ؟ فقال : مَخَافَةٌ أَنْ يَنْدَكِحَهُنَّ مِثْلَكَ (٢) ، فبسم رسول
 الله وقال : هذا سيد أهل الوبر ... قال قيس : ما وُلِدْتُ لي ابْنَةٌ إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سِوَى بُنِيَّةٍ وَلَدْتُهَا أُمَّهَا وَأَنَا فِي سَفَرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أَنَّهَا وَلَدَتْ ابْنَةً
 مَيْتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدما وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه معجزة وعجبية من هذا الأعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه

وإن كان قيس بن عاصم سيد أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل
 ليتم مكارم الاخلاق ، والذي أمر بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة .

فاستَحَسَنَتْهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهي التي أَخْبَرْتُكَ
أني ولدتها ميتةً ، فأخَذْتُهَا ودفنتُها حَيَّةً وهي تصيح وتقول : انتُرُكني
هكذا ؟ فلم أعرِّج عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يرَّحم لا يرَّحم ...

الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئاً مما قالوا في الخولة والخال : والقول في ذلك
ينشعب أيضاً ، فقد قالوا في مدح الخال وذمه ، وقالوا في معنى نزاع
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنْتَي شَيْئاً مما قالوا في هذه المعاني ، فأما قولهم في
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما روى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حسبي أن أجلس على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أجلس فإن الخال والد ... ومن طريق هذا الباب ما روى أن الحجاج
قال لابن معمرٍ : إنك تزعم أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لا تقتلُكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول :
ومن ذُرِّيَّتِهِ دَارِدٌ وسليمان ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنما عيسى
ابنُ مريم : ابن بنت ، فقال نجوت ... وأما من عدَّ الخولة ليست من النسب
والفرابة ، فمن قولهم في ذلك - والقائل ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن
- شاعر جاهلي - وقيل غيره - :

إذا كنتَ في سعدٍ وأملكُ مِنْهُمُ غريباً فلا يغرركَ خالكُ من سعدٍ

(١) نزاع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعاً ونزاعاً : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزاع
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعاً ونزوعاً : حنّ واشتاق

فإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه إذا لم يُزاحم خاله بأب جلد^(١)
وتقدم شابٌ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال: إن جدى أوصى
ببُكْتِ ماله لولدٍ ولده، وأنا من ولدِ بنته، والوصى ليس يُعطينى منه، فقال:
لاحقَّ لك فيه، أما سمعت قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبنائنا بنوهُنَّ أبناءُ الرجالِ الأبايدِ

• يقول: إن بنى أبنائنا مثل بنينا، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
الاجانب، فنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر، وهذا البيت لا يعرف
قائله على شهرته. قال الإمام العيني: هذا البيت استشهد به النحاة على جواز
تقديم الخبر، والفرَضِيُّونَ - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء، والفقهاء كذلك في الوصية،
وأهل المعاني والبيان في التشبيه، ولم أر أحدا منهم عزاهُ إلى قائله
وقالوا في نزاع الولد إلى خاله:

عليك الحال إن الحال يسرى إلى ابن الأخت بالشبه المبين

وقالوا:

لكل امرئٍ شكلٌ يقرُّ بعينه

وقرّة عينِ الفسلي أن يصحبَ الفسلا

وتعرف في مجد امرئٍ مجد خاله

وينسذل أن تلقى أبا أمه نذلاً

(١) مصغى إناؤه: نقص حظه، يقال أصغى فلان إناؤه فلان: إذا أماله ونقصه
من حظه يقول هذا الشاعر: لا تغتر بخؤلك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أحوالك
بآباء شراف وأعمام أعزة.

« الفسل : النذل الذى لامرءة له ولا جلد » وقال رافع بن هريم :-
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

فَهَلَّا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَّظِلِينَ
عَفَارِيَتَا عَلِيٍّ وَأَكْلِ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالِ آخِرِينَا
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةَ أَكَاسَتْ وَكَيْسُ الْأُمَّمِ كَيْسُ لَبْنِينَا
وَلَكِنْ أُمَّكُمْ حَمَقَتْ فَجَنَّمْ غِثَانَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إنجاب الأدهيات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك
« قوله متظلينا ، تقول : تظلنى مالى : أى ظلنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
ولدا كياسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
ولكن أممكم حمقت : أى صارت حمقاء ، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول »

مدعو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
أمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحم مائة ...
وتعرض رجل لهشام بن عبد الملك وأدعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟
قال : من آدم ا فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،
فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادَّعَيْتَهَا لم يَبْتَلِكْ
إلا دون ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتفاؤها -
يقول حسان بن ثابت :

لَعْمُرِكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ (١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقرابات من بابات شتى :

فمن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المحدث ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْقُرَاءِ أَوْلِيَهُمْ ، فَقَالَ : الْقُرَاءُ ضَرْبَانُ : ضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، غَمًّا ظَنُّكَ بِهِمْ : وَضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ فَلَا يَعْمَلُونَ لَكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ لِأَحْسَابِهِمْ ... وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَى :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُعْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

« الْخَطُّ : الرَّاح ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينُورِيُّ الْعَالِمُ النَّبَاتِيُّ الْأَشْهُرُ : الْخَطُّ :

الرَّمَاحُ ، وَهُوَ نَسْبَةٌ قَدْ جَرَى بِجَرَى الْأَسْمِ الْعِلْمِ وَنَسَبَتْهُ إِلَى الْخَطِّ ، خَطُّ الْبَحْرَيْنِ ، وَإِلَيْهَا تَرَفُّوا نَسْفًا إِذَا جَاءَتْ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ ، وَلَيْسَ الْخَطُّ - الَّذِي هُوَ الرَّمَّاحُ -

مِنْ نَبَاتِ أَرْضِ الْعَرَبِ . وَزَادَ الْجَوْهَرِيُّ : وَإِنَّمَا نَسَبَتْ إِلَى الْخَطِّ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَتَقُومُ بِهِ . وَوَشِيحُهُ : فَالْوَشِيحُ شَجَرُ الرَّمَّاحِ ، ...

وَدَخَلَ بَعْضُ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى سَلِيمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، فَبَخَسَ عَلَى مُرُوقَةٍ

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، بهجو حسان

أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن أبي معيط ، وذكروا أنه كان لزنبة ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضر

عقته ، فقال : أقتل من بين قريش صبرا ، فقال عمر : « حَقَّ قَدْجَ لَيْسَ مِنْهَا ،

«الوسادة يتكأ عليها ، فاخاظ من ذلك وقال : من أجلسك دهنًا ؟ قال : صَفِيَّةُ
بنت عبد المطالب : فسكن فضبه . وقال أبو تمام :

تَسَّبَ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَاتِي الصَّبَاحِ عَمُودًا

• • •

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْخِيَّةُ أَعْرَفُهَا مِنْ أَحْزَمِ^(١) و :
وإن امرءًا في الفضل أشبه جده ووالده الأذنى لغير ظلوم
وقال أبو تمام فيمن مكارهته تدلُّ على كرم أسلافه :

'فروغ لا ترثي عليك إلا شهدت بها على طيب الأروم^(٢)

وفي الشرف الحديث دليلُ صدق
وقال عامر بن الطفيل^(٣) في المستغنى بنفسه عن حبه :

إني وإن كنتُ ابنُ فارسٍ عامرٍ وفي السرِّ منها والصِّمِّ المهذب^(٤)

فما سودتني عامرٌ عن وِزاةٍ أبي الله أن أثنو بأتم ولا أب

ولكنني أحمي جهاها وأتقى إذاها وأرسي من رماها بمقنب^(٥)

(١) الشنشة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لاني أخزم الطائي وهو جد
جندمرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً مات وترك بنين فوثبوا يوماً
على جدم أبي أخزم فأدتموه فقال :

إن بني ضرجوني بالدم شنشة أعرفها من أخزم

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم . وضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كقنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب

ويروي : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه

مثلاً للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 كَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسِكَلُ
 نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
 وقال المنبهي :

حُذِّ مَاتَرَاهُ وَدَعَّ شَيْئًا سَمِعَتْ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحَلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرُفُ بِلِ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمُنْبَهِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْعُلَبَاءُ عُنُصْرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ بِالْعِنَبِ
 وقوله أيضا :
 * فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ *

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آباءه به :
 وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِأَبْنِي دُرًّا شَرِيفًا كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْنَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائداً في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لِأَدْرَ دَرُهُ بِحَسَبِ إِلَّا بِأَخْرَ مُكْتَسَبُ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُشْمِرْ وَإِنْ كَانَ سُعْبَةً
 مِنَ الشُّمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَةٌ : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعاً ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِثِّي ابتداءً ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يكون الرجل شريف النفس ذئب الأصل ، أَفْضَلُ من
أن يكون ذئب النفس شريف الأصل ، ألا ترى أن رأس الكلب خير من
ذئب الأسد !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آباءهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أشبهت أباك ! فقال : لو أشبهت كل رجل أباه
كنا كآدم ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنت مثل أبيك ! فقال : لو كنت مثل أبي لم أخطب إليك ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءِ لَمْ شَرَّفْ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بَشْتَمَا وَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُفْتَخَرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُؤًا وَنَحْتَبَرًا

ونظر رجل إلى ابن نذل من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَّتْ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عَرْضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يعتدّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فاخَرْتَهُ فشال ميزانه : أى فَخَرْتَهُ بِأَبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ ، وقال بعض شعراء أَصْفِهَانِ :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلِّ وَغَدٍ فُقُبْحًا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبْتَهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فِرْطِ النَّدَالَةِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصامن العَصِيَّةِ وَ : هل تَلِدُ الْحَيَةَ لِالْحَيَّةِ
وقال شاعر :

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ اتَّقَى وَالِدِيهِ كِلَيْهِمَا عَلَى اللُّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْيُهُ (١)

وقالت الخنساء - وقيل لها : ما تَدَحَّتِ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ فَقَالَتْ :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةً الْحَضِرِ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدِ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُدْرُ بِالْعُدْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أُثَيْمًا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرَى

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى خُلُوعِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّآ إِلَى وَكْرِ

«قوله: ملاءة الحضر: فالحضر: العدو والجرى، وإنما تريد بملاءة الحضر: الغبار
وكان عدى بن الرقاع نظر إلى هذا في قوله يصف حماراً وأتانا:
يتعاوران في الغبار ملاءةً بيضاء محدثةً هما تسجها

ونزت القلوب: يريد طمحت واشرأبت لتعرف من السابق، ولزت: قرنت
والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى القدر
بالقدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأ كبر أى ولولا
جلال الأ كبر، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكبر ولكنه
أسكن الباء ضرورة،

أما الإسلام فقد عدّ الشرف والحسب إنما هو بالثقي فقال سبحانه: إن
أكرمكم عند الله أتقاكم، قال بعضهم: ما أبقى الله بهذه الآية لأحد شرف
أبوة... ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يقول أنا ابن بطحاء مكة، فوقف
عليه وقال: إن كان لك دين فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مروءة.
وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت والحمار سواء، وقالوا: كان
الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والثقي...

وقالوا في الدعوة: أى ادعاء الولد الدعوى غير أبيه، أى انتسابه إلى
غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية. فنهى الإسلام عنه، وكان سيدنا
رسول الله قد تبني زيد بن حارثة عتيق الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آباؤهم وأن لا ينسبوا إلى من
 تنبأهم فقال : وما جعل أديعائكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة
 لله فى الواقع ، والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينية » وهو يهدى
 السبيل ، آدعواهم لآباؤهم هو أفسط عند الله « هو : أى دعوتهم لآباؤهم ، وأفسط :
 عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعدوا آباؤهم فإخوانكم فى الدين
 ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان
 الله غفورا رحيمًا ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش
 وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ،
 وللزاني الحية والحرماني ، وهذا كما تقول : مالك عندى شى غير التراب ،
 وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن
 الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجمُ .. وقالوا فى التعريض بالنسب -
 والقائل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عديًّا فى بنى نُمَيْلٍ فقدّم الدال قبل العين فى النسب
 ودخل ابن مُكْرَمٍ على أبى العيناء - صاحب الزوادر والمجون وكان ضريبا -
 ليُهَيِّئَهُ بآبِنِ وُلْدِهِ ، فوضع عنده حجرا ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
 فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عنيّ ؟ إنما أراد قول رسول الله :
 لولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولقى رجل رجلا فقال له : ممن أنت ؟ قال : قرشى والحمد لله ، فقال :
 لمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن سفيان لريبة -
 لرجل : يادعيّ ، فقال : الدعوة قد تشرف بها المدعى على ، فكيف عير بها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدیه وذويه خَلَقَةً :

أَلْوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَدِرَةٌ

وكان بأصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٍ عَلَى فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيّشَ به ، ثم كَفَّ عنه مخافةً أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفافِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَهُ عَلَى أَسِّ غَيْرِهِ ...
وخاصمَ ذو الرمة رجلا من ولَدِ زياد بن أبيه فقال له الزيادةي : يادعي ،
فأنشد ذو الرمة :

بُيْتِنَةٌ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا قَقَلْتَ كَلَانَا يَا بَيْتِنُ مَرِيْبٌ (١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : «اغْتَرِبُوا لَا تُضْرُوا» أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْكِحُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيْبَةَ

(١) أربتنا : رأينا منك ما يربينا ونكرهه منك

فإن الرلد يُخلَق ضاويًا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قریش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُربُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضُوروا ... وقال العتيبي : زَوْجَ أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحِبُّونَ حَبِوًا لا يستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرضاعة : قال رسول الله : يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النسب . انظر كتب الفقه ، ونهى رسول الله عن رضاع الحَمَاءِ وقال : لانسترضعوا الحَمَاءِ فإن الولد يَنْزِعُ إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبه إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة ! والله إنها كانت تزُقُّ الفَرْخَ - أى بفيها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورووا أن الحسن البصرى رحمة الله عليه كانت أمه تَغْشَى أمَّ سَلَمَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :



الإحسان

وعقرباتهم فى الجود واصطناع المعروف وقوى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثَانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ ، فَأَمَّا أَوْلُهُمَا فهو هذا الذى نحنُ بصددِهِ الآن ، وهو الجودُ واصطناعُ المعروف ، وسائر ما يمتُّ إلى ذلك بسببِ واصل من قوى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخرُ فهو حُسنُ الخلق ، وسنفرده له وَضْلاً تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أن صلاة الرّحم بعامّة، وبرّ الوالدين بخاصّة،
 بما تحفى به الإسلام كلّ التحفى، حتى قرّنه بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدين
 الحنيف، لقد تحفى كذلك كلّ التحفى بالإحسان إلى مستحقّيه، وذمّ الشّحّ ونعاه،
 على أهليه، وامتدح الجودَ وتوّه به كلّ التّوبه، حتى قرّنه بالذكره بالإيمان،
 ووصف أهله بالفلاح، والفلاح اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارين، فقال سبحانه
 وتقدس: ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 وقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
 من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون...
 وقال في وصف الأنصار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة،
 ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون... «الخصاصة: الفقر، ويرقى:
 يسان» وقال عزّ وجلّ: مثل الذين ينفقون أهوالهم في سبيل الله كمثل حبة
 أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله
 واسع عليم، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة
 الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بر برة أصابها وابل فآتت أكلاً هاضعفين...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والبروة: الموضع المرتفع، وشجره في العادة يكون
 أحسن منظراً وأزكى ثمرأ، والوايل: المطر العظيم، وقال: لن تناولوا البر حتى
 تنفقوا بما تحبون، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه والله خير الرازقين.
 «والبر ههنا: فهو ير الله، أى خير الدنيا والآخرة، أى السعادة والفلاح
 والفوز، أو تقول: لن تناولوا البر: أى لن تناولوا حقيقة البر حتى تُنفقوا
 بما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقُّ لِلجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالِإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ المَؤْمِنِ انشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُبَشِّرْهُ صَدْرَهُ لِلِإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ حَصِيئًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الجَوَادِ وَالبَخِيلِ ، لِأَنَّ الجَوَادَ يوصَفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ الْإِنْفَاقِ ، وَالبَخِيلُ يوصَفُ بِضِيقِ الصَّدْرِ لِلِإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُوبِلُوا عَلَى البُخْلِ ، فَالبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَإِنَّمَا الجُودُ فِي سَائِرِ أَلْوَانِهِ ، تَكَثُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِيِّ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لِأَجِدُهُ كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى خُطْطِ الكِرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ البَخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ . . . وَفِي هَذَا المَعْنَى يَقُولُ البَحْتَرِيُّ :

وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَّ الْأَنْفُسُ مَا أُعْثِقَتْ عَلَيْهِ الْأَكْفُ
وَيَقُولُ أَبُو يَعْقُوبَ الخُرَيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ نَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ (١)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتِ فَهَلْ تَرَى إِلَّا بَخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخُطْطُ: جمع الخُطَّةِ ، وهى الحال والأمر والخُطْبُ

(٢) النلية: المكان المرتفع الصعب المطمع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه
وأكثرُ من يتسَخَى ويَجُودُ فإِثْمًا يَجُودُ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رغباً في عاجل
الجزاء * كملقى الحبِّ للطَّيرِ ليصيده به لا لينفعه *
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الحَبِّ جُودًا وَيَنْصِبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشبَاكَ (١)
ورهباً من عابٍ يلتصق به أو مكروهٍ يُصيبه :

مِثْلُ الحِمَارِ المَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا (٢)
وهناك صنفٌ من الناسِ يُعْطَى ويمنع لا يُبْخَلُ ولا كرمًا ، وإنما يكونُ
ذلك تهوُّرًا واندفاعاً منه مع نزوةٍ من نزوات النفوس ، كما قال الأديب
أبو بكر الخوارزمي في الوزير صاحب بن عباد :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدَّيْمِيَّ
فإنها خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى ويمنع لا يُبْخَلُ ولا كرمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيُنَظَّرْ هَذَا ، وَلْيُنَظَّرْ كَذَلِكَ أَنَّ البُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَبَعُ رذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزَمُ الرذَائِلِ للبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَبَعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للنتني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَلِكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد جبا تحت الشبكة ، ولا يعد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب
(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبراكثرة ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقٌ (١)

وإذا اختبرت علفت غير مُدَافِعٍ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الأَبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وَإِذَا رَأَيْتَ أَبَا يَزِيدٍ فِي نَدَى وَوَعْنَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِي مُرَجِيهَ مُشَاشَةَ مَالِهِ وَشَبَا الأَسِنَّةِ نُقْرَةَ وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شِجَاعَةٌ تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشِّجَاعَةِ جُودَا (٢)

وقال المتنبي :

هُوَ الشِّجَاعُ يَعْدُ البُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الجُودُ يُعَدُّ الجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ البُخِيلُ بِهَا وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الاثم ، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الحَسْبِ العَالِي الرَفِيعِ شَفِيقٌ
وَمُسْتَمْنِحٌ بَعْدَ المَدْوَةِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشِّتَاءِ طُرُوقٌ
فَقَلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحِ وَصَدِيقِ
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفِحْشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمِهِ إِنَّ الفِئَاءَ مَضِيقُ
لَعْمُرِكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَآهَلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذي يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه ليش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء حده ، والثغرة : نقرة النحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآياتُ والأحاديثُ وما أثر عن الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود والإحسان ، وأكثروا وأفتتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا أثرَ الجودِ والبخلِ في الخلقِ حقَّ قدره ، وأنهم لذلك سَنُوا هذه الغارةَ الشَّعْواءَ على الإنسانِ الإنانِي الكَزَّ الشَّحِيحِ الكائِنِ في نفسِ كُلِّ إنسانٍ ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولناخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الْفَقْرَ ، فأجابهُ : الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ... وإنى أكرهُ أن أتْرِكَ أَمْرًا قد وقعَ لِأَمْرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَى يَقُولُ لَهُمْ : إن عاقبةَ إنفاقِكُمْ أنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أَى يغريكم بالبخلِ ومنعَ الصدقاتِ إغراءَ الْأَمْرِ لِلْأُمُورِ ، فالفحشاءُ هنا : البخلُ ، والفاحشُ عند العرب : البخلُ ، قال طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ (١)

ثم قال سبحانه : والله يعدكم في الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يختر ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخل ، يقول طرفه : إن المرات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطنع الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

مُخْلِيفَ عَالِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وَقِيلَ لِإِبْلِيسَ : مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ ؟
 فَقَالَ : عَابِدُ بُخَيْلٍ ... قِيلَ : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَاسِقُ سَخِيٍّ ،
 فَإِنْ سَخَاةَهُ يُنْجِيهِ ... أَفَرَأَيْتَ أَلَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ تَمْثِيلًا جَمِيلًا لِحَالِي الْبُخَيْلِ
 وَالْجَوَادِ ! حَتَّى إِنَّهُمْ فَضَّلُوا الْفَاسِقَ السَّخِيَّ عَلَى الْعَابِدِ الْبُخَيْلِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا
 جَمِيعًا لِعَمْرَى : الْعَابِدُ الْكَرِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْعَابِدُ الْبُخَيْلُ مَفْضُولًا ، لِأَنَّ
 الْعِبَادَةَ الْحَقَّ لَا تَجْتَمِعُ وَالْبُخْلَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لآخِرَ : إِنَّكَ مِتْلَأْفٌ ، فَقَالَ :
 مَنَعَ الْجُودِ سُوءَ ظَنِّ بِالْمَعْبُودِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
 وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاةِ وَالشَّجَاعَةِ
 فَانَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ ظَنِّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرِّ
 بُخْلِهِمْ ، وَمَدَمَّةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءَ ظَنِّهِمْ
 بِرَبِّهِمْ فِي الْخَلْفِ - أَى الْعَوْضِ - لَكَانَ عَظِيمًا ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مَحْمُودُ
 الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
 وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أُنَاسٌ تَأْمَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُمْ تَغِيمُ سَمَاوَهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)
 وَمِنْ أَمْثَلِهِمْ فِي ذَلِكَ : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الرَّاعِدَةُ : السَّحَابَةُ
 ذَاتُ الرَّعْدِ ، وَالصَّلَفُ قَلَّةُ الْخَيْرِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِلْبُخْلِ مَعَ الْوُجُودِ
 وَالسَّعَةِ ، وَالْأَمَّةُ لِللُّغَةِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَثَلِ رَاجِعُهُ فِي مَادَّةِ «صَلَفٍ» بِلِسَانِ

(١) تَأْمَهُونَ : مَنْ التَّيَهُ وَهُوَ الزُّهْوُ وَالْكِبَرُ ، وَالرُّؤَاؤُ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، وَالْوَبْلُ :
 الْمَطَرُ الْعَظِيمُ

العرب» ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرَجِي خَيْرُهُ ولا يَبِضُ حَجْرَهُ :
يُعالج نفساً بينَ جَنِينِهِ كَرَّةً إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتُ له مُهْلاً
ومن المستطرف من كتاباتهم في هذا المعنى ما روى : أن امرأة قالت
لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ في دَارِكَ إلا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إني
أُصد فلاناً راجياً نداءه ، فقال له صاحبه :
و تَرُجُو النَّدَى من إِنْاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحَا

كالمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ

وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَةِ المُضْحِكَةِ - :

يُقَتِّرُ عَيْسَى على نَفْسِهِ وليس بِيَاقٍ ولا خَالِدٍ
ولو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفَسَ من مَنخَرٍ وَاحِدٍ

« المَنخَرُ : ثقب الأنف ، وقال آخر :

يُحِبُّ المَدِيحَ أبو خَالِدٍ وَيَفْرَعُ من صِلَةِ المَادِحِ
كَيْسَرَ تَوَدُّ لَذِيذِ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ من صَوَالَةِ النَّاكِحِ

وقال البُحْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يذودُ البُخْلُ عن أطرافِهَا كالبَحْرِ يذْفَعُ مَاحُهُ عن مَائِهِ (١)

وقال بشار :

إذا جِشَّتْهُ في حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إلا وَأَنْتَ كَمِينُ
إذا سَلَّمَ المِسْكِينُ طَارُ فَوَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاغْتِرَاهُ جُنُونُ

(١) الجدة : الغنى ، و يذود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سَلِيمَانَ قُفِّلَ النَّدَى فَقَدْ يَدْتَسُّ النَّاسُ مِنْ فُجْحِهِ
ولو كان يملك أمر أنتيه لما طمِع الحش في سَلِحِهِ

« الحش : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسليح : النجو - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابه غير هذه البابه :

وَإِذَا أَمْرٌ وَمَدَحٌ أَمْرًا لِلنَّوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو ، وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأته كبيرا ، وفي

ذلك يقول المعلوط السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَبَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ (١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلا وكزازة ، والنقائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليدانه البديعة :

إِذَا عَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا عَمَرَ الْمَاءَ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيَهُ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَّ النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَفَقِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيدٌ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودٌ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُدَمَّمٍ وَصُعُوكِ قَوْمٍ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدٌ

إذا المرء البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ بَجَّحَهُ وَسُدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرَبَهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَا لَمْ يَفِضْ فِي الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءَ ثَنَاءٍ

كَلِمَاءٍ تَأْسُنُ بِسُرُّهُ إِلَّا إِذَا حَبَطَتِ السُّقَاةُ جِجَامَهُ بِدَلَاءٍ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بتثايت الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان

واصطناع المعروف : جاء في كلية ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ

عَيْشِ النَّاسِ فِي عَيْشِهِ ، وَإِنْ مِنْ أَلَدِ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وَفِي

الْحَدِيثِ : لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ

أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ مِلْكُ الْوَارِثِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ

مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا يُتْرَكَ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ :

إِمَّا مُصْلِحٌ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٌ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فَقَالَ

مَعَاوِيَةُ : جَمَعَ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفِي الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ

رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِي حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَفَا كَمَا يَنْتَسِحُ

الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قَوْلُهُ : مُجْتَدِي : يَرِيدُ . الَّذِي يَأْتِيهِ بِطَلْبِ مَالِهِ

يُقَالُ : اجْتَدَاهُ يَجْتَدِيهِ وَأَعْتَفَاهُ يَعْتَفِيهِ وَأَعْتَرَاهُ يَعْتَرِيهِ وَأَعْتَرْتَهُ يَعْتَرُهُ وَعَرَاهُ

يعرّوه، : إذا قصده يتعرّض لنائله . وَيَنْتَجِحُ كَيْضِرْبُ : يَرْشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ : وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحوج سائله إلى أن يترشّحَ جبينه عرقاً ، لمبادرته بإعطائه « وقال معاوية بن أبي سفيان لوردان مولى عمرو بن العاص : ما بقى من الدنيا تَلَذُّه ؟ قال : العريض الطويل ، قال : وما هو ؟ قال : أن أتى أحاً قد نكبه الدهرُ فأجبره ، قال : نحنُ أحقُّ بهذا منك . . . قال : إنَّ أحقُّ بهذا منك من سبقك إليه . . . وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافهم : رجلٌ بدأني بالسلام ، ورجلٌ وسَّع لي في المجلس ، ورجلٌ اغبرتَ قدماهُ في المشى إلى إرادة التَّسليم عليّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رجلٌ نزل به أمرٌ فبات ليلته يفسكرُ بمن يُنزله ، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزله بي . وقال ابن عباس أيضا : لا يُزهدنك في المعروف كُفْرٌ من كفره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه : « كفر من كفره : يريد : كفر النعمة ، أي عدم شكرها ، وقوله : من لم تصطنعه إليه يريد الله عز وجل »

وأُنشد عبدُ الله بنُ جعفر بنِ أبي طالب ، أحدُ الأجواد في الإسلام قولَ الشاعر :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضْنَعِ (١)

فقال : هذا رجل يريد أن يُبخلَ الناس ، أمْطَرَ المعروفَ مطراً فإن

صادف مَوْضِعاً فهو الذي قصَدْتَه له ، وإلا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ

« وبعد » فهناك في هذا المعنى كما ترى مذهبان ، فذهب يرى إعطاء

(١) الصنِيعَةُ : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِدَوَى الْقَرَائِبِ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم- واللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويةقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن أَوْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لأنْ أُخْطِئَ باذلاً ، أَحْبَبْتُ إِلَىَّ مَنْ أَنْ أُصِيبَ مانعاً ، باذلاً
ومانعاً : حالان من فاعل أُخْطِئَ وأصيبَ «

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئيمِ وَمَنْ يُسْتَضْرُ بِإِعْطَائِهِ ، قال قائلهم :
اتَّقُوا صَوْلَةَ الكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالاً ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالآ ، « خبالاً : فساداً ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلٌ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلَاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ (١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى أُلْجِأُوا إلى خباء أعرابي فاقتمته ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها ما نبت قائم سيني بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - « اللفحة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فخلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعامه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صنيعةً تقوى أو خليلٌ مُخالِفُه

منعتَ وبعضَ المنعِ حزمٌ وقوةٌ ولم يبتذلْ المالَ إلا حقايقُه^(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد

أسرَفْتَ في بذلِ المالِ ! قال: بأبي أنتما، إن الله عَوَّدَنِي أَنْ يُفْضَلَ عَلَيَّ،

وعودته أن أفضَلَ على عبادِه، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني ...

ومرَّ يزيدُ بنُ المهَلَّبِ بأعرابية، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢)،

يريد البصرة، فقرأته عَنزاً فقبِلَها، وقال لابنه معاوية: مامعك من النفقة؟

فقال: ثمانمائة دينار، قال: فادفعها إليها، فقال له ابنه: إنك تريد الرجال،

ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يُرضيها اليسير، وهي بعدُ لا تعرفُك،

فقال له: إن كانت ترَضَى باليسير فأنا لأَرْضى إلا بالكثير، وإن كانت

لا تعرفني، فأنا أعْرِفُ نفسي، اذْفَعْها إليها ...

وأورد المبرِّدُ في الكامل ما يأتي: وأشرف عمر بن هُبيرة الفَزَارِيُّ - والي

العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً، فإذا هو بأعرابيٍّ

(١) حقايقه: جمع حقيقة: ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدما

سليمان بن عبد الملك، وذلك أن يزيد كان عاملاً على حراسان، فانتح جرجان

وطبرستان، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه: وقد صار عندي من

خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذي حق حقه في النية والغنيمة ستة

آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان

وولى الخلافة عمر، فسأل يزيد، فتلكأ فأمر بسجنه، ثم هرب لما بلغه شدة مرض

عمر الذي مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَّالَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إليّ ، فلما دنا الأعرابي سألّه ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ماخطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللهُ قَلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْعِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَلْحَ دَهْرٍ أَنَحَى بِكُلِّكَلِهِ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرُ

فأخذت عمرَ الأريحيّة ، فجعل يهتزُّ في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إليّ وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً . وأمر له بألف دينار ، ورده على بعيره ... قال المبرد : وحدثت أن الخبر لمعن بن زائدة . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُزْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحيّة والجود والإقدام والحلم من أن يتوّه به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هبيرة وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلّى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسنا ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحلُ مَرُوان بن حفصة بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآلُ : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على

الرقص ، وهو نوع من السير كالخباب

(٢) انحى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذٍ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْعَيْنِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدًّا فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيُنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنٌ : فَاضْطُرِرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِئْسَتْ جُبَّةٌ صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ جَمَلًا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادٍ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَيْبَتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَيَّ خِطَامَ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَيَّ يَدِي ، فَقَلَّتْ لِي : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتِ طَلِيْبَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَلَّتْ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُطَلَبَ ؟ قَالَ : أَنْتِ مَعْنُ بْنُ
زَائِدَةَ ، فَقَلَّتْ لِي : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلِّ ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قَلَّتْ لِي : هَذَا
عِقْدٌ جَوْهَرٌ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِي بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْمِيُهُ بِي ، فَخُذْهُ
وَلَا تَكُنْ سَبِيًّا لِسَفْكَ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتَهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَهُ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنِ صَدَقْتَنِي
أَطْلُقْتِكَ ، قَلَّتْ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدِ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قَلَّتْ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قَلَّتْ : لَا ، قَالَ : فَنُكِّلَهُ
قَلَّتْ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتِ وَقَلَّتْ : أَظُنُّ أُنِّي قَدْ فَعَلْتُ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عِشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ
دِنَانِيرٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْرُدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلَتَحْتَجِرَنَّ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُرْدٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَنَّ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مُنْصَرَفًا ، فَقَلَّتْ : يَا هَذَا ، وَاللَّهُ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دَمِي عَلَى أَهْوَنِ مِمَّا فَعَلْتَ ، فَنَحْدَ مَا دَفَعْتَهُ لَكَ ذَائِقِي غَيْثِي عَنْهُ ، فَضَحَكَ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَدِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أُأْخِذُكَ وَلَا آخِذٌ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَّنًا أَبَدًا ، وَهَضِي لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مَعِيَ أَنَّ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعَانَ بِنَ زَائِدَةَ وَأَشْبَاهَ مَعَانَ بِنِ
 زَائِدَةَ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالكَرْمِ وَعَبْرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهْدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَدَاكَ نَائِلَهُ وَكَثْرُ مَنْ غَيَّ سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فهو كما قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَالتَّسَخُّي حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضُّيْقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ أَوْ لِمَرْأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصَى بِهِ ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَانْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَانْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفَقِ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقِ عَلَى مَا خَيَّلَتْ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبَلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ

وقال الآخر في معناه :

لَا تَبْخَانِ بَدُنِيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ يَجُودُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أُذْبِرَتْ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإففاق والجود هنا : الإففاقُ في سبيل الله والبرِّ
لا في سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك
حتى مع إدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما
يُكسب المرءَ محمِدةً ومِقةً^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل
لاحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرفَ في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يحقر الشيء فيأني ما هو شر منه ، يعني المنع ،
يريد الحثَّ على إعطاء القليل إن لم يُستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار
في ذلك من آيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْتَكِ قَلْبَهُ فكلُّ ماسدٍ فقراً فهو محمودٌ

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ
إِذَا تَكَرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ الْجُودُ
وَاللَّبَّخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودٌ
أُورِقُ بِخَيْرٍ تُرَجَّى لِلزَّوَالِ فَسَا تُرَجَّى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حقرَ حرمَ ... « حقر الشيء : عده حقيراً ، أى

من حقر يسيراً يقدرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي
الحديث : لا تردوا السائلَ ولو بظلفٍ مُحْرِقٍ « الظلف من كل ما يجترُّ من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال: أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدد لكثرة، وقال المعري:

إذا طرق المسكين بابك فأجبه قليلاً ولو مقدّار حبة خرّ دل
ولا تحتمق شيثاً تساعفه به فكم من حصة أيدت ظهر مجدل

المجدل: النصر المشرف، وكان ابن عباس يقول: صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متكأ. وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: المعروف يقي مصارع السوء... وكان ابن عباس يقول أيضاً: ما رأيت رجلاً أوليته معروفًا إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه، وما يروى في هذا المعنى أن رجلاً كان في مجلس خالد بن عبد الله القسري، فقام من المجلس، فقال خالد: إني لأبغض هذا الرجل وماله إلى ذنب، فقال رجل من القوم: أوله أيها الأمير معروفًا ففعل، فما كنت أن تحف على قلبه وصار أحدهم جلساته. وفي هذا المعنى يقول سيد مؤسقي الإسلام أبو إسحاق الموصلي:

أرى الناس سُخْلانَ الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خيلاً
ومن خير حالات الفتي لو علمته إذا نال شيئاً أن يكرن يُذيلُ
فإني رأيت البخل يُزرى بأهله فأكرمت نفسي أن يُقالَ بخيلُ

ويقول المتنبي:

وأحسن وجه في الوري وجهه مُحسِنٍ وأيمن كَف في الوري كَف مُنعمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ انصتَ نِعَمُ الله عليه، كثرت حوائجُ الناس إليه، فمن لم يحتمل تلك المؤمن عُرِّضَ لزوال تلك النعم، وقال خالد بن عبد الله القسري أيضاً: حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم،

قَالَ تَمَلُّوا النَّعْمَ فَتَتَحَوَّلَ نِقْمًا، قَالَ الشَّاعِرُ :

بَدَا - حِينَ أَثْرَى - بِإِخْوَانِهِ فَوَدَّعَلَّ عَنْهُمْ شِبَابَةَ الْعَدَمِ (١)

وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غِيبَ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ

وَعَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَثْرُونَةِ « وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ كَلِمَا

تَمَكَّثَ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ يَحِقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَعُولَهُمْ وَيَقُومَ بِمُؤْتَمَتِهِمْ ، فَفَعَلَ ، أَوْ كَلِمَا أَنْفَقَ

الْمَرْءُ فِي سَبِيلِ الْبِرِّ ، أَعْطَاهُ اللَّهُ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ :

مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَ : كَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وَقَالُوا فِي مَعْنَى النَّجْدَةِ وَإِقَالَةِ الْعَثْرَاتِ وَرَاجِحَاتِ ذَوَى الْجَاهِ :

بَدَّلُ الْجَاهِ زَكَةَ الشَّرَفِ . وَفِي الْحَدِيثِ : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا

يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَنَعْمَتِهِ ، فَيَقُولُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهًا فَهَلْ تَصْرَتْ بِهِ مَظْلُومًا

أَوْ قَوَّمتَ بِهِ ظَالِمًا أَوْ أَنْعَمْتَ بِهِ مَكْرُوبًا وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ

تُعِينَ مَنْ لَاجَاهَ لَهُ ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

وَإِذَا أَمْرُؤُ أَسْدَى إِلَى صَدِيقَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ

وَكَانَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : آسَفُوعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ

أَرَادَ السُّلْطَانَ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ

اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً

يَكُنُّ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنُّ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَبِتًا . قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ : هِيَ التَّوْبَةُ وَعَى بِهَا

حَقُّ مُسْلِمٍ وَدُفِعَ بِهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتُغِيَ وَجْهُ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هي : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحدث كل شيء

وفلل : كسر

تُوخَذُ عَلَيْهَا رِشْوَةٌ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا: فَذَلِكَ النِّصِيبُ: هُوَ ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَاؤُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا: أَي نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَيِّمًا، فَلَمَقِيتُ: الْمُتَقَدِّرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا قَدَرَ، قَالَ الزُّبَيْرِيُّ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بِنِ رِفَاعَةَ -:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقَيِّمًا (١)

وُقِّرَ الْمُقَيِّتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدْنَ وَيَحْفَظُهُ.

وَمِنْ أَجْلِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلُ حَاتِمِ طَائِي:

أَمَاوِيٌّ مَا يُعْنِي السَّرَّاءُ عَنِ الْفَقْرِ

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقَيِّتُ

بَيْتُ اللَّيْلِ مُرْفِقًا نَقِيلًا عَلَى قَرَشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

تَعْنُ إِلَى مِنْهُ تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَدَائِبُ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَقُ: الْمَشْكِيُّ عَلَى مَرْقِيهِ، وَتَعْنُ: تَسْرَعُ وَتَظْهَرُ، وَالْجَدْمَارُ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ

السَّعْفَةِ، وَالْبُرُوتُ: الْفَأْسُ، لِقَاعُهُ يَمَانِيهِ يَنْطَقُونَهَا الْبُرْتُ وَالْبُرْتُ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ

تُؤْذِي،

(٢) مَأْوِيٌّ: مَنَادَى مَأْوِيَّةَ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمٍ، وَحَشْرَجَتْ: أَي النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ، لِذِلَالَةِ الْكَلَامِ

أماويّ إن يُصِيحُ صَدَائِ بِقَفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ لِمَاءٍ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ (١)
 تَرَى أَنْ مَا أَبَقَيْتُ لِمَ أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبَّ يَدِي مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صَفْرُ (٢)
 أماويّ إنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
 غِنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّكِ وَالغِنَى
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ (٣)
 فما زادنا بأوًّا على ذي قرابة
 غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ (٤)

ألست معي في أن على هذه الأبيات مسحة من الجمال وأثرًا بيننا من الصدق وأن لها لوطّة من ثمّ بالقباب ا أليس حاتم يقول : الحقّ أوّل : إنه لا يلغى لك ياماوية أن تلوميني على إنفاق مالي في سبيل البرّ والإلطاف ، والتخرق في النوال وقرى الاضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يُغنى عنه شيئًا إذا ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُيذ جسده بالعراء وأودع حُفْرَةً مُوحِشَةً مُقْفَرَةً ليس معه شيء مما كان يَحْتَازُهُ في هذه الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذي تركته و بَخَلْتُ بِهِ على مُسْتَحِقِّهِ أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، و صفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفروح : عاش ، وغنى بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعك الفقر ، وبكأسيهما : يعني الفقر والغنى (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مابكا لغيرى وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخلق بي لذلك أن أنفقهُ وأتسخى به على أهليه ، فأنفَعَ بعد موتى - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للبال يا ماوية ، ذلك الذى يجيء وبذهب ، ويغدو ويروح ! أليس الأخلق بالعاقل الثاقب النظر أن يفيد منه ما هو أبقي على الزمن الباقي من الزمن - أن يفيد منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجود به في وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتى حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكُلَّا سقانا الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناء أعراضنا ، ولا أسف بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنا أغنياء ، ما أبطرتنا الغنى ، وما أطعنا ، على ذوى قربانا ، لآنا نعلم علماً ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذَّكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذى عليه المعول ، وإنه لذخيرة لا تنفد ، وهى حسب العاقل الذى راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخِلِدْ إلى أم دفر^(٤) باطل الأباطيل ...

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأنامى فى أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمَماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقير : نكتة فى النواة يكون منها نبات النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نَعْقِلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَبِمَتْ مَنَّا بِسَبَبِ وَاصِلٍ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَبْسُطُ التَّبَسُّطَ الَّذِي يُبْحِقِنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرْجِمِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتِنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِعَبْقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كان هذا أحمد بن أبي دوادٍ شَخْصِيَّةً ضَخْمَةً ذاتَ أثرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيحِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِراً عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَأْمُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَليْسَ فِيهِ مِنْ مَعَمَزٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَى كَرَمِهِ كَرْمٌ أَحَدٍ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوَقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَقَاتِمِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِمِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالتُّبُلِّ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلَيْكَانَ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدَانَ بْنِ عَدْنَانَ أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنَّ أَسْلَمَهُ مِنْ قَرْيَةِ بَقْنَسِرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَتَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا يَبْلُغُ ، وَصَحِبَ هِيَاجُ بْنُ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْتِزَالِ ، وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المَحَلَّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيناء^(١) ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دُواد ، وقال : كان ابنُ أبي دُوادِ شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دَعْبِلُ بن عليّ الخُزاعيُّ - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له آياتاً حسناً : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيناء الضربير يقول : ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دُواد - يُريد أبو العيناء بالأدب هنا : أدب النفس - ما خرجت من عنده يوماً قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أتقيدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : ودو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحدٌ حتى يبدؤه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابنُ أبي دُواد ، فمدَّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكناهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثلَ أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالمُ خليفةً فمثلَ أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبى : ابن أبي دُواد رُوِّحَ كلُّه من قرينه إلى قدِّمه . وقال لازون بن اسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوعَ لأحد ، من المعتصم لابن أبي دُواد ، كان - المعتصم - يُسألُ الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دُواد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضربير ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلبه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليخفّر بها نهرُ في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفُقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُواد بالمأمون ما حدّث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضُرُ مجلسَ القاضي يحيى بنِ أكرم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاءه رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُجبْ أن أحضَرَ معه ، ولم يستطع أن يُؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إليّ إذا شرّعتُ في الكلام ، ويتفهّم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : مَنْ تكون ؟ فانتدبتُ له ، فقال : ما أخرك عنا ؟ فكبرهت أن أُجيبَ على يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرتَه ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِم يحيى بنُ أكرم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قبيل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حدّث ، سنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابنُ أبي دُرَاد ، فلما قدِم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعةً يجالسونني ويكثرُونَ الدخولَ إليّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابنُ أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، واتصل أمرُه ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفارُكُكَ الشركةَ في المشورةِ في كلِّ أمرٍ ،
فإنه موضع ذلك ، ولا تتخذنَ وزيراً ، فلما ولي المعتصم ، جعل ابنَ أبي دواد
قاضيَ القضاة مكان يحيى بن أكرم ، وكان لا يفعلُ فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا
برأيه ... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولدهُ الواثقُ بالله حسنتَ حالُ ابن
أبي دواد ، وما زال إلى أن وليَ أخوه المتوكلُ ، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج
فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة ...
قال ابن خلكان - الذي نعتمد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً
ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

مَأْنَتْ بِالسَّبِّ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا نُجِئُحُ الْأُمُورِ بِقُوَّةِ الْأَنْسَابِ

فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يَدْعَى الطَّيِّبُ لِشِدَّةِ الْأَوْصَابِ

ومن كلامه : ثلاثةٌ ينبغي أن يُبجلوا وتُعرف أقدارهم : العلماء ، وولادة العدل ،
والإخوان ، فمن استخفَّ بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخفَّ بالولادة أهلك دُنياه ،
ومن استخفَّ بالإخوان أهلك رُوءته ، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم
يُحْمِلَ وِإِيَّه على منبرٍ ولو أنه حارس ، وعدوه على جذع ولو أنه وزيرٌ ^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضُرَّ فَإِنَّمَا يُرَجَّى الْفَتَى كَيْمَا يُضُرَّ وَيَنْفَعَا

وقول الآخر :

وَلَكِنْ قَتَى الْفِتْيَانَ مِنْ رَاحٍ وَاعْتَدَى لِضُرِّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقٍ

وقول المتنبي :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ

وقول ابن الرومي :

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي -
توثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خَوْرٌ في الطبيعة - منافساتٌ وشحناءٌ ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
مَا أَجِيْتُكَ ، تَكْثُرُ ابْكُ مِنْ قِلَّةِ ، وَلَا مُتَعَزِّزًا بِكَ مِنْ ذِيَّةِ ، ولكن أمير المؤمنين
رَبِّبَكَ مَرْتَبَةً أَوْجَبَتْ لِفَاءِكَ ، فَإِنْ لَقِينَاكَ نَلَهُ ، وَإِنْ تَأَخَّرْنَا عَنْكَ ذَلِكَ ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرمٌ من كان في دولة
بني العباس البراءة كما ثم ابن أبي دواد ... حَدَّثَ الْجَاهِظُ قَالَ : غَضِبَ الْمُعْتَصِمُ عَلَى
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ ، وَأَحْضَرَ السِّيفَ وَالزُّنْطَ ^(١) فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ :
فَقَلَّتْ وَصَنَعْتَ ، وَأَمْرٌ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
سَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلَ ^(٢) ، فَتَأَنَّ فِي أَمْرِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ ، قَالَ : فَسَكَنَ الْمُعْتَصِمُ

= وَلَيْسَ يَصَاحُحٌ لِاسْتِصْلَاحِ مَمْلُوكِهِ غَيْرُ أَمْرٍ نَافِعٍ بِالْحَقِّ ضَرَّارٍ
ووليهِ : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
فصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أى خفيير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) الزنطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :

نَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله فأجبر

بعذره فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دواد : وعمرني البول فلم أقدر على حبسه ، وعليت أني إن نُمتُ قُتِل الرجل ، فجمعت ثيابي تحتي وبلتُ فيها ، حتى حَلَّصْتُ الرجل قال : فلما قت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبةً فقال : يا أبا عبد الله ، أكان تحتك ماءً ؟ فقلت : لا ، يأمر المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ! فضحك المعتصم ، ودعالي وقال ، أحسنت ، بارك الله عليك ، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم ... وقال أبو العيناء : كان الأفشينُ - التركي وكان من أجل قواد المعتصم ، وأبلى في أمرِ بابك الخرميِّ بلاءَ حمده له - يَحْسُدُ أبا دُلفَ القاسمَ بنَ عيسى العجليِّ (١) - وهو كذلك أحدُ قوادِ المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان تحت إمرة الأفشين في حرب بابك - للعربية والشجاعة

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما فاضلا ، مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعمكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العمكوك قصيدته التي يقول فيها :

إنما الدنيا أبو دُلفٍ بين مغزاه ومخضره
فإذا ولَّى أبو دُلفٍ ولت الدنيا على أثره
كلُّ من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعيرٌ منك مكرمة يكتسيها يومَ مفتخره

ويقول بكر بن النطاح :

يا طالبا للكيمااء وعليه مدحُ ابن عيسى الكيمااء الأعظم
لولم يكن في الأرض إلا درهم ومدحته لآناك ذاك الدرهم
وقد أعطاه أبو دلف على هذين البيتين عشرة آلاف درهم ... هذا ودلف اسم علم ممنوع من الصرف للعلمية والعدل لأنه معدول عن دالف ، قاله ابن بري

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيّاف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدوّله ، فدخل على الأفضين ، وقد جرى بأبي دُلف ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا تُحدّث في القاسم بن عيسى حدّثنا حتى تُسلّمه إلىّ ، ثم انفتحت إلى العدول وقال : أشهدوا أنّي أدّيتُ الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفضين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدّيتُ عنك رسالة لم تقلها لي ، ما اعتدُّ بعملٍ خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوّب رأيه ، ووجّه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفضين فيما عزم عليه ... ومن مروّاته : أن المعتصم كان قد اشتدّ غيظه على محمد بن الجهم البرمكيّ ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شدّ برأسه وأقيم في النّضج وهزّ السيّف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحولُ بيني وبينه ؟ قال : يا أبا الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختاره أقربُ عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى يُناظر ، فتأخّر أمره على مالٍ حملة « أي كتمّله ، وخصّص محمد ... وقال أبو العيّن : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن يزيد الشّيبانيّ ، وأشخصه من ولايته ، لتعجز لِحَقّه في مالٍ طلب منه ، وأسباب غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرّح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكّم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك! فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّعٍ^(١)؟ فقال: بل دَشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخضع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلوة، قال: قد أمرت لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد - تضحراً بكثرة حوائجه: قد اختلت بيوت المال بطلباتك للأئدين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائج شكرها متصلة بك، وذخائر أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلد المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلنتجزأ بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية»

(١) يقال: شفع له وشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيحاً، فالطالب شفيح

وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة

(٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه

الخلاء والخلع

وما آتت لف هذه المعاني السكرية مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثال
أبي تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنست مساوي كل دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلا ومن جدِّ والكَرَّاحِ لتي وزادِي

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُنشدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دواد لأبي تمام:
هذا المعنى تفردت به أم أخذته؟ فقال: هولى، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس:

وإن جرت الألفاظُ منا بمدحِ غيرِك إنساناً فأنت الذى نَعْنِي
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التى أولها:

أرأيت أى سوائفٍ وُحْدُودٍ عَنَّتْ لنا بين اللوى وزرُودِ

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فِضِيلَةٍ طَوِيَّتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يُعَرَّفُ طِيبُ عَرَفِ العودِ

لولا التَّخَوُّفُ للعواقبِ لم تزلْ للأحاسدِ التَّعْمَى على الحَسودِ

ودخل أبو تمام عليه يوماً، وقد طالَت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل

إليه، ولما وصل قال له ابن أبي دواد: أَحَسَبُكَ عاتبا يا أبا تمام، فقال

أبو تمام: إنما يُعْتَبُ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعاً، فكيف يُعْتَبُ عليه!

فقال له: مِن أينَ لك هذا يا أبا تمام؟ فقال من قول الحاذق - يعنى

أبا نواس - فى الفضل بن الربيع:

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
 وَمَا وَلَّى ابْنُ أَبِي دُوَادٍ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
 قَوْلُهُ :

إِذَا أَنْتَ صَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ صَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ
 فَتَدَّهَرَ عِظْفِيهِ الْقَرِيضُ تَوْقَعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ
 وَلَوْلَا خِلَالَ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَنَّى الْمَكَارِمُ

وَمَدَائِحُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ
 دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ هُوَ الْفَاحِشُ لِأَهْلِ الْأَدَبِ مِنْ أُمَّةٍ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
 قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
 وَقَالُوا يُدْفِنُ مِنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكِرْمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْأَدَبِ وَلَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ إِلَّا
 هَذَا وَهَنْ^(٣) وَتَقْصِيرٍ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
 الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا عَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِقٍ وَهِيَ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ
 يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءُ يَرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ مِنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكِرْمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحُوطُ
 الْكِرْمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَانَ الْجَيْشُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكِرْمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكِرْمِ
 إِذْ أَنَّهُ يَحُوطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهَنْ : ضَعْفٌ

(٤) يُقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْإِمْرَانَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَيِ اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعْدَانِي

وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْعُدُوٌّ وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ

وَأَظْلَمْتَ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شمسُ الْمَكَارِمِ فِي غَمِيمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعًا وَلَهُ مَنَابِرٌ لَوْ يَشَاءُ وَسَّرِيرٌ
ولغيره يُجَنَّبِي الْخِرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَنَّبِي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُبُوطِهِ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّأُ الْمُخْلَفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد» فلننظف على كلامهم في الجودِ وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفى - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل وينوّه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة تفتاً ونترك سايرها لمن يجب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتِيقُ الْمَسْكِ : استخراج رائحته بشيء نخلطه به، ومسك فتيق : مستخرج الرائحة بحلّه في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العقب، وتقصف : يحذف إحدى التائين أى تقصف والتقصف : التكرس

وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظهر فقره ، وشمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض عياله ^(١) ، وعلى خشونة الملابس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يجتمع في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروب على هامة ^(٤) الشحيح ، ومعجل للثيم ^(٥) وملازم للنوع ؛ ألا إن المُنْفَقَ قد رَجَحَ المحمّدة ، وتمتّع بالنعمة ، ولم يعطل المقدرة ^(٦) ، ووفى كلّ خصلة من هذه حقها ، ووفّر عليها نصيبها ، والممسك معذب ، يحضّر نفسه ، وبالكدّ لغيره ؛ مع لزوم الحجّة ^(٧) ، وسقوط الهمة ^(٨) والتعرض للذمّ والإهانة ، ومع تحكيم العرة السوداء في نفسه ^(٩) وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠) .

إنّ الله جوادٌ لا يبخل ، وصدوقٌ لا يكذب ، ووفى لا يغير ، وحكيمٌ لا يعجل ، وعدلٌ لا يظلم . وقد أمرنا بالجد ، ونهانا عن البخل ؛ وأمرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذب ؛ وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العجلة ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ؛ وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغدر .

-
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشورته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجّة : أى مع قيام الحجّة عليه في بخله وعجزه عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتتغصص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجْوَدُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، وَ « ذُو الطُّولِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دَرَاهِمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبَيْتُ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجْرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى مَخْلِفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ نُوتِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعِدَ أَوْ أَطْمَعُ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ ^(٥) ، وَإِطْمَاعُهُ
 كَالْإِنجَازِ . وَمَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّحَابِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةَ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجَ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبَ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لتحاوّلوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :
 الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلف : الكورة
 وهو عند أهل اليمن واحد الخاليف وهي كورها أى المدن والأصقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون ونوبق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وهبَ لرجل ألفَ بعير .
فلما رآها تزدهمُ في الهوادي ^(١) قال : أشهدُ أنك نبي . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعتِ الأممُ كلُّها بَحْيَئِهَا وَسَخِيَّهَا ومزوجُها ، ^(٢) على ذمِّ البخل ، وحمدِ
الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحمدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافةً ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُهُ واستسقاطُهُ ^(٣)

ولم نزال الأمة أبغضتُ جوادًا قطُّ ولا حقَّرتُهُ ، بل أحبَّته وأعظمتُهُ ، بل
أحبَّتُ عقبه وأعظمتُ من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جوادا ،
لمجاوزته حمدُ الجود إلى السرف ، ولا حقَّرتُهُ ، بل وجدناهم يتعلون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعلهُ
وتخلَّوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا
يُضاعف ^(٦) كما تُضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العتق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائلها وهذا شاهد أيضا في كل قطع

(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطا بين الكريم والبخل

(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافرا ، واستسقاطه : إسقاطه من

بين العقلاء

(٤) الفل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضعافا

كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدح شارد^(١)، وكلّ معروف مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرّة ، ويُحَقِّرونه مرّة ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه ، ويُضيفون إليه من نواذر اللّوم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلى أنّنا لانجد الجوانح^(٢) إلى أمّال الاسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افقر من البخلاء أقلّ .

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ؛ فقد يستحق عندم اسم البخيل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعاقَّب البخيل^(٣) على نفسه من المؤن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدوابّ والحشم^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة^(٥) . والشارّة الحسنة^(٦) ، ما يُرَبِّي على نفقة السخى المثرى^(٧) ويضعف على جود الجواد الكريم^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغيّر

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوانح : جمع جائحة وهي الآفة .

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يرَبِّي : يقال : أربى الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف : من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ الْقِيَانِ ^(١) واستُهْتِرَ بِالْحِصْيَانِ ^(٢) .
 وربما أَفْرَطَ فِي حُبِّ الصَّيْدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ ^(٣) ، وربما كان
 إِتْلَافَهُ فِي العُرْسِ وَالْحُرْسِ ^(٤) والوليمة ، وإِسْرَافُهُ فِي الإِعْذَارِ ^(٥) وَفِي العَقِيقَةِ ^(٦)
 وَالوَكِيرَةِ ^(٧) ، وربما ذهبَتِ أُوَالُهُ فِي الوَضَائِعِ ^(٨) وَالوَدَائِعِ . وربما كان
 شَدِيدَ البُخْلِ ، شَدِيدَ الحُبِّ لِلذِّكْرِ ^(٩) وَيَكُونُ مُنْخَلُهُ أُرْشَجَ ^(١٠) وَلَوْمُهُ أَقْبَحُ ،
 فَيُنْفِقُ أُوَالَهُ وَيُتَلَفُ خَزَائِنَهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ كَهَافَا ^(١١) وَلَمْ يَنْجُ سَلِيمَا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَرَبَّ بِخَيْلَا مَخْدُوعَا ^(١٢) ، وَبِخَيْلَا مَضْعُوفَا ، وَبِخَيْلَا مِضْيَاعَا ، وَبِخَيْلَا

- (١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الأمانة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ : بالبناء للجھول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الحرس بالضم والحراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،
 (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل
 (١٠) أى أعلق بنفسه
 (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويفنى ، ومعنى لم
 يخرج كهافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

فَاجَا ^(١) وَبَخَيْلًا ذَهَبَ مَا لَهُ فِي الْبِنَاءِ، وَبَخَيْلًا ذَهَبَ مَا لَهُ فِي الْكِيمِيَاءِ ^(٢) ،
 وَبَخَيْلًا أَنْفَقَ مَا لَهُ فِي طَمَعٍ كَاذِبٍ ، وَعَلَى أَمَلٍ خَائِبٍ ، وَفِي طَلَبِ الْوِلَايَاتِ ،
 وَالذَّخُولِ فِي الْقَبَالَاتِ ^(٣) ، وَكَانَتْ فِتْنَتُهُ بِمَا يُؤْمَلُ مِنَ الْإِمْرَةِ ^(٤) ، فَوْقَ
 فِتْنَتِهِ بِمَا قَدْ حَوَاهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَقَدْرَ أَيْتَانِهِ ^(٥) يُنْفِقُ عَلَى مَائِدَتِهِ وَفَاكِهِتِهِ
 أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَعِنْدَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عُرْسٌ ^(٦) ، وَلَآنَ يَطْعَنَ طَاعِنٌ
 فِي الْإِسْلَامِ ، أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَطْعَنَ طَاعِنٌ فِي الرَّغِيفِ الثَّانِي ، وَلَشَقُّ
 عَصَا الدِّينِ ، أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ شَقِّ رَغِيفٍ ، لَا يَعْدُ الثَّلَاثَةَ فِي عَرْضِهِ ثَلَاثَةً ،
 وَيَعْدُهَا فِي ثَرِيدَتِهِ مِنْ أَعْظَمِ التَّلْمِ ^(٧)

وَإِنَّمَا صَارَتِ الْآفَاتُ إِلَى أَمْوَالِ الْبِخْلَاءِ أَسْرَعَ وَالْجَوَائِحُ عَلَيْهِمْ أَكْثَبَ ^(٨) ؛

(١) النفاق : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
 أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلاً ثرياً من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
 ولكنه في أواخر أيامه أضع ثروته التي كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجرد أطيان
 مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
 الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر ، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلاً من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الرثيمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهذوم أو المكسور

(٨) أكذب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا ، وأسوأ بالله ظنًا . والجوادُ إما أن يكون متوكلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًا ، وهو على كل حال المتوكل أشبه ، وإلى ما أشبهه أنزع^(١) ، وكيف أدار أمره ، فليس من يتسكّل على خزه ، ويلجأ إلى كَيْسِه^(٢) ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياظه وشدة احتراسه

واعتلالُ البخيل بالحدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخلق الحدثان^(٣) ، وبالذي يُحدث الأزمان وأهل الزمان . ولا تجرى الأحداث إلا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصرف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقننا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد الملك بخيلاً ، ومملكته أوسع ، وخرجه أدر ، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مرة^(٦) ورويةً وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حُدْمِهم^(٨) ،

(١) الضمير في أشبهه يعود إلى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كَيْسِه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نواتبه . واعتلال البخيل بالحدثان : أي تلسه العطل والأعداء

بالخوف من نوائب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن :

أي غير متحفز لقتاله وإذن فالمال موفور لديه

(٦) المزة : العقل والإحكام

(٧) أي وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله في السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة

الذكاء والفطنة

وتفحص عتوهم ، وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارس أن تكون أبخل من الروم وتكون الروم أبخل من الصقالبة^(١) ؛ وكان ينبغي في الرجال ، في الجملة ، أن يكونوا أبخل من النساء ، في الجملة ، وكان ينبغي للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغي أن يكون أقلُّ البخلاء عقلاً ، أعتلَّ من أشدَّ الأجواد عقلاً ؛ وكان ينبغي للكلب - وهو المضروبُ به المثلُ في اللوم - أن يكون أعرف بالأمور من الديك ، المضروب به المثل في الجود^(٢)

ونحن لانجد الجوادَ يفرُّ من اسمِ السَّرَفِ إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفرُّ من اسمِ البُخْلِ إلى الاقتصاد^(٣) . ونجد الشجاعَ يفرُّ من اسمِ المنهزم ، والمستحي يفرُّ من اسمِ الخِجَل . ولو قيل لخطيب ثابت الجنان : وقاح^(٤) لجزع - فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضلة^(٥) - إلا الجواد^(٦) ، لقد كان في ذلك ما يبين قدره ، ويُظهر فضله .

ولو كانوا لأولادهم يجمعون ، ولهم يكفون ، ومن أجلهم يحرصون ، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون ، ولتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون .

(١) الصقالبة : جيل تناخم بلادهم بلاد الخزر - في روسيا - وبحر الخزر هو بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب

(٣) ونحن الخ ، وذلك لأن الجواد لا يخاف من اسم السرف خوف البخيل من

اسم البخل لأن السرف في رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح : القليل الحياء .

(٥) الفضلة هنا : تجاوز الحد في الفضيلة

(٦) إلا الجواد ، أى فإنه لا يكره أن يلقب بالسرف

وهذا بعض ما بعض بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف (١) في طول عمر الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمهّدون ، ولهم يجمعون ، كما جمع الخِصيانُ الأوال ، ولما كنز الرهبان الكنوز ، ولأستراح العاقر من ذل الرغبة (٢) وتسلم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجده بعد أن يموت ابنه الذي كان يعتل به (٣) ، والذي من أجله كان يجمع ، على حاله (٤) في الطلب والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامة لم تُقصر في الطلب والحكوة (٥) ، والبخلاء لم يحدوا شيئا من جهدهم (٦) ولا أعفوا بعد قدرتهم (٧) ، ولا قصرُوا في شيء من الحرص والحصر (٨) ، لانهم في دار قلعة ، بعرض نقلة (٩) . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ، لا غفلوا تلك الفضول (١٠)

(١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته

(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذه علة وسببا للجمع والمنع

(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه

ألقى العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحكوة هنا : الجمع والإمساك

(٦) أي لم يجسوا جهودهم في سبيل جمع الأموال (٧) اعنى : أنفق العفو من

ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أي بعد اقتدارهم وإيسارهم

(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أي انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أي أن

الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من

الترقي في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشتهم

وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من

الحرص والجشع

فالبخيلُ مجتهدٌ ، والعامى غير مقصّر .^(١) فمن لم يستعين على ما وصفنا بطبيعة قوّة ، وبشهوةٍ شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً^(٢) - فقيم اغزلاهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلون من أزمئتهم^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفد كذب عنده كذبةً ، وكان جواداً : لولا حصلةٌ وممكك الله عليها ، لشردتُ بك من أفد قوم^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساءِ وأدم الإبل^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج^(٦) . قال : يمتنعى من ذلك قرأهم الضيف ، وصيلتهم الرّحّم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا ثجّوا^(٧) ، وإذا لبّوا عجوا^(٨) . وقال الأنصار : من سيديكم ؟ قالوا : الحرث بن قيس ، على أنه يزّن^(٩) . فينا يبخل ، فقال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ جعله من أدوأ الداء .

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامى فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلون الأزمئة : تغلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعثتك وطررتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف في « بك » ، (٥) الأدم : جمع آدم وأدام ، والأدم في الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج ، بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزّن : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصا رُكوبه البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا يتغنى ثالثا ، ولا يُشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جوادٌ يُحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا ^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عبقرياتهم في الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخيزر بالشريار رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه يُنزل عليه ^(٥) ، فأفاق يمسح عنه الرخضاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

(١) لتكثروا الخ : أي لتجتمعوا بجموعكم للنجدة والذود ، وقتلهم عند الطمع : لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع في مغنم حرب أو نحوه
(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر في تلك الأيام وليس المراد ذم السعي على الرزق الحلال من أي وجه كان ، كما هو ظاهر
(٣) واديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمزة الحبشي مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخضاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإنّ مما يُذبتُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أو يُبِلُّ^(١)، إلا آكلةَ النَّخْرِ^(٢)، فإنها أكلتُ حتى إذ امتلأتْ خاصرتاها استقبلت عينَ الشمسِ فقلّطت^(٣) وبالت ثم رتعت. وإن هذا المالَ خَصْرَةٌ حُلوةٌ، ونِعْمَ صاحبُ المُسَلِّمِ دو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام اللغوى أبو منصور الأزهري^(٤): فى هذا الحديث، ثلثان، ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد فى جمع المالِ وبذله فى حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإن مما يئب الربيع ما يئتل حبطا، فهو مثلُ الحريصِ المفرطِ فى الجمعِ والمنع، وذلك أن الربيع يئب أحرار العشب^(٥) التى تحلّولها المشاية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهملك، كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك فى الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكا لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء الناس به وازورارهم عنه وانظواتهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعدم إياه خنزيرا من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة والأناية وحب الذات، وبالحرى لاخير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

فى عرق الحى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل المشاية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتملك، ويبل: يقرب ويدنو من الهلاك (٢) الحضر بفتح فكسر جمع خضرة: ضرب من الجنبه أى عروق العشب الغامضة فى الأرض كما سيأتى (٣) ثلطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة (٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري، الإمام المشهور فى اللغة، صاحب التهذيب ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الغِنَى لِلنَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ العَدَمُ
مُمْ لَأَمْوَالِهِمْ وَكَسَنَ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الاسقام والايوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحقنهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الغوائل الاجتماعية التى نرى
أفعلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقوله صلى الله
عليه وسلم : إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتها استقبلت
عين الشمس فتلطت وبالت ثم رتمت ، وذلك أن الخضر ليس من أحرار
البقول التى تستكثر منها الماشية فهلكها أكلا ولكنه من الجنبة ^(١) التى
ترعاها بعد هيج الشب ويُبْسِه ، والماشية ترتع منها شيئا شيئا ولا تستكثر
منها فلا تجبط بطونها عنه . فضرب النبي صلى الله عليه وسلم آكلة
الخضر مثلا لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها
وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت
من الخضر استقبلت عين الشمس فتلطت وبالت ، وإذا تلطت فقد ذهب

(١) أسلفنا أن الجنبة هى الكلا الذى له عروق فى الارض ، قال أبو حنيفة الدينورى :
الجنبة ما كان فى نبتة بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحماط
عما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لأرومة لها فى الارض

حبطها، وإنما تحبب المشاة إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقب الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته.



هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئت لأهدت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسأج هذا القز، ولكن هيات أن يغلبتى هواى، ويقودنى جسعى إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز وباليمامة من لاطمع له فى القرص، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى،^(١) وأكبأد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةَ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنٍ إِلَى الْقَدِّ^(٢)
أَفْتَعُ مِنْ نَفْسِي أَنْ يَقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَةً لَّهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ^(٣) أَمَا خُلِقْتُ لِئَسْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيْبَاتِ،
كَالْبَيْهِيَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عُلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ سُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكَرَّرَ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلَهُوُ عَمَّا يُرَادُ بِهَا ...

(١) الميطان: الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جاعة

(٢) البيطنة: الكظة، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا، والقدد: سيور قدد - تقطع - من جلد غير مدبوغ. وهذا البيت من آيات لحاتم الطائي المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش: خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم دؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرؤن - ونعماً رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عمّالهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يرفاً « مولى عمر » فقلت : يا يرفاً مُسْتَرَشِدٌ وابن سبيل ... أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ، فأوماً إلى بالخشونة . فاتخذت حُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ ^(١) وابست جُبَةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيرى ، فدعاني فقل : من أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترترق؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقاربى ، فما نضل عنهم فعلى قتراة المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه فخرزت به ، فعنى مطارقين : خصفت إحداهما

فوق الأخرى (٢) أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال: كم سنك؟ قلت: خمس وأربعون سنة، قال: الآن حين استحكمت. ^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأُتِيَ بِخُبْزٍ وَأَكْسَارٍ بِعِيرٍ ^(٢) فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت أكل فأجيد، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم، ثم سبقت في كلمة تمنيت أني سُخْتُ في الأرض ^(٣) فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني، ثم قال: كيف قلت! فقلت: أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لينا واللحم غريضا ^(٤)... فسكن من غربه ^(٥) وقال: أههنا غرت؟ ^(٦) قلت: نعم، فقال: ياربيع، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ^(٧)، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت: تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار: جمع كسر، والكسر: عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض: غاص فيها ودخل

(٤) غريضا: طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت: أي ذهبت يقال: غار

الرجل: إذا أتى الغور وناحيته مما انخفاض من الأرض، وأنجد: إذا أتى نجد أو ناحيته

مما ارتفع من الأرض (٧) صلائق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسبائك: ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحواري أي

ما يتقى من لباب البر. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبد

(٨) نعى على قوم شهواتهم: عابها ووبخهم عليها. أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي: وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْمَبْتُمْ طيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثم أمر أبا موسى بإقرارِي
وأن يَسْتَبْدِلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الناروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل
من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيده الحازمة كما قلنا

عظيمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وما يصح إirاده هنا ما يأتي : لما أتى بالهُرْمُزَانِ صاحبِ نُسْتَرٍ، إلى عمر
ابن الخطاب - وكان هذا الهرمُزان من أعظم آوادِ الفُرسِ ، وكان على مِيْمَنَةِ
جيشِ رُسُومٍ وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدُ بن شهريار بن ابرويز في حرب
القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهرمُزان
بمن بقي من جُنُودِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ
إلى مدينة نُسْتَرٍ^(١) ، وتحصَّنَ بها ، فاصروه أشدَّ حِصَارٍ ، ثم أنزلوه على حُكْمِ
الفاروق ، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُهم إلى وفد فيهم
أنس بن مالك والاحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق
يلتف في كِسائِهِ وينام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا
آنفاً فَيَضَعُ فِي قَلْبِ الْهُرْمُزَانِ ، إِذْ رَأَاهُ كَبَعَضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا
به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهرمُزان : هذا والله المَلِكُ
الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) نستر : مدينة عظيمة جمعها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرىها منها
(٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس
ولا عدد (٤) العلج في الاصل : الحمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل
من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألِّيس من هَيِّية التقوى ... ثم نظر عمر إليه وقال :
 آلهرْمُزان ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
 وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والناج المكلل بالياقوت ، وأمر له
 بثوبٍ صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهرْمُزانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ
 وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :
 والله لا أنخدعُ حتى تُسلم ، فأسلم ، وفرَضَ له فى العطاء ألفين ، وأقام
 بالمدينة .

تعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الأوائل
 لم يتركوها معنى إلا طَرَقوه : * وهل غادرَ الشعراءُ من مُردِّمٍ *^(٢)
 وهو معلوم أن الخمر تُحدثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريحيةً
 وقد تُحيلُ البخيلَ كريماً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُحْتَرِيُّ - :
 تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الكُوَيْسِ عَلَيْهِمَ - فما أسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثَنَّ فَيْكَ تَكْرَمًا
 وقال أبو نُوَاسٍ :
 قَى لا تُذِيبُ الخمرُ شَحْمَةَ مالِهِ - وَلَكِنْ أَيْادِ عُوْدٍ وَبَوَادِي^(٣)
 وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر بيت لعنترة وتماه :

* أم دل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول لعنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
 مجالا لقائل ، والمتروم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيئه ، وقوله : ولكن أيا دعود وبادى ، يقول : ولكنه يعطى
 عطاياها قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياها تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انتَشَى - خَلَّةٌ تَلَافَاهَا (١)

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته :

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرَّرِي
وَقَالَ زُهَيْرٌ :

أَخْوِثَةٌ لَا تُهْلِكُ الخمرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالُ نَائِلُهُ
وَقَدْ عَضَّوا مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ كَلثُومٍ :

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا (٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يعدون جود السكران جوداً ، وإنما الجود
عندهم ما كان من كرم نظري لا تبتئته خمر وما يشبه الخمر . وإذا هم وصفوا
الخمر بأنها ثورث شاربها شيئاً يشبه الكرم ، فذاك من باب استقصائهم
لمعاني الخمر وما تحدّثه في شاربها ، كما قد سيمر بك في بابها ...

ولقد سمّت مكارم الأخلاق بكثيرٍ من ذوى الأريحية إلى أنهم لا يقطعون
نواهم عنّ يعضّبون عليهم وَيَبْسُ السُّرَى بينهم ، وقد روى في ذلك أنّ

(١) الخلة : الخصلة والثلة ، وتلافاها - بحذف إحدى التامين : تلافاهما ، أى

تداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدرة :

✽ مُشَعَّشَةٌ كَأَنَّ الحِصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول : استقى الخمر مشعشة ، أى بمزوجة بالماء ، فإنها من شدة حرمتها
كأنما ألقى فيها الحص - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا
جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء -
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً
نور هذا البيت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، و حَدَّثَ أن كتب
 إليه إطلاقاتٍ ، و رُفِعَت إليه الإطلاقاتُ ، و تَرَكَ اسمَ المَغضوبِ عليه ، فقال له
 أبوه : فأين ذِكرُ رِزقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبْتَ عليه ، فقال :
 يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لا يُسْقِطُ هَبْتِي ... إنَّ أبَاكَ لا يَغْضَبُ في النَّوَالِ ...
 و حتى المحتاجينَ المَغضوبِ عليهم كانت أنفسهم كريمةً أئيبَةً ، فقد رُوِيَ
 أنَّ بعضهم كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فمَقَطَعَهُ ، ثم رَضِيَ عنه
 فردَّهُ ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَهُ وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءَهُ مَكْرَمَةٌ ؛ فأما
 وقد صارَ غَضْبُهُ يَقْطَعُهُ ، فلا حاجة لي فيه ... و كذلك بَأَغَتْ بهم مكارمُ
 الأخلاق أن يُعْطُوا المَعْتَفِينَ ، أكانوا فقراءَ أم أغنياءَ ، فلا يَخْضُونَ ،
 وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
 كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقيرٍ ؛ و يُشَبَّهُونَ من هذا حاله بالغيث ، قال
 ابن المعتز :

و يُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَ ذَا الْغِنَى كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِبًا وَمَرِيحًا
 وَقَالَ الْمُنْبِي :

و يَدُّ لَهَا كَرَمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلَقَمَا
 وَكَذَلِكَ تَسَامَوْا وَبَاغَوْا مِنْ عِبْقَرِيَةِ الرُّوحِ أَنْ صَارُوا يُعْثُونَ الْإِنْخِدَاعَ
 عَنِ الْمَالِ وَالتَّجَالَةِ فِي ابْتِذَالِهِ كَرَمًا ، وَقَالُوا : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا خَادَعْتَهُ
 انْخَدَعَا ... وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ :

وَإِذَا خَادَعْتَهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْخَدَعْ
 وَيَقُولُ :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت برديه المغيرة أو عمرو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المغبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يحببه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التغابن للضعيف ... وما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عظامه ، وانقطعت مآدته ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زنبور المارديني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقية به ، فارتاب أبو زنبور في أمره
 لتغير الخطاب على ما جرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله
 فراعاه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة ، واحتبس عنده على وعد وعده به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكر الرجل وأنه من ذوى الحرّات والحقوق الواجة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها وما أدم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عندكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إبهامه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً: يُكشَفُ لأبي زُنْبُورِ قصته، ويُرَسَمُ له طَرْدُهُ وِحْرمانه، فقال ابن الفرات: ما أبعدكم من الحرية والخيرية: وأنقرَ طباعكم عنها! رجل توَّسَل بنا وتحَمَّل المشقة إلى مصر في تأمیل الصلاح بجَاهِنَا، واستمدادُ صنَع الله عز وجل بالانتساب إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظنه وتخييب سعيه! والله لا كان هذا أبداً، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقع على الكتاب الزور: هذا كتابي، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتكم شبهة فيه! وليس كلُّ من خَدَمنا وأوجب حقاً علينا تعرفه! وهذا رجل خَدَمني في أيام نَكَبتي، وما أعتدُّه في قضاء حقه أكثر مما كَفَّفْتُكَ في أمره من القيام به، فأحسِن تَفْقُده ووفِّر رِفْده وصرِّفه فيما يعود عليه نفعه... ورَدَّه إلى أبي زُنْبُورِ من يومه؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة ويزة جميلة، وأقبل يدعو له ويُنتي عليه ويكي ويُقبل الأرض، فقال له ابن الفرات: من أنت بَارِك اللهُ فيك! - وكانت هذه كلمته - فقال: صاحب الكتاب المزور إلى أبي زنبور، الذي صحَّحه كرمُ الوزير وتفضُّله، فعل الله به و صنع، فضحك ابن الفرات، وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: وصل إلى من ماله ومما قسَّطه على عماله وعمل صرفني فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات: الحمد لله، الزمنا، فإننا نُعرِّضُك لما يزدادُ به صلاحُ حالِك، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبِيناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتتوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمروءة ووضعوا له آداباً ودرساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وينشعب منه والله المستعان ...

معنى قري الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قَرَى الضيفَ قِرَى وقَرَاءً: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقتراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والآثي قريّة، وكذلك: إنه لَمَقِرَى للضيف ومِقراء، والآثي مِقراءة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِيلةٌ وإنه الأصلُ وإنَّ الناس لقد حُخِلُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدرَ هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض .

طَرَفٌ مِنْ مَلَجِهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لغلامه: هاتِ الطعامَ، وأغْلِقِ البابَ، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزمٍ، وإنما أُغْلِقُ البابَ، وأُقَدِّمُ الطعامَ، فقال له: أنتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعامَ لولا كَثْرَةُ الزَّحَامِ! فقالت: وأي زحامٍ وما ثمَّ إلا أنا وأنت! قال: أَحَبُّ أَنْ

أكون أنا والقدْر ... وَعَزَمَ بَعْضُ إِخْوَانِ أَشْعَبَ عَلَيْهِ لِيَأْكُلَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ :
 إِنِّي أَخَافُ مِنْ ثَقِيلٍ يَأْكُلُ مَعَنَا فَيَنْقُصُ لَدُنَّا ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا حِبُّ ،
 فَخَضِيَ مَعَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَأْكُلَانِ ، إِذَا بِالْبَابِ قَدْ طُرِقَ ، فَقَالَ أَشْعَبُ : مَا أَرَانَا إِلَّا
 قَدْ صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ : إِنَّهُ صَدِيقِي : وَفِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ
 إِنْ كَرِهَتْ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهُ ، قَالَ أَشْعَبُ : هَاتِ ، قَالَ : أَوْلَهَا أَنَّهُ
 لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فَقَالَ : التَّسْعُ لَكَ وَدَعُهُ يَدْخُلُ ، فَقَدْ آمَنَّا مِنْهُ مَا نَخَافُهُ ...
 وَأَكَلَ رَجُلٌ مَعَ بَعْضِ الْبِخْلَاءِ ، وَكَانَ عَلَى مَائِدَتِهِ أَرْغِفَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ ، فَلَمَّا
 فَرَّغَ مِنْ رَغِيفِهِ قَالَ : يَا غَلَامُ ، قَرَيْبِي ، فَقَالَ الدَّاعِي الْبَخِيلُ : وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟
 قَالَ : أَرَكُبُهُ إِلَى ذَلِكَ الرَّغِيفِ ... وَحَدَّثَ أَبُو نُؤَاسٍ قَالَ : قَلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ
 أَهْلِ خِرَاسَانَ : لِمَ تَأْكُلُ وَحَدِّكَ ؟ قَالَ : لَيْسَ عَلَيَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سُؤَالٌ ،
 إِنَّمَا السُّؤَالُ عَلَى مَنْ أَكَلَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ تَكْلُفٌ ، وَأَأْكَلِي وَحْدِي هُوَ
 الْأَكْلُ الْأَصْلِيُّ ... وَأَضَافَ رَجُلٌ أُعْرَابِيًّا ، فَلَمْ يَأْتِهِ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ حَتَّى غَشِيَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَخَذَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ :

لِحُسْبُ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَظَلُّ تُنْهَدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيَتِ الزَّمَانِ

وقيل للجمتاز: من يحضر مائدة فلان؟ فقال: أكرم خلق الله: الكرام
 الكاتبون... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نأكل
 معاً، فقال: معي خبزٌ ومعك خبزٌ، فلولا أنك تريد الشر لا أكلت وحدك...
 وقيل لآخر: ألا تأكلُ معنا؟ فقال: الجماعة بجماعة... ودخل على
 ابنِ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ دَاخِلٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَارِيحٌ ، فَغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ
 وَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جَيْبِهِ وَقَالَ لِلدَّاخِلِ عَلَيْهِ : كُنْ فِي الْحُجْرَةِ الْأُخْرَى حَتَّى

أَفْرَعٌ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ، فَقَالَ: أَجْهَزُ عَلَى
الْجِرْحَى، وَلَا تَتَعَرَّضُ الْأَصْحَاءُ... «يريد: كُلُّ مَا كُسِرَ وَبَيْلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضُ إِلَى الصَّحِيحِ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحَطِيمَةَ - الشَّاعِرُ الْمَخْضَرُمُ الْعَبْقَرِيَّ اللَّثِيمَ -
وَبِيَدِهِ عَصَا فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ^(١)، قَالَ: إِنِّي ضَيْفٌ، قَالَ:
لَلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ: أَلْعَوَا مِنَ الصَّلَاةِ الْأَذَانَ،
مَخَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْأَذَانَ، فَيَهْلُ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ:
تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانٍ

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ سَبْعَانَ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ، عَارًا وَسَنَارًا
وَلَوْ مَا وَنَذَالَةَ، وَيَتَهَاجِرُونَ بِذَلِكَ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعَشَى -
مِيمُونَ بْنِ قَيْسٍ - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عَلَاتَةَ:
تَبْتُونَ فِي الْمَشَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ عَرْتُ يَبْنَنَ خَمَائِصًا^(٢)
وَقَوْلُ بِيضَانَ بْنِ بَرْدٍ:
وَضَيْفٌ عَمِرُو وَعَمِرُو يَسْهَرَانِ مَعًا عَمِرُوا لِبِطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ:

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ بُوْقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ - وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

وَمِنْ مَاجِهِمْ فَمَنْ لَا يُظْفَرُ بِخُبْرِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) العجراة: العصا التي فيها أبن - عقد - ، والسلم: شجر

(٢) روي أن علقمة لما سمع هذا البيت قال: فضحني والله، اللهم أخزه إن لم

يكن صادقا، وعرني: جاءتات، ومثله خمائص

وما خبزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ (١) بُصُورٌ فِي بُسْطِ الْمَلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
وقال الآخر :

قد فرّ من نزيله فأرهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا

وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لب الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكريم خبزك وتهين لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لأفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدم وحواء وإبليس والطاوس من الجنة ... وتعدى الجواز عند هاشمي ، فر الغلام بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتته بطست يغسلها ، فقال الجواز : دعه ، فرقتكم لا تغير الثياب ... يريد : لادسم فيها ،

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدون شبح المرء وجاره جافع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :

وإني أمرؤٌ عافٍ إنائي شِرْكَةٌ وأنت امرؤٌ عافٍ إنائك واحدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغرب . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دح مصعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال : ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جِسْمِ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
 « العاقى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قوته الذى هو قوام رَمَقِهِ وَمَقِيمِ
 جِسْمِهِ ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يَحْسُو
 الْمَاءَ وَيَسْقِي اللَّبْنَ ، فإنما رَغْبَةُ الْجَوَادِ فِي الْمَالِ لِيَهَبَهُ ، وَطَلْبُهُ لَهُ لِيُنْهَبَهُ . »
 وفي هذا المعنى يقول مسكين^١ الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان في زمن معاوية بن أبي سفيان - :

إِن أَدَعِ مِسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدْرِي بِيُوتِ الْحَيِّ وَالْجُدُرُ^(١)
 مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَاتُهُ مِنْ وَضَعِهِ غُبْرُ^(٢)
 لَا أَخْذُ الصَّيَّانَ الثَّمَمُ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ^(٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرَتْنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرَنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مامس رحلي العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهي باطن دقة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غرباء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لا أقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والامر قد
 يغزى به الامر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوَاطِي وَالْأَعْبُهُ وَزَلَّتْهُ أَرِيدُ
 وَزَلَّتْهُ يَرُوى وَغَزَتْهُ وَيَرُوى وَرَبَيْتُهُ ، وَالْأَعْبُهُ يَرُوى لِأَلِهِيهِ . وللشعراء في هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية في الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخذعهم

لَسْنَا كَأَنفِوَامٍ إِذَا كَلَّحَتْ إِحْدَى السَّنِينِ جَارُهُمْ تَمْرٌ^(١)
 مَوْلَاهُمْ لَنَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢) تَنْتَابُهُ الْعِقْبَانُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ^(٣)
 مَاضَرَ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونُ لَبَيْتِهِ سِتْرٌ
 أَغْشَى إِذَا مَا جَارَتِي حَخَّرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِدْرُ^(٤)
 وَبَصْمٌ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقَرُّ^(٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً فاجبهم الله .

(١) جازهم تمر : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر

(٢) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم، وتركهم لحما على وضم : أى أذلمهم

(٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : نارى

ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقدولم توقد، والقدر

تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر

قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته

(٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش

عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى

بصره قيل عَشَى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا -

والمضارع يعشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير

عرج قال الخطيبه :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُوْهُ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُّوْقِدٍ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، فعنى

الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن، وأما القراءة بالضم فعناها ومن يتعام

عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصح ابنه بالتقليل من الطعام ،
شحاً وكزازة ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يجمل أن نتخذ
دستوراً في الطعام لمن أراد أن يصح ويعافى ، فهي حق أريد بها باطل ، ومن
ثم اخترناها ، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرأس - رؤس الضأن وغير
الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك ونهم الصبيان ^(١) ، وشره الزراع ^(٢) ، وأخلاق النوائح ^(٣) ودع
عنك خبط الملاحين ^(٤) والفعلة ^(٥) ونمش الأعراب ^(٥) والمعنة ^(٥) . وكل ما بين
يديك ؛ فإتما هو حقلك الذي وقع لك ، وصار أقرب إليك ؛ وأعلم أنه إذا كان
في الطعام شيء طريف ، ولقمة كريمة ، وضغفة شهية ، فإنما ذلك للشيخ
المعظم ، والصبي المدلل . واست واحداً منهما . فأنت قد نأى الدعوات

(١) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام .
وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشرون إلى الطعام لفرط
ما يذلون من قواهم البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن
في مناحة ، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات
ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوق السفينة ، والخبط : السير
على غير هدى ، والفعلة : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب في الطعام على غير هدى
كالملاحين ، ولا تكن غنياً في أكلك كما تفعل الفعلة

(٥) يقول : لا تنمش اللحم كما ينمش الأعراب الجفاة وكما ينمش المعنة : جمع ما هن ،

وهو العبد الخادم

والولائم، وتَدْخُلُ منازلَ الإخوانِ، وعهدك باللحم قريب. وإخوانك أشدُّ قرماً إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصِيبَ بعضاً. وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم، فإن الله يُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازيرُ فإن لها ضراوةً كضراوةِ الخمرِ^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحمِ كمدْمِنِ الخمرِ. وقال الشيخ - ورأى رجلاً يأكلُ اللحمَ، فقال: لحمٌ يأكلُ لحمًا... أف لهذا عملاً!

وقال الأول: أهلك الرجالَ الأحمرانِ: اللحمُ والخمرُ، وأهلك النساءَ الأحمرانِ الذهبُ والزعفران^(٣)... أى بُنى، عَوْدُ نَفْسِكَ الأثَرَةَ^(٤)، ومجاهدةَ الهوى والشهوة. ^(٥) ولا تَنْهَشْ نَهَشَ الأفاعي، ولا تَنْخَضِمْ خَضَمَ البراذين^(٦)، ولا تُدِيمِ الأكلَ إدامةَ النعاج، ولا تَلْقَمِ لَقَمَ الجمال، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله ليُبغضُ أهل البيت اللحمين، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنحرف فيها الإبل وتمذج البقر والشاة ويبيع لحانها وإنما ناهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدرهم عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرة: اسم مصدر من أثر بؤثر إثثاراً، أى عَوْدُ نَفْسِكَ أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتمواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع الفم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخنقة الجافيا الغليظ الأعضاء

اللَّهُ قَدْ فَضَّلَكَ ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وأحذر
سرعة الكظة ^(١) ، وسرف البطنة ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطينا
فعد نفسك في الزمى ^(٢) . وقال الأعشى :

• والبطنة مما تُسفه الأحلاما ^(٣) •

واعلم أن الشبغ داعية البشم ^(٤) ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم
داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة ثيمة . وهو قاتل نفسه ،
وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ^(٥) أي بُنى ، إن القاتل والمقتول في النار ^(٦)
ولو سألت حذائق الأطباء لاخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالشحم
وآعرف خطأ من قال : أكلة وموتة أوخذ بقول من قال : رب أكلة تمنع
أكلات ^(٧) . وقد قال الحسن البصرى - : يا ابن آدم كل في ثلك بطنك ، واشرب في
ثلك بطنك ، ودع الثلك للتفكر والتنفس . وقال بكر بن عبد الله المزني ^(٨) :
ما وجدت طعام العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ^(٩) ، وحتى لم ألبس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمى : ذؤو العاهات الذين يدوم
مرضهم زمناً طويلاً (٣) الاحلام : العقول وتسفه الاحلام : تطيشها والبيت :

يا بنى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الاحلاما
(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه
بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أي لما ينشأ عنها من الامراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً
عمياً قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وقتاها بكر ...
مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيابي ما يستخدمني^(١)، وحتى لم آكل إلا ما لا أغسل يدي منه ! يا بُنَيَّ ، والله ما أدي حقَّ الرُّكوع ، ولا وظيفة السجود ، ذر كِظَّة ، ولا خَشَعَ لله ذو بطنه^(٢) ، والصوم مَصْحَةٌ^(٣) ، والوَجَبَاتُ عيش الصالحين^(٤) ، ثم قال : لا مِرِّ مَا^(٥) ، طالت أعمارُ الهند^(٦) ، وَحَمَّتْ أبدانُ الأعراب . لله دَرُ الحارث بن كَلْدَةَ^(٧) ، حين زعم أن الدواء هو الأزم^(٨) ، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام ! أي بُنَيَّ لِمَ صَفَّتْ أذهان العرب؟ ولم صدقتْ أحساسُ الأعراب^(٩) ولم صَحَّتْ أبدانُ الرُّهبان ، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تعرّف الثَّقْرِيسَ ، ولا وجمع المفاصل ، ولا الأورام ؛ إلا لقلة الرُّزءِ^(١٠) من الطعام ، وخِيفَةَ الرِّادِ ، والتبُّلُغَ باليسير^(١١)

أي بُنَيَّ ، إن نسيم الدنيا وروح الحياة^(١٢) أفضل من أن تديت كظيظا ،

- (١) يستخدمني : أي يجعاني خادما له أي بالمحافظة عليه ، لانه ثمين
(٢) يقول : إن الممتلي طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود ، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها
(٣) مصحّة : يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم واليلة
(٥) لا مِرِّ ما : أي لا مِرِّ عظيم (٦) أي أعمار أهاها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام
(٨) أزم ، من باب ضرب : أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحرث بن كلدّة عن الطب ، فقال : هو الأزم ، يعني : الحمية
(٩) الاحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا : ما يصبه الإنسان من طعام (١١) التبُّلُغ باليسير : الاكتفاء به (١٢) روح الحياة : راحتها وما يستروح إليه

وأن تكون لِقَصْرِ العُمر حايِفاً . وكيف لا ترغب في تدبيرٍ يجمعُ لكِ صحَّةَ
البدن ، وذكاءَ الذَّهن ، وصلاحَ المعى ، وكثرةَ المال ، والقربَ من عيش
الملائكة^(١) ؟ أى بنى ، لم صار الضُّبُّ أطولَ شيءٍ عُمرًا ؛ إلا لأنه إنما يعيش
بالنَّسيم^(٢) ؟ ولم قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصومِ وِجاءٌ^(٣) ، إلا ليُجعل
الجوعَ حِجَازاً دونَ الشهوات . أى بنى . قد بلغتُ تسعينَ عاماً مانعُصَ لى^(٤)
سِنٌ ، ولا تحركَ لى عَظْمٌ^(٥) ، ولا انتَشَرَ بى عَصَبٌ^(٦) ، ولا عرَفْتُ ذنين
أنفٍ^(٧) ، ولا سِيلانَ عينٍ^(٨) ، ولا سَلَسَ بولٍ^(٩) ، ما ذلكِ عِلةٌ إلا التَّخفيفُ
من الزَّاد . فإن كنتِ تُحِبُّ الحِياةَ فهذه سبيلُ الحِياةِ ، وإن كنتِ تُحِبُّ
الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامى الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يَقْرُوه ، حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

(١) إذم : لا يأكرون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا
يأكل ألبسة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وِجاء : مانع
من الشهوات

(٤) فغص : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك
الالتواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإلتعاب
(٧) الذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنين أذن والذنين صوت
الذباب ونحوه من هينة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن
من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل
أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بَيْعُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَائِي وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشِ الذَّنَابِيِّ وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنَبِ
 «قوله: بيعوا الموالى واستحيوا من العرب، قال المبرد: تزعم الرواة: أن

جِلَّةُ الْمَوَالِي - عُظَمَاءُهُمْ - أَتَفَوْا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ حَطَّهْمُ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مَحْسُوبَةٍ عَيْبًا... وَقَوْلُهُ: وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي، يَقُولُ:
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ، وَقَوْلُهُ: هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ، فَالْإِشَابَةُ الْجَمَاعَةُ تَدْخُلُ
 فِي قَوْمٍ وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطْلُقُ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ أَتِنَاسٍ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ
 أَوْبٍ، مَا خُوِذَ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ. خَلَطَهُ، وَأَمَّا الزَعَانِفُ فَأَصْلُهَا
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ النَّصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا النَّصَقَتْ تِلْكَ
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ،

عقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلّ شأنه في مدح قوم: وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا... وقال سيدنا رسول الله: أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحْرُومًا، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زَرْعِهِ وَمَالِهِ (١) ...

(١) قال الإمام العلقمي: قال شيخنا: هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة، وقد نسخ وجوبها. أقول: وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 النجيزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا: الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفْرَةُ: السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه: ليس
 منا من بات شبعاً وَضَيْفُهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه: هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب، فتخفف هو
 وغلبلانه عند نزوله وعاونوه في حلولة، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنه
 غلبلانه، فشكاهم فقال: إن غلبلانا لا يعينون على الارتحال... وقالوا: أمدح
 بيت قاله العرب قول حسان بن ثابت:

يُعْشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول: قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقله أكرامهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم، ومثل هذا قول أبي تمام:

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَائِهِمْ لَأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لَأَيِّ مَكَانٍ
 أَوْ تَقُولُ: لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ، أَيْ أَنَّهُمْ فِي سَعَةِ لَأَيُّوهُمْ الْجَمْعُ
 الْكَثِيرُ، لِسَعَتِهِمْ وَسَخَائِهِمْ»

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف:
 يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجراد بالطعام:
 أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخِصُّ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وَمَا الْخِصْبُ الْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى
 وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خِصْبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
 أهل اليمامة للضيف: كيف صَبَطْتُمْ الْقَرَى؟ قال: بأن لا تتكفَمَ ماليس
 عندنا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
 الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ^(١) وقال
 تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِنْهَاءُهُ... «أى غير منتظرين نُضَجِهِ وإدراكه
 وبلوغه، يقال: أنى يأنى: إذا نضج»

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
 فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هذا فِعْلُ
 الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ، وإذا وَجَدَ طعاماً آثر به غيره...
 وقالوا في وصف الرجل الكريم يُسوء خلقه مع أهله خوف التقصير:
 والقائل زنبب بنت الطَّيْزِيَّة تَرثي أخاها يزيد:

إذا نَزَلَ الأضيافُ كانَ عَدْوَرًا على الأهلِ حتى تَسْتَقِلَّ مَراجِلُهُ
 يُعِينُكَ مَظْلومًا وَيُنْجِيكَ ظالمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
 «العَدْوَرُ: السبيُّ الحاقُّ القليلِ الصبرِ فيما يريدُه ويَهْمُ به، وإنما جعلته
 عَدْوَرًا لشدَّةِ تَهْمِهِ بأمر الأضيافِ وحرصِه على تعجيلِ قِراهِمِ حتى تستقل
 المَراجِلُ على الأثافي^(٢)، والمَراجِلُ: القَدورُ واحداها مِرْجَلٌ. وقوله:
 وينجيك ظالما، أى إن ظلمتَ فَطُولِبْتَ بِظُلْمِكَ حَمَكٌ وَمَنَعٌ مِنْكَ،

(١) حذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتضجها نهى حنيد

(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي: القطعة

من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: أى بالشركه

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يَمْشِيَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعْطون التُّدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمال ^(١) فقد رَوَى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وَلِيْمَةٍ فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ محادثة الضيف على الطعام فربقن ، فبرقن يَسْتَجِيبُهُ وَيَسْتَحْسِنُهُ ،
وَمِنْ صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في
لَذَّةِ الطعام . وقال شاعرهم :

وأكثر ما أَلَذُّ به وألهُو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : مَنْ
أكثر الكلام على طعامه غَشَّ بطنه وَثَقُلَ على إخوانه . وقال الجاحظ في
كتابه « التاج » : وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ ملوك آلِ ساسانَ - إذا قُدِّمَتْ مَوَائِدُهُمْ -
زَمَزَمُوا عليها ^(٢) ، فلم يَنْطِقْ ناطِقٌ بِحَرْفٍ حتى تُرْفَعِ ، فإن اضطروا إلى كلام ،
كان مكانه إشارة أو إيماء يدلُّ على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي
قصدوا . . . وكانوا يقولون إنَّ هذه الأَطْعَمَةُ بها حياة هذا العالم ، فينبغي
للإنسان أن يَجْعَلَ ذِهْنَهُ في مَطْعَمِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَهُ وَجِوَارِحَهُ فِيهِ ، حتى
تَأْخُذَ كُلُّ جَارِحَةٍ بِقِسْطِهَا من الطعام ، فيغتذى بها البدنُ وَالرُّوحُ الحيوانيةُ
التي في القلب والطبيعةُ التي في الكبد ، اغتذاءً تاماً ، وتقبيله الطبيعة قبولاً
جامعاً . قال الجاحظ : وفي تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم ^(٣) . . .

(١) التُّدْلُ : خدم الضيافة : ويقال : رضخ له من ماله رخصة : أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة : تراطن الملوج على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم : قانوتهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيمورث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يودى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائماً أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرثى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرجة لسوء الهضم ... وإني بحمد الله لعلّى هذا المذهب مذنباً ، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام ، حتى عدت ذلك أهلى ومن يخاطونى مغمزاً فى يشف عما وراءه ، مما يشبه التهم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلقتى أنى أعدت الكلام على الطعام ضرباً من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيصة يجمل أن لا يحتفل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : وددت لو أنى خلقت مضمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لا جوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ يُبْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُنْتَعِ
أَحَدُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

« الغزال المنتع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحمدته ويقرّ به بهذا

الحديث حتى ينام ،

وكانوا لكرهمهم يُفَضُّونَ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الْأَكْلِ وَيَسْتَقْبِحُونَ التَّفَرُّدَ :

شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تفرقون

على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...

وفي الحديث أيضا : « أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب

عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ ، « الرد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرِي :

إِذَا مَا ضَعَّتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيَلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيبًا فَإِنِّي أَخَافُ دَمَامَاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي

وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارَهُ خَفِيفُ الْمَعْنَى بَادِي الْخِصَاصَةِ وَالْجَهْدِ

وَاللَّمُوتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَإِخْلِ يُبَلِّغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تَلَكَّ مِنْ شِبْمَةِ الْعَبْدِ

وقوله قصيا كريما أو قريبا فإني : قال المبرد : هذا من طريق المعاني وذلك أنه لم يحتاج

إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما

لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

❖ أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي ❖

وروا أن قيسا لما قال فالتسي له أكيبلا : أرسلت زوجته جارية فأته بأكيل وقالت :

أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيبل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَأَنَّ أَكْفَ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطَا لَمْ يُنْفَرُهُ عَنِ الْمَاءِ صَارُخٌ ^(١)
 وكانت العرب تعدّ التفرد بالأكل احتقَابَ وَزْرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣) ...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتَضِرَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمَنْقَرِيُّ ^(٤) سَيدَ أَدِلِّ الْوَبَرِّ ، قَالَ

(١) الجففات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه .
 أى جمعه في حتمية ، والحتمية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحزجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الغذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمداين - :

وما كانَ قَيْسٌ هُلْكَهُ هُلْكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا
 وعبدة هذا هو صاحب الآيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أي
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يَا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدٌ أَتَّصِحُّ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارَكُمْ ، فَيَحْقَرَنَّ النَّاسُ كِبَارَكُمْ وَتَهُونُوا
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ وَيُسْتَفْتَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... وَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ : فَالسَّيِّدُ هُنَا
 الرَّئِيسُ أَيْ أَسْنَدُوا رِيَاسَتَكُمْ إِلَى كِبَارِكُمْ ، وَمَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ : أَيْ مُشْعِرٌ بِقَدْرِهِ
 وَمُعَلِّلٌ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَجْرُ بَقْصَرِ الْمَهْمَزَةِ : أَيْ أَدْنَى
 وَأَرْذَلُ ، وَإِذَا مُدِّ فَمَعْنَاهُ : أَنْ السُّؤَالَ آخِرُ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّ قَيْسًا مَنِ اسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ نُخُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «السُّكُودُوحُ : الْخَدُوشُ ، وَكُلُّ أَثَرٍ مِنْ خَدَشٍ
 أَوْ نَضْرٍ فَهُوَ كَدْحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدُكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مُتَأَبِّطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ؟ فَقَالَ : يَا بَنُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِيَ اللَّهُ لِي الْبُهْلَلِ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانُ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَحْمَضُ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلًّا أُخْبِيَّةً وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابَخُهُ مَاغِيرَ الْعَلَى مِنْهُ فَهَوَ مَا كَوُلُ
 نُمَّتْ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

• يعني بالمرارجيل : المراجل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّنس، ومن جمّهما فقد استكمل الفضل ٠٠٠ وقال شاعرٌ:
 لا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَيْلَىٰ وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالَ الرَّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارهَ تفادياً من السؤال : روى الأصمعي قال : مررت
 بكنّاس بالبصرة يَكْنُسُ كنيفاً وَيُغْتَى :

أضاعوني وأىّ قتيّ أضاعوا ليوم كريبه وسداد ثغري^(١)
 فقلت له : أما سداد الكنيف فأنت ملىء به^(٢)، فلا علم لي بك كيف
 أنت فيه او كنت حديث السن فأردت العبث به - فأعرض عني ملياً ثم أقبل
 عليّ وأنشد مُتمثلاً :

وأكرم نفسي إنى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أخذ بعدي
 قال الأصمعي : فقلت له : والله، ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتهم له،
 فبأى شيء أكرمتها؟ فقال: بلى، والله، إن من الهوان لشرّ مما أنا فيه، فقلت : وما هو؟
 فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس، فانصرفتُ عنه أخزى الناس ٠٠٠ ومثله
 ما روى أن أبا عمرو بن العلاء قال : اجتزت بكنّاس يُنشد :

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها هو أنا لها كانت على الناس أهونا
 فقلت : سبحان الله، أتُنشدُ مثل هذا وتتعاطى مثل هذا الفعل؟ فقال :
 إن إنشادي لمثله أصرّني إلى هذا، فرارا من ذلّ السؤال ...



(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملىء به : مضطجع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائلَ الْمَلْحِيفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أُرْطِيَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتَهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمَلْحِيفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصةٍ مُلْحِحٍ مُكْثِرٍ للسؤال : دَخَ هَذَا الضَّرْعُ
يَدِرُّ لغيرك كما دَرَلَك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّةِ النفس فإن يَسِدَ اللهُ
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إليه بهوان :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا مِ تَكُنُّ بِهَوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهَوَانُ قَرِينَهَا فُبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقُضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَدُّ شَهْدًا بِعَلَقَمِ أَبَتْ لَهَوَاتِي ذَاكَ وَالشَّفْتَانِ
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يُصَوِّنِي وَإِلَّا فِلي رِزْقِ بَكلِ مَكَانِ

* * *

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُون أَنفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أعتذر من العي فيهما : إذا سألتُ
حاجةً لنفسِي ، وإذا كَلَّمْتُ جاهِلا ... وسار الفضلُ بن الرِّبِيعِ - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتِهِ يسأله حاجة ، فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ ، فقال له أبو عباد : بهذا
اللِّسَانِ خَدَمْتَ خَلِيفَتَيْنِ ! فقال الفضل : إِنَّا تَوَدَّنا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نَسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيَّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ، وَتَلَجَّجَ فِي كَلَامِهِ ، فقال :
لَا تَلْنِي عَلَى الْإِخْتِلَاطِ ، فَإِنْ مَعِيَ ذُلُّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْأَسْتِغْنَاءِ ...

* * *

عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسن رأينا أن ننيل بها، إتماما لهذا الباب، فمن ذلك حثهم على سؤال الشبان دون الشيوخ، والصباح دون القباح، والكريم الفقير دون الغني اللثيم. وهذا لعمري من حذق الأوائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طلب الحوائج عند الشبان أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربي، وقال يوسف عليه السلام: لا تريب عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه^(١)... وسئل ابن عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يحسن بالمرء أن يطلبها منها... وقال البحترى:

مَنْ حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا يَأُ وَأَعْطَاهُ كُفَّ الكُفَمَا

وقال السري الرفاء:

صَرَفْتُ عَنِ الكَثِيرِ الوَفْرِ طَرَفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَادَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفير: المال الكثير (٣) النطفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوها، وأجاج: ملح ممر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مِنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة : لا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى كذاب ، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدٌ ، وَيُبَعِّدُهَا وهي قريبٌ ^(١) ، ولا إلى أحقِّ فإنه يُريدُ أن يَنْفَعَكَ فَيُضْرِبُكَ ولا إلى رجلٍ له عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَةَ حَاجَةٌ ، فإنه لا يُؤَثِّرُكَ على نَفْسِهِ وقال شاعر :

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِدِ

يَاخَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنِ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء : عليك بذى الحَصْرِ الْبَيْكِيِّ ^(٢) ، وبذى الْحَيْمِ الرِّضِيِّ ^(٣)

فإن مثقالا من شدة الحياء والعِي ، أَنْفَعُ في الْحَاجَةِ مِنْ قَطَارٍ مِنْ لِسَانِ سَلِيلِ وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ ، وعليك بالشَّهْمِ النَّدْبِ ^(٤) الذي إن عجز أيا سَك ، وإن عجز أطمعك ... وقال الفاروق رضى الله عنه : لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إلا بالْحَيْمِ يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ ... وقال ابن عباس : لا تَسْأَلُنْ حَاجَةً بِاللَّيْلِ ، ولا تَسْأَلُنْ أَعْمَى ، فإن الحياء في العينين .

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه : قالوا : من سأل

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر : ضرب من العِي ، والبكي : القليل الكلام

(٣) الحيم : الخلق والطبيعة والسجية والأصل ، قال :

وَمَنْ يَبْدَعُ مَا لَيْسَ مِنْ حَيْمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى نَفْسِ حَيْمِهَا

(٤) الشهم : الذكي الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ في الأمور ، والندب : الخفيف

في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الردّ ، ومن لم يرج إلا ما هو مستحق له ، فإلى الردّ ... وقال الشاعر :

إنك إن كلفتنى مالم أطق ساءك ما سرك منى من خلُق

وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للمتكرّم المفضال

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أحمد منه أمرا : سل حاجتك فقال : يبيحك الله يا أمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛ فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستقصر عمرك ولا أرهب بخلك ولا أعتن مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطائك لشرف ، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه درأ ... وقال العتّابي : إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان ، فأجل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح عليه ، فإن إلحاحك يكلم عريضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضا لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ بالطالب .

ومن قولهم في الحث على الحذق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر : لو أنا مت ما كنت تفعل ؟ قال : كنت أكفّك وأدفّك ، قال : فاكسني الساعة بما تكفّني به ، وإذا مت فادفّني عريانا ... وقال شاعر :

أحلب لبونك إبساساً وتمريةً لا يقطع الدرّ إلا عنف محتلبه

• اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يسمح بضرع الناقة يسكنها الدرّ ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن ، ... رسأل أعرابي عبد الملك بن مروان -

وكان بخيلاً وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال : سألتُه فأحالي عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاية ، وكان صديقَه ، فتشاغل عنه ، فترأى له يوماً ، فقال : أعذرنى فإنى مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ما أتيتك ، لا بلغتني الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ مَاعِذَارًا لِمَطَالِكَ

إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَقْرَعَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ

لَوْ تَقَرَّرْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتُونَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جرذان داري ^(١) يمشين بالعصا هزاً ، فقال : بشرهن بمجيء الحنطة ... وقسم بعضهم مالا بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطني أولاً ، فقال له : ولمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لثيمين . وقال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريماً بقضائها ، وكنت أنا كريماً بسؤالك إياها لأنى وضعت طليتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لثيماً بمنعك ، وكنت أنا لثيماً بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب - أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيشَ إِنَّكَ لِلثِّيمِ وَإِنِّي مُدْصِرَتَ مَوْضِعِ مَطْلَبِي لِلثِّيمِ

ومن مآح المكدين ووصاياهم : قيل لرجل مكيد : متى تعلت الكدية والسؤال ؟ قال : يوم ولدت ، منعت الثدي فصحت ، وبكيت فأعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَضَعَ مِنْكَ سِوَالُكَ؟ فقال: لقد
سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية، فأبوا أن يُضيفوهما، فوالله
ما وضع هذا من نبي الله وعالمه، فكيف يضع مني! وقال بعض المُكِدِّينَ:
مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عَبْرَ... وقال آخر: كَلَّبَ طَائِفَ، خَيْرٌ
من أَسَدٍ رَابِضٍ، وقالوا: الهية خيبة، وقال سَلْمُ الخاسر:
من رَأَى النَّاسَ ماتَ غَمًّا وفاز بِاللَّذَّةِ الجَسورُ
وقال أَشْجَعُ السُّلبي:

ليس للحاجات إلا مَنْ له وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وَحُذْفُمْ بِالرُّقَى إِنَّ المَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحِدَاءِ

وقال ابن الرومي:

وإنَّ الأُمَّ لم تُرَضِّعْ صَبِيًّا معَ الإِشْفَاقِ لو سَكَتَ الغُلامُ

ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا
سألتونا حاجةً فعادونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال
عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يَمْنَعُنْ رَجُلًا سألَ اليوم شيئاً فَمَنَعْتُهُ،
أن يسأل غداً؛ فإنَّ الأمورَ بيدَ الله لا يدي. وقال شاعرٌ:

لا يُؤَيِّسُكَ مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَلْبُو الفَتَى وَهَوَ الجَوَادُ الخِضْرِمُ^(١)
فإذا تَبَا فَاسْتَبِقِهِ وتأنَّهُ حَتَّى يَجِيءَ بِهَا الطَّبَاعُ الأَكْرَمُ^(٢)

(١) النبوة: الجهوة والتباعد ويقال: نباعته بصره ينبر: تجافى ولم ينظر إليه كأنه
حقره. والخضرم بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الحمرل
(٢) يقال: تأنبتك حتى لا أناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظر بي، والطباع كالغرار
واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا: إذا سألتَ كَرِيماً حاجةً فدعه وسَوِّمَ نفسه^(١) فإنه لا يُفَكِّرُ إلا في خيرٍ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقضه^(٢) ولا تدعه يتفكر فيمتعير، وقال بعضهم في ضد ذلك: إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجله حتى يروض نفسه... «أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة»

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه: قال أبو تمام:

حُذِّدْ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثِيْمِ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَلَا تُسَدُّ تَفْتَرِسُ الْكِلَابِ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المتنبي:

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبْلْتُ بِرِّكَ بِي وَالْجَوْعُ يُرِضِي الْأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ
وقال المهلبى الوزير:

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلْبِمْ مَيِّتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ

ولأبى على البصير:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَّى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا أَشْعَرَتْ وَعَصَوَحَ نَبْتُهَا رُعَى الْمَشِيمُ

واقشعرت: قال الأزهرى: يقال: اقشعرت الأرض من المَحَل - الجذب -

وفي الحديث: إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت: أى

تقبضت وتجمعت، وصَوَّحَ نَبْتُهَا: يبس.

ومن قولهم في التعريض بالسؤال: قال أمية بن أبى الصلت:

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الاصل - (١) أى وما يريد ويتجه اليه

(٢) فعاقضه: فاسلك معه مسلكاً ملتويّاً بعزّة

إذا أثنى عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيفُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المتنبي :

أَقْلُ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فُلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَاَنَّهُ مَلْزُومُ

المسئول تُجَاهَ السائل

قال شريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكا. ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : لاني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرقاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره الى الجدار وقال : أما لو أن خصمى كان مسلماً لجلست بجانبه ... وتزوج شرح امرأة من بني تميم تسمى زنبق هتقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرّاً ، وهما ذليلان ، هذا بِذِلِّ اللّوْمِ
وهذا بِذِلِّ السُّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماء كَمَفِّكَ - إن جادت وإن بَحَلَّتْ من ماءٍ وَجْهِي إذا أَفْنَيْتُهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالأموال ولا يشتري الأحرارَ بالوَالِ ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : مال الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يا أَبْتَ ، هذا هو الكَدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ من سَأَلَكَ ومن لم يَسَأَلْكَ ...
وقالوا : أهدأُ المعروفُ أعَجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نِعْمَةً فَعَجَّلْهَا ،
فإن النفسَ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ العاجِلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عَمَّا في نفوسنا فقال :
كَلَّا ، بل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ ... ولزِمَ بعضُ الحُكَمَاءِ بابَ بعضِ ملوكِ العجمِ دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتَطَافَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقْعَةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر
السطر الأول : « الأمل والضرورة أقدمان عليك »

والسطر الثاني : « العُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المَطالِبَةِ »

والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شِمْاتَةٌ للأعداءِ ، »

والسطر الرابع : « فإِذَا تَعَمَّ مُشْمِرَةٌ ، وإِذَا لا مُرِيحَةٌ ، »

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ : زِهْ ؛ فَأُعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةٍ -

زِهْ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفت عَجُوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَسَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا

أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَنْتَ بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مَنِّي ضَرْبٌ مَن لَيْسَ مُذْنِبَا

فزينبُ شمسُ والنساءُ كواكبُ إذا طَلَعَتْ لم تُبْقِ مَنهنَّ كوكبا

توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجرذان ، قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ أمننوا بيدها خبزاً ولحماً
وسمناً وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن تولىني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق النضاء نذاك عني فليست أراك في منعي مليماً^(١)

وما عيئت إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعتد ثيماً

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تمطنا فأنت أهل لذلك ، وإن لم تمطنا فلسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يبطوا منها إذ هم يسخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصرين وابن عظيم القرين^(٣) فقال : صدقت ، واستقرض ما لا من
التجار فقرق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حارَدت شولُ عذرتُ لِقاحها

ولكن حُرمتُ اندرَّ والضرع حافل^(٤)

(١) مليماً : فاعلاً ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والوقوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حارَدت الافة : قل لبنا ، والشول جمع شائلة والشائلة من الإبل التي أتى عليها

من حملها أو وضعها سبعة أشهر نجف لبنا ، واللحاق : جمع نفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ ما بَدَأَكَ ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :

ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أمِنِ إسرائيلِكَ أتعَجَّب أم من حَظِّكَ ، فقال :

إني سألتُكَ على قدرِكَ ، فلما أبيتَ سَأَلْتُ على قدرِي ، فقال : إذن والله لا تَعْلِبَنِي

على معروفٍ ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتُكَ في حُويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...

وقال آخر مثل هذا فقال : دَعَاهَا حتى تكبَّر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس

رضي الله عنه : أتيتُكَ في حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يَصْغُرُ عن

كبير أخيه ولا يكبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والأناة في طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسَدَتْ مَسالِكُها فالصبرُ يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارْتَبَجَا (١)

أخلاقُ بذي الصبرِ أن يَحْظِيَ بحاجته ومُدْمِنِ القَرعِ الأبوابِ أن يَلْجَا

لأنَّ تَأَيُّسَ وإن طالَتْ مُطالِبَةُ وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل ما ارتجج : كل ما اغلق

ولا يُدْرِك الحاجاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْمَصْبِحُونَ عَلَى رِجْلِ (١)
 تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا
 أَصْدَتْ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى بُخْلِ
 وَقَالَ الْقَطَامِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ
 وَالْعَرَبُ تَقُولُ : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يَرِيدُونَ أَنْ الرَّجُلَ قَدْ يَخْرُقُ
 وَيَحْمَقُ فَيَعَجَلُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرَ أَوْ تَبَطَّلَ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ
 وَقَالَ : * يُرَجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ *
 الْمَسْئُولُ أَهْلٌ لِأَنَّ يُسْأَلَ

قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْفُحْلِ مِنَ قَصِيدَةٍ يَخَاطَبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ
 الْعَسَانِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْسًا فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :
 وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوُبُ (٢)
 وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ - :

أَتَيْتُكَ لَمْ أَطْمَعْ إِلَى غَيْرِ طَمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْرَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْرَعٍ (٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون القيام
 (٢) خطبه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :
 الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :

سحابٌ حَطَّانِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَانِي قَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(١)

وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا

وَمَوْضِعٌ رَحِيلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ^(٢)

أَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى

وَمَا إِنَّ يَذُمُّ الْغَيْثَ إِلَّا مُدْمَمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارِ سَائِلَا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال

له : قَبِحَ اللهُ هَذَا النِّعْمَ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمِ

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَّادٌ فَهَلْ أَتَمُّ قَوَّادُونَ ؟

☆☆☆

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرُّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى» ...

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : نِعْمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ

سفيان الثوري يقول : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَأَهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ :

مَنْ يَحْتَطِبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... «يريدون من طلب حاجة مهمة بذل

فيها» وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هائل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما من صديق وإن تمت صدائته

يوماً بأجمع في الحاجات من طبّي

إذا تقنّع بالمندبيل منطلقاً لم يخش نبوة بواب ولا غلق

لا تكذبن فإن الناس مذخلقوا لرغبة يكرمون الناس أرفق

«نبوة: جفوة، وفرق: خوف» وقال رؤبة بن العجاج:

لما رأيت الشفعاء بلدوا وسألوا أميرهم فأنكدوا

نامستهم برشوة فأفردوا وسهل الله بها ما شددوا

«بلدوا: يقال: بلد الرجل: إذا لم يتجه لشيء، وبلد: إذا تكس في

العمل وضعف حتى في الجرى. وقوله: فأنكدوا: أي وجدوه غيراً

مقللاً إذ لم يجدوا عنده إلا نزرأ قليلاً، وقوله: نامستهم برشوة: يقول:

أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويحتالوا بذلك، قال في اللسان: نامس

الرجل صاحبه: ساره، ومنه الناموس، وهو صاحب سر الرجل - ويقال له

اليوم السكر تير الخاص - وقوله: فأفردوا: أي خصصوا، وفي الحديث: إياكم

والإفراد، قالوا: يارسول الله، وما الإفراد؟ قال: الرجل يكون منكم أميراً

أو عاملاً فيأتيه المسكين والأرملة فيقول لهم: مكانكم، ويأتيه الشريف

والغني فيدنيه ويقول: عجلوا قضاء حاجته ويترك الآخرون مقمردين

«أي ساكتين ذلاً»

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوماً، فرّق له

برجل منهم فضمة إليه وأجرى له رزقاً أياماً ثم قطع عنه - فقال الأعرابي:

تَسْرَى فَلِمَا حَاسِبَ الْمَرْءَ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرْوُ
 « تَسْرَى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
 أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبي أنس الليثى :-

لَيْتَ شِعْرَى عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
 لَا يُنْهَى بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْتَزَعَهُ
 لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرُّقًا خَلْبًا إِنْ خَيْرَ الْبَرِّقِ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لامطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لجاجة . يقال
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَلُجُّ وَيَلْجُ لَجَاجَةً وَلَجَجًا : إِذَا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرَفَ
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِيمَنْ اصْطَنَعَ مَعْرُوفًا ثُمَّ
 أَفْسَدَهُ بِالْمَنِّ أَوْ قَطَعَهُ حِينَ كَادَ يَيْتِمُ : شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدًا
 « رَمَدَ : أَلْقَى الشَّيْءَ فِي الرَّمَادِ »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُؤِدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
 وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
 وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْمِ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
 بِأَلْفِهِمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمَهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةَ بْنِ حِضْنِ الْفَزَارِيِّ ،
 وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
 مِرْدَاسِ أَبَا عَرَ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
 يِعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجَعَّ - لُ تَهِي وَنَهَبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ (١)
 وما كان حِصْنٌ ولا حَائِسٌ يفوقانِ مِرْدَاسٍ في بجمجم (٢)
 وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما ومنَ تَضَعُ اليومَ لا يُرْفَعُ
 وقد كنتُ في الحربِ ذا تَدْرَأٍ فلمَ أُعْطَ شَيْئاً ولمَ أُمْنَعُ (٣)
 إلا أفاثِلَ أُعْطِيَتْهَا عديدَ قوائمه الأربع (٤)
 فلما أنشدها بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، أقطع
 عني لسانه ، فقبض علي يده وخرج به فقال : أقطعُ أنتَ لسانِي يا أبا الحسن ؟
 فقال : إني لَمُضِّ فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
 ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابيُّ فقال في مسأله : لقد جُعتُ حتى أَكَلْتُ النّوَى المُحَرَّقَ ،
 ولقد مَشَيْتُ حتى انْتَعَلْتُ الدّمَ ، وحتى سقط من رِجْلي بَخْصُ لحمٍ ، وحتى تَمَنَّيْتُ
 أن وجهي حذاءٌ لِقَدَمي ، فهل من أخ يرَحْمُننا ! « البنخص : لحم يخالطه بياض
 من فساد يحلّ به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحِم
 الله امرءاً أعطى من سَعَةٍ وواتى من كفافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

(١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
 (٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، وانظر كتب النحاة .
 (٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ،
 أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
 أعط شيئاً إلخ أي لم أعط شيئاً طائلاً أو لم أعط شيئاً استحقه وهو المسأمة : ولم أمنع
 من الإعطاء لأنني أعطيت بعضاً

(٤) الأفاثل : جمع أفيل بالغماء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأة لم تمجج أذناه كلامي ، وقدّم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،
 فإن البلاد مجذبة والحال مُصعبة ^(١) والحياء زاجر يمنع من كلامكم ، والعُدْم
 عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأة أمرت بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً بمن
 لا تضرُّك جهالته ، ولا تفعلك معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من
 عز الانتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنِي الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَوْن

الثالث من ألوان البرِّ ، أعني حُسن الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : **وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .**

وقال : **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .** « خذ العفو :

فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : **اِحْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَأَقْبَلْ مَا سَهَّلَ**

مِنْهَا وَتيسرَ ، وَلَا تَسْتَقْصِرْ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، مع ما فيه من العداوة

والبغضاء قال سُريح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْصَبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصِّدْرِ والأذَى

إذا اجْتَمَعَا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَنْزَهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى: وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ: فالجاهل هنا ما قابل العقل والجاهلون: الحمقى الأشرار السيئوا الأخلاق، أمر الله نبيه بأن لا يماري الجاهلين ولا يُكافئهم بمثل أفعالهم «

وقال سيدنا رسول الله: إنكم إن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. ومن ذا قول حكيم وقد قيل له: هل من جُودٍ يُتناوَلُ به الخَلْقُ؟ فقال: نعم، أن تحسِّنَ الخُلُقَ وتنوي الخير لكل أحد... وقال صلوات الله عليه: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ! أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُؤَطَّوْنَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤَلَّفُونَ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ! الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ... « قوله: أحاسنكم أخلاقا يريد: الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف، وذلك أن العرب تقول في الوصف: رَجُلٌ حَسَنٌ ولم تقل رجلا أحسن، مع قولهم امرأة حسناء. ونظيره في عكسه: غلامٌ أَمْرُدٌ ولم يقولوا جارية مَرْدَاءَ. وقوله: الْمُؤَطَّوْنَ أَكْنَافًا: يريد دُمَانَةَ الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها صاحبه غير مُؤَذَى ولا نَابٍ به موضعه. وأصل التوطئة: التذليل والتهديد يقال: فِرَاشٌ وطىء إذا كان وَثِيرًا - أَيْ لِينًا - والثَرَثَارُونَ: الذين يُكْثِرُونَ الكلام تكلفًا وتجاوزًا وخروجًا عن الحق، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال: عينٌ ثَرَثَارَةٌ وَثَرَارَةٌ: إذا كانت كثيرة الماء... والمتفهيون: بسبيل من «الثَرَثَارُونَ»، وهو تأسيس له، واشتقاقه من قولهم: فَوَيْقُ الغدير يَفْهَقُ: إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد: يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد الصدق في المنطق والتصدد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجرير بن عبد الله البجلي : يا جرير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لين الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً لينا ، وقال : وقُلْ لهما قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهم قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنِيَ لِمَنْ لَبِسَ شَيْءٌ هَيْنُ الْمَفْرُشِ اللَّيْنُ وَالطُّعْمِ

وَ مَنْطِقُ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ ۝

« قولها هين : فالعرب تقول : رجلٌ هينٌ لينٌ وهينٌ لينٌ ، وفي الحديث : المؤمنون هينون لينون كالجل الأنف إن قُدَّتْه انقاد وإن أُنْحَتَتْه على صخرة استنابح » جل أنف : أى مانوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أو برة^(١) أو خزامة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنقاد ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يُديمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجلل الأنف : الدليل الموقاى الذى يأنف من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدخَل فى عظم أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانتقاده . والبرة : ما يوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر نحاس أبيض - أما الخزامة فهى من شعر

عتاب ، وما لَزِيهَ من حَقِّ صَبْرٍ عَلَيْهِ وَقَامَ بِهِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَمِيلٌ ، وَهُوَ أَلْيَقُ بِكَلَامِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، . وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُحَّاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : أَوْ مَا تَقْرُونَ الْقُرْآنَ : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وَقَالُوا : صَفَاءُ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفَاءِ الْأَعْرَاقِ . « الْأَعْرَاقُ جَمْعُ عِرْقٍ وَهُوَ الْأَصْلُ يُقَالُ رَجُلٌ مُعْرِقٌ فِي الْحَسْبِ وَالْكَرَمِ قَالَتْ قُتَيْبَةُ بِنْتُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ أَوْ أُخْتُهُ :

أُمِّحَمَّدُ وَوَلَانَتْ ضَنْءٌ نُجَيْبِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فُحْلٌ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللوم أيضا تقول : إن فلانا لمعرق فى الكرم ، ومعرق فى اللوم . والضناء : الولد والأصل والمعدن وقال البحرى :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّهَا مُسَلَّةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصبها وجوها وأشدّها حياءً ، إن حدّثوك لم يكذبوك ، وإن حدّثتهم بحقّ أو باطل لم يكذبوك : أبو بكر الصديق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان رضى الله عنهم ...

وفى الأثر أيضا : أن حُسنَ الخُلُقِ وحُسنَ الجِوارِ يُعَمِّرانِ الدِيَارَ وَيَزِيدانِ فِي الْأَعْمَارِ . وفى كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْسًا بَلَّغْتَهُ وَآتَسْتَهُ : كَفُّ الْأَذَى ، وَحَسَنَ الْخُلُقِ ، وَجُجَانَةَ الرَّيِّبِ ، وَالنَّبِيلُ فِي الْعَمَلِ ، وَحَسَنَ الْأَدَبِ

نَهَيْهِمْ عَنِ سُوءِ الْخُلُقِ

وقالوا : سوء الخلق ينسد العمل كما ينسد الصبر العسل « الصبر هو هذا الدواء المر ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ الْعَتَّابِيُّ :

وَكُنْتَ امْرَأً لَوْ شِئْتَ أَنْ تَبَأَغَ الْمَنَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ حَمِيلاً مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّامَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّهَةَ: كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ، خِيَاهُ
 أَبِي وَالطَّفَهُ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ: أَبْعَدَ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ! قَالَ: يَا بُنَيَّ، أَنَا رَسَعُ
 جُرْحِي ١. وقال ابن الحنفية: قد يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ...
 وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنَسْكَشِرُ فِي وَجْهِهِ قَوْمٍ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيمٍ (١)
 وَقَالُوا: لَا مُدَارَاةَ لِلخَلْقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتِ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُثْمَرَ إِلَّا مُرًّا، وَكَذَلِكَ الْكَلْبُ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْفَالْبَ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْرَاجِهِ.
 وَمَنْ طُرِفَهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلَ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ: لَقَدْ أُعْطِيتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ: وَلَوْ كُنْتَ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فُظٌّ وَنَحْنُ لَا نَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَطَبْتُ
 امْرَأَةً، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ: إِنْ بِي الْخُتَّاقُ؛ فَقَالَتْ: أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلِجُّكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُتَّاقِ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ بِي الْحَاقُ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعَكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذُرْعُكَ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخاق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك: تأتي الطباع على الناقل؛ و: العادة طبيعة ثانية، و:

ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَارِزًا

و: كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرُشَّحُ

(١) نكشر في وجوه قوم: أي فبسم في وجوههم وأصل الكشر: بدو الاسنان

يكون ذلك في الضحك وغيره؛ وتقليم: نبغضهم

و : * إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصبع العذواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَهُمَا يَكُنُّ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعَلِّمُ
وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَالِمٌ يُلْفَ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّخَةٍ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنَّ طَبِيعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدٌ

وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : مَا يَسُرُّنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُرْمُ النَّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَلِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا غَشِيَكَ فَشَخَّصْتَ لَهُ أَرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ

تَخَطَّأَكَ ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قَيْتُ امْرَأَةَ الْأَشَاكِلَةِ

خَامَمَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلِ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّأَ صَحَوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

« ماق يموق موقا وموقا وُوقا واستماق ، كل أولئك : سحق في

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال: فلان أحمق مائق: والعرب تقول: أنت تئق وأنا متق، أى أنت تمتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تئق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه: لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي:

كل الحلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الأخلاق والخلق

كانكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق

« الأترج والشترج: ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكباد،

والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة؛ ومن دقئق هذه اللغة الكريمة

أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل

في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر

يفتحون حاءه، قائلين: ما كان لازماً للشئ فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل

وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً يحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولم يكن

يشبه حمل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة

من جهة أخرى كسروا حاءه؛ والنور بفتح النون: الزهر، وفي الأثر:

ما أحسن الله سخاق أحد وخلقه فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال:

يقرى العين جمالا والأذن بيانا^(١)... وقال قتادة: ^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد: يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى: يفترق، من قولهم في الحسناء إنما

تفترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُلُق حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صُورَةُ حَسَنَةٍ تَدْبَعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ.
وقال جالينوس: يَنْبَغِي الرَّجُلُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ
حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَابَتَهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ،
وَإِنْ رَأَى صُورَةَ سَمِيحَةً تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ دَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الْوَجْهِ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَقَالَ: أَحْسَنْتَ، إِذْ قَرَنْتَ
بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
النفس فقال: بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذَلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:
سَلَبْتَ حَمَاسِينَ وَوَجْهَكَ فُضَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفِتَى فَمَا كُلُّ مُصْقُولِ الْحَدِيدِ يَمَانِ
و: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِيًا (١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ دَمِيمٌ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ أَلْسَكَنَ،
فَأَمَرَ بِإِسْقَاطِهِ وَقَالَ: إِنْ أَرُوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
كَانَتْ فَصَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب
واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
في معاني شتى ...

التقوى

وهالك اللون الأخير من ألوان البرِّ، ولقد أسمعناك فيما أسلفنا أن التقوى

(١) الألكه كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحيم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر فى جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذى بدء قولهم فى التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم فى التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى فى اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفى اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء فى كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه- ترك المعصية وترك الاعتراض بالطاعة، وهى التى تحصل بها الوقاية من النار والفوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شىء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخوها غَدَّتْهُ أُمُّهُ بِلَبَانِهَا^(١)

وقد عقده الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً فى كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسامٍ اشتقت من معانٍ شرطها الخوف، فإن خات من الخوف لم تُسمَ بهذه الأسماء... أقول: ومن أروع ما قيل فى الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء فى الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له

(١) لآبى الأسود الدؤلى فى نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذى يشرب من ناقة أو شاة أو غيرها من البهائم

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأبُهُ في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجل ما يقول عبد الله بن همام السُّلَوِيُّ^(١) في وصف هذا الصَّئِفِ من العلماء :

إِذَا نَقَبُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسِنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
وَذُوْنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَارِيقٌ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعْلُ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في النَّصَبِ : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع يرضع كضرب يضرب
في لغة قيس ، وكسمع يسمع في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لم فقال عبداه :

زِيَادَتُنَا نِعْمَانُ لَا تَحْمِرُنَنَا خِيفَ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فِيكَ قَدْ حُمِلَتْ مِنَّا أَمَانَةٌ بِمَا عَجَّزَتْ عَنْهُ الصَّلَاحَةُ الْبُزْلُ
وَإِنْ يَكُ بَابُ الشَّرِّ تُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زَلَّتْ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ حِمَاتُ النَّدَى وَاللَّكُ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ حُلُوُ الْأَسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بَالُهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَجْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أُمَّةً بِهُمْ تَقْوِيمُنَا وَهُمْ عُصْلُ

والصلاخه : الصلاب الممانعة وفي الحديث : عرضت الامانة على الجبال الصم الصلاخيم
وأصل الصلخيم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابه : أعصل .

بكسر الضاد وبفتحها؛ وأفارق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم
للبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدر
ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والشعل بضم الشاء وفتحها : خِلف زائد
صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لايدرُ من اللبن شيئاً ، يصفهُم بأنهم
أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ،
وإنما ذكر النعل للبالغة في الارتضاع ، والشعل لايدرُ ، وهي مبالغة حسنة في
معنى الاستفصال والتفاد ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن
كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى :
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون
أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛
وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... قال سفيان بن
عيينة : لولم يُنزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر ، أعذر :
بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره
وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،
ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحدائث، إذ يلقنونا إياه أوائل التعليم في المكاتب لا بدّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والنُبُوَّة والقرآن والإنجيل ^(٤) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة النامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيرا . وإنراطها التجرُّبة ^(٥) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات ^(٦) ، وعلى وجه لا ينبغي كالمخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلمية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجلٌ جربز : خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجربزة

والجربز والقربز معزبات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيرا في

معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتفرُّبُها : الخباوة التي هي : تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم... انتهى .

« وبعد » إن المُسْتَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أي إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذروة الكمال جُهدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات وَيُتْقِنُهَا : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والمرجل العاقل المُهْتَذَبُ المُوَفَّقُ : حكيم ، وللقاضي العادل في أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرَّب الذي حنَّكته التجارب ووثَّقته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سَدَادٌ : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يحدو على حدوها ، مما يتضمن مراعات وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتقان والتوثيق والإصابة والسداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخرف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمتنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحدو المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعارَه حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تتم الحكمة إلا بها ...



المتشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رُدَّ إلى المحكم عرف معناه الآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتنع له متنع للتمتة لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيء تسكن نفسه إليه وراجع اللسان مادة شبه ،

هذا، ويُعجبنى من الشعر فى باب الخوف من الله قول محمود النوراني (١):
 يَناظراً يَرَنو بِعيني رافِدٍ ومُشاهِداً للأمرِ غيرِ مُشاهِدٍ (٢)
 مَنِيَّتَ نَفْسِكَ ضَلَّةً وأَبْحَتَها طُرُقَ الرَّجاءِ وهنَّ غيرُ قِواصِدِ (٣)
 تَصِلُ الذُّنوبُ إلى الذُّنوبِ وترتجى دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابِدِ (٤)
 ونَسِيتُ أَنَّ اللهَ أخرجَ آدمَ منها إلى الدنيا بَذَنِبٍ واحدٍ

وقال الحسن البصرى: إن خوفك حتى تلتقى الأمن، خير من أمنك حتى تلتقى الخوف... وقال: يذنبى أن يكون الخوفُ أغلبَ على الرجاء، فإن الرجاء إذا غلب الخوفُ فَسَدَ القلب... وقال بعضهم: قلت لِسُفيان: بلغنى فى قول الله تعالى: (إِلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلب سليم) أنه الذى يلقى ربَّه وليس فيه أحد غيره، فبكى وقال: مسمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير... وقالوا: من خاف الله أخاف اللهُ منه كلَّ شيء، ومن لم يخفِ الله أخافه الله من كلِّ شيء... وقال الفضيل بن عياض: إني لَأَسْتَجِي من الله أن أقول تَوَكَّلْتُ على الله، ولو تَوَكَّلْتُ عليه حقَّ التوكل، ماخِفتُ ولا رجوتُ غيره.

د وأما بعد، فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم ما تَوَسَّوسَ به نفسه، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد (٥) ما يَأْفِظُ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد (٦)، وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بنى زهرة يكنى أبا حسن، شاعر كثير الشعر جيده، وجماعته فى الحكم والمواعظ والزهد؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات.

(٢) يرنو: ينظر (٣) غير قواصد، يريد: وهى حائرة غير مستقيمة

(٤) درك: اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد: عرق فى العنق (٦) عتيد: حاضر

يعلون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قَوَارِي الله في أرضه^(٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - سُهَوِدُ الله في أرضه - لأنهم يتَّبَعُ بعضهم أحوال بعض ، فإذا شَهِدوا لإنسان بخير أو بِشِرٍّ فقد أَوْجَبَ^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقْبَاءَ هُمْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يُزَوِّتُونَ عَلَيْهِ^(٥) ، وَيَجْعَلُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَيْهِمْ خَلِيقَةٌ لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، تَعْلَمُ
أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَرَاتِ
وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلَا سِوَا الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَبْدُو
فِيهِمْ هَذَا النُّورُ خَالِصًا غَيْرَ شَوْبِ بَرِّينٍ وَطَبَعِ غَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّعُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لِذَلِكَ سُهَوِدُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لنا بعة بنى شيان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بني أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقرون الناس ، أى يتبعونهم فيظرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قوارى الله فى الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شبهوا بالقوارى من الطائر وهى الخضر التى يتيمينون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملا يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زنا عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كتبت وعليها ما كتبت ، وكلُّ مَجْرِيٍّ بعمله ، إن خيراً بخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حنٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلن وحسنت سيرته ، رشداً وحسنت سيرته ، ومن عراه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجملته القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الأكثراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يطلقرن عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . فخرف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظنُّ ظان أن مخافة الله مخرها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فـكـيُّ يثاب ويجزى الجزاء الأوفى ، ومن أتلع فلكيُّ ينجو من عذاب النار ، وهذا كتمرى ، وإن عدَّ خوفاً ، بيد أنه أدنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشباه العامة . قال بعض الحكماء : إنى لأستحي من ربى أن أعبيده رجاء الجنة بأكون كالأجير ، أو خوف النار فأكون كعبيد السوء ، إن خاف عميل وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج منى حب ربى مالا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفية : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويُذكر فلا يُذمى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن لُحبه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : ومجئتُ إليك رب لترضى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال . اكان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأندس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فإله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن
يُحسِّن ظنه بربه ويرجو لديه رحمة التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وهيب:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظنِّ ما الله صانع
وسيمرُّ عليك تريباً طرُف من قولهم في الرجاء.

عقربياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقربياتهم في التقوى: قال الله سبحانه: «إن أكرمكم عند
الله أتقاكم»، قال الإمام البيضاوي في تفسيره: فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتزمه فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام:
«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أكرمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ...» أقول: هذا كلامٌ علويٌّ معرَّق له في الصدق والحق والجمال
والمثل الأعلى.

(١) الحسنى: تأنيث الاحسن يقال: الاسم الاحسن والاسماء الحسنى. والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦، ومرادنا بقولنا
«الله الاسماء الحسنى»: الصفات، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى... وقد جاء في القرآن الكريم: «الله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذنوب»
يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» سورة الاعراف،
(٢) للمعري، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى.

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

« وبعده » فلتناسبة ذكر التوكل وإقترانه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُنِيلَ به وبحقيقته إماماً . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلًا على الحقيقة إلا إذا تحقَّقا معاً . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأنَّ جميع الخلق فقراء كلُّ الفقر إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا يخفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛
وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرءُ وُكَلَّةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ،
وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو
قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا مَنْ لَا يُعَوَّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشطر الأول ، يقتضى الاعتقاد بالقدر خيرَه وشره ، والشطر الآخر
يقتضى السعى والاحتياط لأمره ، ولاننا فرَّ بينهما أَلْبَتَّةً ، وإنما هما ، لدى إنعام
النظر ، شيء واحد يُعَبَّرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أرسلُ نَاقِي وأتوكل ؛ فقال صلوات
الله عليه : بل أعقلها وتوكل ... ومراً الشَّعْبِيَّ يابِلَ قَدْفِشًا فِيهَا الْجَرْبُ ، فقال لصاحبها :
أَمَا تُدَاوِي إِبْلَكَ ؟ فقال : إن لنا مجوزاً نتكل على دعائها فقال : اجعل مع دعائها

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كرهه طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أ تَفِرُّ من قَدَرِ الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القَدَرِ ؟ فقال : لسنا بما هناك في شيء « تأمل » إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفَع ولا يَنْهَى عما لا يُضُرُّ « أَلَيْ بِالكِ » وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ ، وقال تعالى : خذوا حِذْرَكُمْ ... وفي كتاب كَلِيْلَة : لا يَمْنَعُ العاقلَ يَقِينُهُ بالقَدَرِ من تَوَقُّي الخَوْفِ ، بل ليجمع تصديقا بالقَدَرِ وأخذاً بالحَزْمِ ، وقال شاعر :

والمراء تَلْقَاهُ مِضْياعاً لِفُرْصَتِهِ حتى إذا فاتَ أمرٌ داتَبَ القَدَرَا
وقال آخر :

إذا عُيروا قالوا مَقاديرُ قَدَرَتْ وما العارُ إلا ما تَجَسَّرُ المَقادِرُ
وقال آخر :

وأوَّلُ عَجْزِ انْقِومِ عَمَّا يَنْوِبُهُمْ تَدَا فُعُهُمُ عَنْهُ وَطُولُ التَّوَاكُلِ
وقالوا في المثل : مِنَ العَجْزِ الإِحالَة على المَقاديرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري ^(١) تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقاد ما دلت عليه الآية : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به ترك التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضِدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لا أَعْمَلُ شيئاً حتى يَأْتينِي رِزْقِي ، فقال : هذا رجلٌ جَهِلٌ العِلْمِ « تأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُجْجِي ،

وقال: لو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بطاناً^(١)، فذكر أنها تغدو وروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخلهم، والقُدوة بهم... انتهى. «وبعد، فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُس من أُسس الأخلاق، إذ أنه يَكسِبُ صاحبه الجرأة والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يخشى في الحقّ لومة لائم، ويُنْفِي عنه الجبن والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجرى هذا المجرى؛ ويَكسِبُ صاحبه كذلك خُلُق الاعتماد على النفس وأن لا يتسكل بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.»

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا «مخرجا: مخلصا من مضائق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب، أي من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مرادولا يُعجزه مطلوب، وجعل لكل شيء قدرا: أي تقديرا وتوقيتا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل، ولا معنى للسخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أي تغدو بكرة وهي جياح وتروح عشاء وهي ممتلئة الاجواف.

آيةً لو أخذ الناس بها لكفّتهم: ومن يتق الله... الآية . وقال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . «حق تقاته أي حق تقواه، وهو است فراغ الوضع في القيام بما أمر الله به واجتباب ما نهى الله عنه، ومثله: فاتقوا الله ما استطعتم، يريد: باليقوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئاً، وعن عبد الله بن مسعود: هو أن يطاع فلا يعصى ويُشكر فلا يُكفر ويذكر فلا يُنسى، وقيل: هو أن تُنزّه الطاعات عن الالتفات إليها، وعن تَوْعع المجازاة عليها، وقيل: هو أن لا تأخذّه في الله لومة لائم وأن يقوم بالقسط - العدل - ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه، وقال سبحانه: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون «محسنون: أي في أعمالهم، من أحسن الشيء: أتقنه»... وقال بزرجهر: من قوی فليقو على طاعة الله، ومن ضُف فليضعف عن مصية الله... قال ابن المقفع: ليحرص البناء أن يزيدوا على هذه الكلمة - كلمة بزرجهر - حرفاً، «يريد: أنها كلمة جامعة، وقال عبد الملك بن مروان لنيه في مرضه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها أزين حلة وأحسن كهف، فقال مسلمة بن عبد الملك - وكان حاضراً - وأترّب إلى الصواب، وأنفع في الدآب: فقال عبد الملك: هاتان لا إلا وليان... والحلة: كل ثوب جديد، ولا يقال له حلة إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة والكهف: الملجأ، وأصله كالبيت المتقور في الجبل، وقال الخطيب:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنِ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الرَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآنَسِيِّ مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ : قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْنَعُ بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَّلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّنَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَد تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونُ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا

« قوله : أجدك قال سيديويه : هو مصدر كأنه قل . أجدًا منك ، ولكنه لا يستعمل إلا مضافا ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجد هذا منك ونصها بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بجنه تقول : أجدك لاتفعل كرا ، وأجدك لاتفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَيْثِي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَدَّ لَهُ وَيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

« الذنل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قال لبيد : ويأذن الله وتسهيله ريثي ، أي بطئي ، وعجل : أي سرعتي ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أي بقدرته التي هي كالألة في أفعاله تعالى ، كاليد في أفعالنا ، وثنية اليد للبالغه في التشبيه ، وما شاء فعل : أي ما أراه فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَنْظُنُّ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فُتُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْتِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشْقَى
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى الْآهْوَاتِ رَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللّهوات جمع لهاة وهى : لحمه حمراء فى الحنك معاقمة على عكدة اللسان ، وقال أبو المتاهية :

أَطْعِ اللَّهَ بِجُهِدِكَ عَامِداً أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطِ مَوْلَاكَ كَمَا تَطْلُبُ مِنْ طَاعَةِ عَيْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلى : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ... « قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتني قرضاً حسناً ، وفى الحديث : أقرض من عرضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عرضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره مؤمراً لك قرضاً فى ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

عما حَرَّمَ اللهُ وأداء ما افترض اللهُ، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم: أَوْصِنِي: فقال: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ يُحِبُّ فافْعَلْ، فقال: وهل يُسِيءُ المرءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّ؟ قال: نعم: نَفْسِكَ إِنْ عَصَيْتَ اللهُ.

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري: أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً: قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لِأَزْهَادٍ مَعَهُ، وَزَاهَدٌ لِأَعْلَمٍ مَعَهُ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُهْدِهِ، وَهَذَا يُتَّقَرُّ عَنْ عِلْمِهِ بِحِرْصِهِ. وقيل لأنوشروان: أى الناس أولاهم بالسعادة؟ فقال: أقلهم ذنوباً، قيل: ومن أقلهم ذنوباً؟ قال: أكملهم عقلاً ... وسيد الكلام في هذا المعنى قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؛ وقد تقدم آنفاً. وفي الأثر: يكون في آخر الزمان قراءٌ فسقَةٌ وَعُبَادٌ جَهْلَةٌ، وركعته من عالمٍ أفضلُ من سبعين ركعة من عابِدٍ لِأَعْلَمٍ مَعَهُ.

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه: إِنْ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لِأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ... «متين: أى شديد، من متن ستانة: اشتدَّ وقوى، قال تعالى: وَأُمَلِّ لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مُتِينٌ، وقوله: فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ: أى ادخل، وأصل الإيغال: الإمعانُ في السَّيرِ والإبعاد فيه يقول: يبرُ في الدين برفقٍ ولا تحمِل

على نفسك فنكفها مالا تطيق فتعجز وتترك الدمى ، والمنبت : الذى أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مطأطأً رأسه ، فقال له : ارفع
 رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظهِرِ النَّسْكِ
 مُتَمَامٍ (١) خَفَقَهُ بِالدَّرَّةِ وَقَالَ : لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كاد يموت تخافنا (٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أحد القراء ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سيد القراء ، فكان إذا
 قال أسمع ، وإذا شئ أسرع ، وإذا ضرب أوجع ... وقال صلى الله عليه وسلم :-
 إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرهبانية ، فمن رغب عن سنتي
 فليس مني ...

قلة اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يقسم الله بين الناس أقل من اليقين ... وقال ابن الرومى من
 همزيتة البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أبياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :
 مرحباً بالكفافِ يأتى هيناً وعلى المتعبدات ذيلُ العفاء (٣)
 ضلّة لا مربي يُشمرُ فى الجَمْعِ لعيشٍ مُشمرٍ للفناء (٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبدات :-

الأمور التى تعبد صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس واحياء الأثر

(٤) ضل من يكبد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزواج

دَائِباً يَكُونُ الْقَنَاظِيرَ لِلْوَا رِثِ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ (١)
حَبْنَذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكََا نَت لِرَبِّ السَّكُونِ كَمَنْزَ بَقَاءِ
إلى أن قال :

حَسْبُ ذِي إِرْبِيهِ وَرَأْيِي جَلِيَّ نَظَرْتُ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوَاءِ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِيحِ وَالْعِرُّ ضِ وَإِحْرَازُ مُسْكِهِ الْحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرٌ لِعَارَفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الشَّرَاءِ
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عِشَا قُ وَلَيْسُوا بِتَابِعِي الْأَهْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْثِرِ الْمُنْعَصِ عَيْشُ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهِنَاءِ
إلى أن قال :

طُفِلْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوَرٍ يَكُ فَاسَلْتَهَا لِكَفِّ الْقَحْطَاءِ (٤)
وَقِضَاءُ الْإِلَهِ أَحْوِطٌ لِلنَّاسِ سِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينُ أَخْضَى مَرِيضاً مَرَضاً بَاطِئاً شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا وَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُؤْ قِنُ إِلَّا وَفِيهِ شَوْبٌ أَمْتَرَاءِ (٦)
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَعِبَ الرَّأ غِبُ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرٌ بُلُوغٌ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عُيَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

- (١) دأباً من دأب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر : يحرز الأموال ، والقناظير : يعني من الذهب والفضة وما إليهما
(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلوا (٣) أي والحصول على ما يمسك الابدان من الغذاء والشراب ، والحوباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدابك أي التجات إليك فسلتها وتركتها للفضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده بقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تخير يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقرض الله درهماً بثمانمائة ، مع زعمك وقولك إن مُستقرضه ملىء وفى هكذا وردت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما محرقة وإما أنها معاطلة^(١) وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن ما يدل على قلة اليقين أنك لو خيرت بين ربح كثير أجل نسيئة عند الله ، بأن تُقرضه مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُف بالخطر ، لاخترت الثاني على الأول ، مع زعمك بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مضطلع بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافياً ...

إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عطني ، فقال حميد : لئن كنت حين عصيت ربك ظننت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت التية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يارسول الله تقول : شيبتي هود^(٢) ، فما الذي شيبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : يارب ، من أشرف الناس ؟ قال : من إذا خلا علم أني ثانيه فأجل قدرى عن أن يظهرني على معاصيه ... ومراً

(١) معاطلة : أى عاظلمها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتي هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال: أتدبغنى منها شاة؟ قال: ليست لى، قال: فأين العِللُ؟ قال: فأين الله: فاشتراه عمر وأعتقه، فقال المملوك: اللهم قد رزقتنى العتق الأصغر فارزقنى العتق الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك... وقال السرى السقطى^(١): بتصحيح الضمائر تُغتفر الكبائر؛ وفي الأثر: تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة « أى تعرّف إليه فى الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك فى الشدة بالعصمة... » وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل...

احتمال المكاره فى العاجل رجاء المسارّ فى الآجل

ورمن جوامع الكلم فى ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ « حُفَّتْ: أحيطت، والمكارة جمع مكرّدة وهى: ما يكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل ما يوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبى: أصل الحَفّ: الدائر بالشىء المحيط به الذى لا يتوصّل إليه إلا بعد أن يُتخطى، فمثل المصطفى المكارة والشهواتِ بذاك، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها، والنار لا يُتجنى منها إلا بقطم النفس عن مطلوباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته فى ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتهمناً بطعام ولا شراب فقالت له أمه: أرفق بنفسك، فقال: الرّيق أطلب لها... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطلب...

(١) أحد رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بابة أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَّتْ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِي لِلْمَقَامِ أَطُوفُ

مرعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَدَسَّ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، ولا آخِرَتَهُ لدُنْيَاهُ ، حتى يُصِيبَ منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلَّاءً على الناس ... « كَلَّاءٌ : عيالاً وثِقَلَاءٌ ، وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أعِنِّي على الدنيا بالغِنَى ، وعلى الآخرة بالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة^(٢) : أَنْشَدْتُ المَأْمُونَ قَوْلِي :

أَنْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونَ مُشْتَغِلًا بِالدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ إِفْقَالِ عِمَارَةٍ : مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ صَيْرْتَهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مِحْرَابِهَا ،

(١) كنى بالجوهر عن السرور ... وللنقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا

شدت في شرحنا على النخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديبا وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تياها معجباً معتاداً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض أبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة ،

فَمَنْ لَأَمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قَلتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبُهُ

وَلَا غَرَضٌ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ

أَبَدًا وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر :

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لِأَضْيَعُهُ وَلِلَّهِ مِنِّي وَالخَّلَاعَةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من

هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :

أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وَكُنْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَيْسَ رَجَاؤُهَا أَنْ تَلِدَ

وَلِدَاءُ ذِكْرًا بِأَكْثَرِ مِنْ خَوْفِهَا أَنْ تَلِدَ أَثْمًا . وقريب من هذا قول رجل لابنه :

خَفِ اللّٰهَ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فالْمُؤْمِنُ

لَهُ قَلْبَانِ : يَرْجُوهُ أَحَدَهُمَا وَيَخَافُ ، الْآخَرَ وَقَالَ :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعْدِ

وقال أبو نُوَاسٍ :

لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأَةً أَحْرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ

وقال أيضا :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللّٰهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ مُمْرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْتُمُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالِسَّخْرِ رَبًّا غَفُورًا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
تَعُوضُ نَدَامَةً كَقَفِيكَ مِمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبَبَ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما :
أَيُّ آيَةِ أَرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحْسَبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال :
يَحْسَبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبًا : نَجُونَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ! قال : إِنَّ
الْكَرِيمَ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وسمع أعرابي عبد الله بن عباس يقرأ قول الله
تَعَالَى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فقال : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا
وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُبَلِّغَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير قبيح ...

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آثافا قول في ذلك وتزيد فذور دطر فاما من عبقر باتهم في هذا
المعنى : قال الشبلي : من عبده رجاء الجنة فهو عبدها ، أو خوف النار ، فهو
عبدها ، لأن من خاف شيئا أو رجاه فهو معبوده ، وقال بعضهم : من عبده

الله بَعْوِضٍ فَهُوَ لَيْثِيمٌ ، وَقَالَ آخِرُ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي أَعْبُدُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ فَأَحْرِقْنِي ، أَوْ طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ فَأَحْرِقْنِيهَا ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي أَعْبُدُكَ حُبًّا لَكَ وَسُوقًا إِلَى لِقَائِكَ فَأَجْنِبْنِيهِ ... وَقِيلَ لِرَابِعَةِ الْعَدُوِيَّةِ : مَا لَكَ لِاتِّسَالِينِ اللَّهُ الْجَنَّةَ فِي دُعَائِكَ ؟ فَقَالَتْ : الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ ... « تَعْنِي بِالْجَارِ : ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وَقَدْ أوردنا بيتَ المَعْرِيِّ :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لآلِهه خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ ثَوَابِهَا

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم: أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ ، قال: لأنهم في سُغْلٍ فَأَكْهَوْنَ ، سَغَلَهُمُ النَّعِيمُ عَنِ الْمُنْعَمِ ، وَهَذَا رَضِيَ بِالْجَنَّةِ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْلَهُ . أقول: حديث: أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوي » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأريلاً حسناً: فقال الأزهري: الأبله: الذي طبع على الخير، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول: أو يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: الأبله: الميتُ الداء، أي أن شره ميت لا ينبت له. والمرأة باهاء، قال الشاعر:

ولقد هَوَتْ بِطِفْلةٍ مَيَّالَةٍ بِلَهَاءِ تُطْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد: أنها غر لا دهاء لها فهي تخبرني بأسرارها ولا تفطن لما في ذلك عليها. وقال الزبير قان بن بدر: خيرُ أولادنا الأبلهُ المقول، يعني: أنه لشدته حياته كالأبله وهو عقول «مبالغة من العقل» وقال الزمخشري في صفة الصالحاء: هَيِّنُونَ كَيْنُونَ ، غير أن لاهوادة في الحق ولا دهانة، بله، غَوْضُهُمْ عَلَى الْحَقَائِقِ يُعْمَرُ الْآلِبَابَ وَالْأَذْهَانَ ، وذلك لأنهم أعمالوا أمرَ دُنْيَاهُمْ فَجَهِلُوا حِذْقَ التَّصَرُّفِ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَى آخِرَتِهِمْ فَسُغِلُوا بِهَا فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ أَهْلِهَا ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وقالوا : أعظم الرياء حب المَحْمَدَة . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتمه وأحب إعلام الناس أنه كتمه ، فذلك أقيح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا تزعت عن الغواية فليكن لله ذلك النزغ لالناس
وقال لقمان لابنه : اتق الله ولا تترى الناس أنك تخشاه ليكرهوك ...
وقال بعضهم : كان الناس يراؤن بما يفعلون فصاروا يراؤن بما لا يفعلون .
وقالوا : ما الدخان بأدل على النار من ظاهر أمر الرجل على باطنه ... وقالوا
في وصف المرأى : له سمّتُ أبي ذرّ على قلب أبي جهل^(٢) وقال صلى الله
عليه وسلم فيمن تنسك طمعا في عرض الدنيا : أكثرُ منافقِي هذه الأمة
قرأوها ، قال ابن الأثير : أي أنهم يحفظون القرآن نفيًا للآفة عن أنفسهم
وهم مُعتقدون بتضييعه^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فمليك بإحياء علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الخليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال فيه سيدنا رسول الله : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء . أصدق لهجة من أبي ذرّ وقال فيه سيدنا علي : أبو ذرّ وعاء مليّ علمًا ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أي شدّ بالوكا . وهو الخيط يشد به قم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضمرون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافی الظاهر خلاف مافی الباطن . وقال الغزالي : آخذ من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهي عللٌ تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فر بما يباغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترُوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم إن ظهرت منى زلة تملونى ، وإن ظهرت على حسنة حسدونى ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مُعَبِّساً وجهه كأنما يمنُّ على الناس بما يُصَلِّي زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشورٌ بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تَعَمَّق ، ويقال : تقرأ : أى تَنَسَّك ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدني أبو صدقة الديبى :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبٍ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنلى والحناء
بيضاء تضطاد القوي وتنتهى بالحسن قلب المسلم القراء

« مودونة : مُلَيَّنة وأطرافها نائب فاعل ، ودونة ، ورووا أن بلال بن أبى بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يديم الصلاة فقال عمر : ذلك التصنع ، فقال له العلاء : أنا آتيتك بخبره ، فجاءه وهو يصلى فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمالتي سنة أى وظيفتى ومُرَّتْ بي - وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَطَّكَ ، فكتب إليه ، لجاه الملاء إلى عمر فأخبره ،
فقال : أراد أن يُغرِّنا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عينيهِ
كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور :
إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن تشعلك عنه ، وإن كنت أردت خداعتنا
فما ينبغي أن نتمدِّع لك . وقال شاعر :

لا تصحَّ - بن صحابة حلقوا الشوارب للطعم
يكي وجلس بكانه ما للفريسة لا تقع

وقال آخر :

عمرّوا ووضع التصحُّح منهم ومكان الصلاح منهم خراب
ويروى هذا البيت على وجه آخر ...

وروا أن بعض الناس كان يدع زكاته من الفقير ويسترجعها منه بدرهم أو
درهمين . ويروى أغرب من ذلك وأقعد في باب الحيل الشرعية المحرمة ، وذلك
أن أحد مشيختنا الذين تولوا مشيخة الإسلام والإفتاء في الجليل الغابر بمصر
- وكان غنياً ثرياً - كان يحتال في زكاة المال بأن يضع قيمة ما يجب عليه أن يزكاه
عن ماله في العياب ، الزكائب ، المملوءة قبحاً ثم يفهم الفقراء أن هذه هي زكاتهم
ثم يشتريها منهم بثمانٍ مُغرٍ ، وبذلك يظن أنه قد قام بفريضة الزكاة ويخادعون
الله وهو خادعهم ،

التوبة

التَّوبَةُ : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتوباً وتتاباً :
أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وقفه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
 وفي الحديث : من تاب قبل موته بفواق ناقة حرم الله وجهه على النار .
 « الفواق : أن يُحَاب الناقة ثم تُنرَك لحظة يرَضَعُها الفصيل لتدِر ثم تحلب »
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يعاود بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن . يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حُبُه فيتعذر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصي فرووا أنه قيل لرجل : أوص ، فقال : أحذر كم سوف ، وقال شاعر :

والمرءُ مُرْتَمَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْمَتِي . وهلاكه في سَوْفِهِ وَاللَّيْمَتِ

وقال آخر :

أَسَوْفُ تَوْبَتِي خَمْسِينَ عَامًا وَظَنِّي أَنِّ مِثْلِي لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : نحن لانزيد أن نموت حتى نتوب ولا نتوب حتى نموت ...
وقال بعضهم لرجل : عِظِي ، فقال : قد قَطَعْتَ عَامَةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعت
ألا تَضِلَّ في آخره فافعل ... وقال مُصْعَب بن الزبير : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة التَّزْوُع ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أن المُنَايَا تَسْمِقُ الوصايا ، وقالوا في
قوله تعالى : بل يُريد الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذنوب ويؤخر التوبة
أو يُسَوِّف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُورِّج السدوسي ^(١) : فَجَرَ :
إذا ركب رأسه ، فمضى غير مُكْتَثِرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَمِضَ أَمَامَهُ رَاكِباً
رَأْسَهُ ... وقال سيدنا رسول الله لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَرِغْنَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتَمِ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ : اغتَمِ مَا تَأْتِي
نَفْسَهُ ، وَثَوَابَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ . وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ : اغتَمِ الْعَمَلَ حَالَ الصَّحَّةِ
فَقَدْ يَمْنَعُ مَانِعَ كَالْمَرَضِ فَيُنْقِذُ بِهِنَّ زَادَ . وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ : اغتَمِ فَرَاعَكَ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ شُغْلِكَ بِأَهْوَالِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَيْ اغتَمِ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ
لِعَالِكَ تَسْلَمَ مِنَ الْهَوَانِ . وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ : اغتَمِ الطَّاعَةَ وَفِعْلَ الْخَيْرِ حَالَ
قُدْرَتِكَ قَبْلَ هِجُومِ عِجْزِ الْكِبَرِ عَلَيْكَ فَتَنْتَدِمَ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ .
وَرِغْنَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ : اغتَمِ الْإِحْسَانَ وَالتَّصَدُقَ بِفَضُولِ مَالِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
جَائِحَةٌ تُفْقِرُكَ . وَلكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذِهِ الوصية الكريمة مَمْرَاضُهَا عَامٌّ شَامِلٌ
يُرَادُ بِهَا الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْعَمَلِ وَاتِّهَازِ الْفُرْصِ قَبْلَ فَوَاتِهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ .
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصُرْتَ حَاصِداً نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَدْرِ
وقال أبو العتاهية :

فَواعِبِ كَيْفَ يُعْصَى الْمَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْتَدُهُ الْجَاهِدُ

(١) نحوي بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكِهٖ وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال الآخر:

تَرَجُّو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسَلُكَ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَدَيْنِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: تُبُّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنبا قُتِبَ، فَمَقُوفٌ
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،
فَقِيلَ: وَكَيْفَ يَرْسُولُ اللهُ؟ قال: يَكُونُ نُصَبَ عَيْنِهِ خَائِفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فتذاكروا في شَرِّ الْأَشْيَاءِ فَمَالَ
أَحَدُهُمُ: الْهَمُّ يَقْتَرِنُ بِالْمُدْمِ - الْفَقْرُ - وَقَالَ الْآخَرُ: سَقَمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ،
وَقَالَ الْثَالِثُ: دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ... فَخُتِمَ لِهَذَا... وَدَعَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ
فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وُقُوعِ الْعَنِيَّةِ وَلِمَا آتَى الْإِثْمِيَّةِ... وَقَالَ حَكِيمٌ:
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوها أَجَلَ أَفْعَالِكُمْ... وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ
عَنْهُمَا: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لَمْ يَضُرَّ بِهِ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لَمْ يَمُرَّ بِهِ!
وَقَالَ بَعْضُهُمْ حَضَرْتُ مَجْلِسَ الشُّبْلِيِّ^(١) فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُ:
أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ أَوْصَاكَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ما وراء النهر - سمرقند وبخارى وما إليها - كان في مبدأ أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصفى وبلغ المباحث في ذلك، كان جليل القدر مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة ٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعَل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليستَ من حياة ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَقْطَعُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعاتٍ عظيمةً ، أيها الأوساط ،
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يقدر عليها إلا الساطان ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعني راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا فتى ، سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم ، تَبَّ عَلَيَّ واغفر لي ، فقيل : ولم ؟
فقال : أنته عمّا ينهك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضی الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكَاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتحها: الحافوا إدراكا » ... وسئل بعض المجَّان : كيف أنت في دينك؟ قال : أخرقه
بالمعاصي وأرغمه بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يؤاخذ اللهُ النَّاسَ بما كَسَبُوا ماترك على ظهرها
من دابةٍ ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان
بعبادته بصيراً ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلِيلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِبَاطِهَا فِي نَجْرِهَا وَالمُخَّ فِي تِلْكَ العِظَامِ النُّجْلِ
أَغْفِرُ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأوَّلِ (١)

عبقریات شتی

فی الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا : أي لم تضحكوا ألبتة إذ القلب ههنا بمعنى العدم ... وجاء في خطبة سيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعجب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار ... معالم جمع معصم ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدها في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهم : المظلم ، لانهم الأشياء فيه ، والليل أفضل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة . والنجر : أسفل العنق ، والمخ : ما في وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أي دقيق ، والقرط : ذنوبه التي قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، والزمان الأول : زمن الشباب ، وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب: مصدره يمي معناه طلب الرضا، تقول: استعبت فلانا: إذا طلبت منه العتي، وهي الرضا، يريد: ليس بعدالموت من استرضاء، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها، وما بعدالموت دار جزاء لا دار عمل،

وقال أبو العتاهية:

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر ذو المنكر
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تنخر إلا نخر أهل الثقي غدا إذا صمهم المحشر
ليعلن الناس أن الثقي والبر كانا خيراً ما يذخر
عجبت الإنسان في فخيره وهو غدا في قبره يقبر
مابال من أوله نظفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

« أما قوله: يا عجباً للناس لو فكروا... البيت، فأخوذ من قولهم: الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك؛ ومن قول لقمان لابنه: يا بني، لا ينبغي لعاقل أن يُحِبِّي نفسه من أربعة أوقات، فرقت منها يناجي فيه ربه، ووقت يُحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يُحَلِّي فيه بين نفسه وبين لذتها ليمتعين بذلك على سائر الأوقات. وقوله: وعبروا الدنيا إلى غيرها... البيت، مأخوذ من قول الحسن البصري: أجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها.

وقوله: الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَاتِهِمْ ^(٢) وصارَ الناسُ هكذا ، وشَبَّكَ بين أصابعِهِ ؟ فقلتُ : مُرَّتِي ، يا رسول الله ، فقال : خُذْ مَا عَرَفْتَ وَدَعْ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخُوبِصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَهَا ^(٣) ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مُنَادٍ مِنْ قَبْلِ الْعَرْشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكِرَامِ الْيَوْمَ ؟ : لِيَتَّقِمَ الْمُتَّقُونَ ، ثم تلا رسول الله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأخطل سَبَقَ أبا العتاهية في هذا بقوله :

وإذا افْتَقَرْتَ إِلَى الذُّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة ، لا يَرِزُقُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ الْأَبَدَ ، وَلَسْ كُنْتُمْ تُنْقَاوْنَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وقال مالك بن دينار ^(٤) :

- (١) أصل الحثالة : ما يبقى في الإناث من ردى الطعام ، وحثالة التمر : أردؤه وما لا خير فيه ، ضربه رسول الله لردال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .
(٣) خُوبِصَةٌ : تصغير خاصة ، بأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويجزده مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَهُ
الغنى بلا مالٍ ، والعزُّ بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخْرُجْ من ذُلِّ
مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فإنه واجِدٌ ذلك كله ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ العَقِيلِيُّ -
وكان يَسْرِقُ الإِبِلَ في عهدِ بنى أمية ثم تاب وقُتِلَ في سبيلِ الله - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ المَخَائِضِ أَهْمِلُوا فقد تابَ يَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وإنَّ امرءًا يَنْجُو مِنَ النارِ بَعْدَمَا تزوَدَ مِنَ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« المَخَائِضُ جمع مخاض - ومخاض واحدٌ خَلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فمخاض
جمع الجمع ، ومخاض ! جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
أى أسرَحُوا إِبِلَكُمْ - ، وفي هذا الشعر :

إذا ما المَنائيا أخطأَتْكَ وصادَفَتْ حميمك فاعلم أنها ستعود

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام على - أنه
كان يقول - إذا مات له جارٌ أو حميم - : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
السَّوَادَ المُخْتَرَمَ ... « أَوْلَى لِي ، مثله : أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، وهى
كلمة تهديد ووعيد ، معناها : قاربك ماتكراه ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً
بليلاً فلا يكنْ أجبنَ السَّوَادِينَ ، فإنه يخافُكَ كما تخافُهُ ، والمُخْتَرَمَ - من اخترمته
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواةِ بَدَلِهِمْ وَأَسْمَتُ سُرْحَ اللّهُو حَيْثُ أَسَامُوا
وبلغتُ ما بَلَغَ امرؤُ بَشابِهِ فإذا عَصارةُ كلِّ ذاكِ أَقَامُ

« أثم كسّلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتملئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غويتُ زماناً مع الغواية وهوتُ كما لهوا وخلعتُ عذارى كما خلَعوا عذارهم وبلغتُ شبابي المباح ، من اللهو والبغى والفساد ، وأنلتُهُ أقصَى ما يشتهي من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدتُ كلَّ ذلك ضلالاً في ضلال وعبثاً في عبث وظلمات بعضها فوق بعض ، وما جنّيتُ من ورائه إلا المرءَ والحنظل ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدسيّته ، وكلَّ ما تُورثُه المعاصي من الدنس والطبع والرّين ، وإنَّ في ذلك لِعِبْرَةً لمن اعتبر »

وقال هشامُ بنُ عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إذا أنتَ لم تَعِصِ الهوى قَادَكَ الهوى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلبة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى الله بِاسْخَاطِ الناس ، كَفَاهُ اللهُ ما بينه وبين الناس ، وَمَنْ أَرْضَى الناس بِاسْخَاطِ الله ، وَكَأَهُ اللهُ إلى الناس ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِريرَتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عِلانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لا تَكُنْ إلى نَفْسِي طَرَفَةً عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوْلانا اللهُ بِرِعايَتِهِ الصَّمَدانِيَةِ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعاءِ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكاتته فيما خَلَّفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لَرَحْمًا مَاسَةً وقرابةً قُربيةً، ومن ثمَّ جعلناه رِدْفَآله، وأُفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقَابَلَةُ النعمة بالقول والفعل والنَّيَّة، فَيُنْفِي المُنعمُ عليه على المنعم بِلِسَانِهِ، وَيُذِيبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلَ تَشَكَّرَ: إِذَا أَصَابَتْ مَرَعَى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ. وَإِذَنْ يَكُونُ مَعْنَى شَكَرَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ: أَنْ يَجْهَدَ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُؤَدِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصْفًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُرُ عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَغْفِرَةُ... هَذَا؛ وَإِنْ فُرِّقَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ يَدٍ، وَالْحَمْدُ عَنِ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأَنْشَدُوا لِأَبِي نُخَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدته تحت نخلة فهو اسمه، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول في أولها:
أَمْسَلَمَ إِنِّي يَا أَبْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ
وقوله: فنبهت من ذكرى وما كان خاملاً: أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقِيِّ وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
فَبَهَّتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَائِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَاءُ مِنْ بَعْضِ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي ؟ أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا... وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشَكَرَ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشَكَرَ لَهُ مِثْلُ شَكَرَ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةٌ مِمَّا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيهَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفِيُّ : صَرْفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرْفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلَقِّي إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّمِّ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُسْتَنْ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَائِمًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرِّيَّاتُ :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَيْدِي صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَعْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَعْرَّ مُحْجَلًا

• الأوضح جمع وضح وهو البياض، والبهيم: الأسود، والمجمل: أرض بلا أعلام

وهذا على المثل ،

نُوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً... ونزید هذا توكيداً وتبييناً
 ليُراد كلمة الراغب في الذريعة، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصوُّرُ المنعم عليه النعمة، وإظهارها، وبضاده الكفر، وهو - أي الكفر -
 من كفر الشيء : غطاه، ودأبُّه شكور: أي مُظهِرٌ بِسْمَنِهَا إِسْدَاءَ صَاحِبِهَا
 إليها؛ وقيل: أصله من عينٌ شكري: أي مُتَمَلِّئَةٌ، فالشكر هو: الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه المنعم، ومن هذا الوجه قيل: هو أبلغ من الحمد، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشَّيْءِ بِصِفَاتِهِ، والشكر: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِصِفَاتِهِ وَبِنِعْمِهِ، فالشكر على ثلاثة
 أضرب: شكرٌ بالقلب، وهو تصوُّر النعمة، وشكرٌ باللسان، وهو الثناء على المنعم،
 وشكرٌ بسائر الجوارح، وهو مكافأته بقدر استحقاقه؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور: ثلاثة أضرب: شكر الإنسان لمن هو فوقه، وذلك يكون بالخدمة
 والثناء والدعاء، وشكرٌ لنظيره، وهو بالمكافأة، وشكر لمن هو دونه، وهو
 بالثواب والإفضال. وشكرُ العبد لله سبحانه هو: معرفة نعمته وحفظ جوارحه
 بمنعها من استعمال ما لا ينبغي. ثم قال: وشكرُ المنعم في الجملة واجبٌ بالعقل،
 كما هو بالشرع، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء، - وأوجبها
 شكرُ الباري تعالى، ثم شكرُ مَنْ جعله سبباً لوصول خير إليك على يده، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام: لا يشكر الله من لم يشكر الناس؛ قال: وقال
 بعضهم: كلُّ نعمةٍ يُمكنُ شكرُها إلا نعمةَ الله، فإنَّ شُكْرَ نِعْمَتِهِ نِعْمَةٌ مِنْهُ،
 فيحتاج العبد أن يشكر نعمةَ الشكر، كما شكر أصل النعمة، وهكذا حتى يُودَى
 ذلك إلى ما لا يتناهى، ومن هذا أخذ الشاعر الذي يقول:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً علىَّ له في مثلها يجب الشكرُ
 فكيف بلوغ الشكر إلا بفضيله وإن طالَّت الأيَّامُ واتَّصلَ العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه، بل قد قال الله تعالى: وإن تُعدُّوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعدُّ بليَّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: ياتن منعه عطاءً وبلاؤه نعاء^(١)... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: وقليل من عبادى الشكور...

عقبرياتهم في الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصرت يدك عن المكافأة فليطل لسأئك بالشكر؛ وقالوا: النعم إذا شكرت قرَّت وإذا كُفرت فرت. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم وائن كفرتم إن عذابي لشديد... وقالوا: النعم وحشية فاشكروها بالشكر، يقال: شكك الدابة يشككها: شدت قوائمها بجبل، واسم ذلك الجبل: الشكال، وقال ابن المقفع: استوثقوا عرعى النعم بالشكر. «العرى جمع عروة، والعروة في الأصل تقال لعروذ الدلو والكوز ونحوه، أى مقبضه. وأعروة المازدة أى أذنها. وعروة القميص: مدخل زرته، ولعروة النبات: ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاة، وقد بما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهنى، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إلهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه بما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولاخير في غيره ولاصلاح...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ شَبَّه ما يُعْتَصَم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها، وقال البحتري:

يزيد تفضلاً وأزيد سُكراً وذلك دأبهُ أبداً ودأبي

وقال عمرو بن مسعدة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمليه. وقال يحيى بن أكرم: كنت عند المأمون فأنى برجل تُرْعَد فرائضه، فلما نَظَرَ بين يديه قال المأمون: كَفَرْتَ نعمتى ولم تشكر معروفى! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع سُكْرِى فى جنب ما نعم الله بك على أقال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:

ولو كان يَسْتغنى عن الشكر ماجدٌ لرفقه نَدْرٌ أو عُلُوٌّ مَكَانِ
لَمَّا أَمَرَ اللهُ العبادَ بِشُكْرِهِ فقال: أشكروا لى أيها الثَّقَلانِ
ثم التفت إلى الرجل وقال: هَلَّا قلت كما قال أضرَمُ بنُ حميد:

مَلِكْتُ حَمِيدى حَتَّى إِنِّى رَجُلٌ كُلِّى بِكُلِّ ثَناءٍ فَيْكَ مُسْتَعِيلٌ
خَوَّلْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنى نِعَمٍ فَحُرُّ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنى خَدَمِ
وقريب من هذا قول أبى الفتح البُستى:

إِنَّ عَجَزَتِ عَن شُكْرِ بَرِّكَ قُوَّتِي وَأَقْوَى الْوَرَى عَن شُكْرِ بَرِّكَ عَاجِزُ
إِنَّ ثَنائِي وَاعْتِقَادِي وَطَاقَتِي لِأَفْلاكِ مَا وَارِثَتِهَا مَراكَزُ
ومن أروع ما قيل فى الشكر قول البُحترى:

فَلو كان لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إِذا ما تَأَمَّلَهُ النَّاظِرُ

لَبَيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَذَلِمَ أُنَى أَمْرُو شَاكِرٍ
وَلَكِنَّه سَاكِنٌ فِي الضَّمِيرِ يُحَرِّكُهُ السَّكِيمُ السَّائِرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأَسَدِي في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فَنَظَرَ
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً، فدعا وكيله وقال: اقترض لنا مالاً، فقال: هيات
ما يُعطينا التُّجَّارَ شيئاً، قال: فأرجمهم ماشوا. فاقترض له عشرة آلاف فوجه
بها إليه مع تَخْتِ ثياب «التخت: وعاء تصان فيه الثياب» - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيْادِي لَمْ تُمْنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
قَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكْوَى إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلَّتْ مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانَهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

«قوله: سأشكر: فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه. ولم تمنن: لم يتبعها من، وإذا النعل زلت:
يريد: إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا متكأ يعتمد عليه في نهضته، والخلة: الحاجة، وقوله من حيث يخفي
مكانها: أي من حيث لا يدركها لحاظ غيره، وفكانت قدى عينيه: أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة»...

وقال ابن عَنقَاء الفَزَارِيُّ فِي عُمَلَةِ الفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنِصْفِ مَا!

لَمَّا رَأَى مِنْ رِثَاةِ حَالِهِ ، وَكَانَ عَمَلَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَابِي عُمَلَةً فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَايَ فَأَسَانَى وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلْمُ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوٌ يُرْجَى وَلَا حَضْرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سِيمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصْرِ
كَأَنَّ الشَّرِيَاءَ عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَتِ الْعُورَاءُ أَعْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِإِلَاءِ ذُلِّهِ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْصَرُّ
وَمَا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابَهُ تَرَدَّى رِدَاءُ وَاسِعِ الذَّلِيلِ وَأُتْرِرُ
فَقَلَّتْ لَهُ خَيْرًا وَأُتْنِيَتْ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا سَدَيْتَ مَنَ ذَمِّ أَوْ شَكَرِ

« السياما والسيما والسيما والسيما : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لا تشقُّ على البصر يريد : لا تؤذيه بل يُسرُّها ، والثرَيَّا : من الكواكب
كثيرة الأنجم مع صغر مرآتها ، والشعري يريد بها الشعري العبور ، وهو كوكب
نير خلف الجوزاء يطلع في صميم الحر . والعوراء : الكلمة القبيحة ،
وأعصى : أطبق أجفانه حياءً ونبلاً ؛ واستعيرت ثيابه : كنى بذلك عن
قلة الأجداد »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطَبِعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَاءِي جَمِيعًا تَكَلَّمُوا

وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ نَمِيَّةٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا

وقال بعضهم : شكري لا يقع من نعمة الظاهرة : موقع النقطة من الدائرة .

وقال أبو نواس :

قَدْ قَلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا

أَنْتَ أَمْرٌؤُ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

فَالْيَكِ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِيمَةً تَلَقَّاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفًا

لَا تُسَدِّدِينَ إِلَيَّ عَارِيَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرٍ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكري إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلِّ تَفْقَهُدَكَ الْمَوَالِي ولم نَذُمَّ أَيَادِيكَ الْجِسَامَا
ولكنَّ الْغِيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْمُقَامَا

الموالي جمع، ولي : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والآيدى النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أتمل نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر... وقال البُحْتَرى وأبدع :

أَحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ ما بَيْنَنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
وقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَمِنِّي مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ
صِلَّةٌ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ عَجَبٌ، وَرِيحٌ رَاحَ وَهَوَّ جَفَاءُ
وقال أيضاً :

إِيهًا بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصِرُ فَمَالِي فِي جَدْوَاكَ مِنْ أَرْبٍ
لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسْدِيهِ إِلَى أَبِي

ومن أفاضهم فى ذلك : سُكْرُهُ شَأْوٌ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَابِي، وَلَا أَتْلَفِي
التفريط فيه يافراطى «الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا
- جَرَى - شوطاً، أى طَلَقاً» وعندى له مَبَارٌ أُعْجِزُنِي شُكْرُهَا، كما عوزنى حَضْرُهَا
«مبار جمع مبرة» وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَقَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِيَ الْكُفَاةِ وَنَسْأَلُهُ الْكُفَّ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت، فإن الصاحب صار لا يُعطى شيئاً...

من لا تخفى أياديته

قال نَصِيبٌ (١) :

فَعَا جُوا فَاتُّوْا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيفَ بِكَفْرَانِي صَنَائِعَهُ الَّتِي إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقْرَبَهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَاقَ مِنِّ فِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ

وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسانِ الشكر ... ومن كلمة
للجاءظ : نحنُ نُزَخِرُفُ بِاللِّسَانِ ، وَالنَّاسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وَفِي أَمْرِنَا أَثْرٌ
يَنْطَاقُ عِنَّا ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا سَكَتْنَا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَن شَكَرُوهُ وَمَا يَسْتَوْجِبُ

قال علي بن أبي طالب : انشاء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل
بيته ، وكان أهل البادية يدعونه «النصيب» تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً
فحلاً فصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له
في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقَيْتُهُمْ تَقَاذَاتِ أَوْشَالٍ وَمِرْلَاكٍ قَارِبُ

قَفُّوا خَبْرُوْنِي عَنِ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَانَ طَالِبُ

فَعَا جُوا البيت

وتقا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلانا تقفا العتبة أو الثانية : أي خلفها ، وميرلاك
يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب
في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عني وحسده، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضيباً - الشاعر الذي تقدم ذكره - يقول: إنما تمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر ريجكم تمطرون... وقال صاحب بن عباد:

وإذا الصديقُ أدامَ سُكْرِي لَلَّتِي لم آتِها إلا على التقدير
أَيَقْنْتُ أَنَّ الْعَتَبَ بِأَطْنِ أَمْرِهِ فَسَكْتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم ير دعه خوفه عن الشكر

بعث أبو جعفر المنصور إلى شيخ من بطانته هشام بن عبد الملك، فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: فقل رحمه الله، وقال يوم كذا رحمه الله، فقال المنصور: قم لعنك الله، أتطأ بساطي وترحم على عدوي! فقال الشيخ: إن نعمة عدوك لقلادة في عنق لا ينزعها إلا غاسلي، فقال المنصور: أرجع إلى حديثك، فإني أشهد أنك غرس شريف وابن حرة... ولما قتل مسلة بن عبد الملك يزيد بن المهلب أمر بأن يحضر الشعراء ليقولوا في ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ما خلا رجلاً من بني دارم فإنه قال: لأذم رجلاً لا أملك ريعاً ولا مالاً ولا أثماً إلا منه ولو قطعت إرباً إرباً^(١)، ولقد رثيته بأحسن ما رثي به رجل - وأنشد أياتاً رائعة - فجراه مسلة خيراً وقال: إذا اضطجع فليضطجع مثل هذا... أقول: لا أدري: أبعوق هو لاء البررة الأوفياء الشجعان الصرحاء يعجب المرء، أم بأولئك الملوك الذي يقدرون هذا الوفاء ويطربون له ولو كان في جانب أعدائهم أفله دَرُّ أولئك الناس الذين شرفوا الإنسانية بهذه الخلائق الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجبن والذالة قد كَلَمُوا^(٢) الإنسانية

(٢) كَلَمُوا: جرحوا

(١) إرباً إرباً: عضواً عضواً

وهَوَّأَ بِهَا إِلَى الْحُضِيِّضِ الْآوَهْدِ ...

شكر من هَمَّ بِإِحْسَانٍ وَلَمْ يَفْعَلْ

وقالوا : من لم يَشْكُرْ عَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ ، لم يَشْكُرْ عَلَى إِسْدَاءِ الْعَطِيَّةِ .
وقال شاعر :

لِاشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَّتَ بِهِ إِنَّ أَهْتِمَاتِكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ
وَلَا أَذْمُكَ إِنْ لَمْ يُمَضِّهِ قَدْرُهُ فَالشَّيْءُ بِالْقَدْرِ الْمُحْتَرَمِ مَصْرُوفٌ

ثَقُلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :

وَالْحَمْدُ شَهْدٌ لَا تَرَى مُشْتَارَهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْخَنْظَلِ (١)

عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَجْسِبُهُ الَّذِي لَمْ يُؤِهِ عَاتِقُهُ خَفِيفَ الْحَمَلِ (٢)

وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال

عن الشكر طابت نفسه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

مَا فَاتَنِي خَيْرُ أَمْرٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوِنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هريم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والحمل : الحمل

ما وهب أبوك لزهير؟ فنالت: أموالا فنيدت وأثوابا بليت وأشياء انتسيت، فقال الفاروق: لكن ما أعطاكوه زهير لا يقنى ولا يقنى ... وكتب أرسطو إلى الإسكندر المقدوني: إن كل عقيلة^(١) يأتي عليها الدهر، فيخلق أثرها ويميت ذكرها، إلا ما رسخ في القلوب، من الذكر الحسن يتوارثه الألقاب. وقالوا: في الثناء الباقي على الدهر، خلف من نقاد العمر. قال الشاعر:

وإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أبيت ولم ألم
وقيل لبزر جهم حين كان يقتل: تكلم بكلام نذره، فقال: الكلام
كثير، ولكن إن أمكنتك أن تكون حديثا حسنا فافعل.

ولما رضع الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في الثور قال له خاتمته:
ياسيدي، قد صرت إلى ما صرت وليس لك حامد أقال: وما تفع البرامكة
من صنعهم، قال: ذكرك لهم الساعة، فقال: صدقت... وقال شاعر:

لئن طببت نفسا عن ثناني فإنني لأطيب نفسا عن نذائك على عسرى
فألت إلى جدواك أعظم حاجة على شدة الإعسار منك إلى شكري
وقال أبو تمام:

ومحجب حارثته فوجدته نجما عن الركب العفاة شوعا
أعدمته - لما عدمت نواله - شكري فرحنا معدمين جميعا
وقال عوف بن محم الشيباني:

فتي يتقى أن يخدش الذم عرضه ولا يتقى حد الشبوف البواتر

(١) العقيلة في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرائم أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم: من أحبَّ الثناء، فليصبر على بَذْلِ العطاء، ولْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ
على الحقوق المُرَّة، وعلى احتمال المؤنة... وقال الشاعر في هذا المعنى:
ما أعلم الناس أن الجودَ مكسبةٌ للحمْدِ اكنته يأتي على النَّسبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق: أحسن الكَيْتُ في الهاشميات، فقال: وَجَدَ آجُرًا وَجِصًّا
فبني... وقال شاعر:

ما لقينا من جودِ فضلِ بنِ يحيى ترك الناس كلَّهم شعراء
وقال ابن الرومي:

كرمتم نجاش المفحّمون لمدحك إذا رجزوا فيكم أينتم فقصدوا
كما أزهرت جنات عدنٍ وأثمرت فأضحت وعجم الطير فيها تُغرّد
ومما كتبه بعضهم: فتحت شيمه على المدّاح مُستغلقات الكلام...

وقال أبو تمام:

ملك إذا ما الشعرُ حارَ ببلدةٍ كان الطريقَ لظرفه المتحير

وقال المتنبّي:

يا أيها المحسنُ المشكورُ من جهتي والشكرُ من قبلي الإحسان لا قبلي

وقال ابن طباطبا^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به:

(١) ابن طباطبا: هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبيين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا: لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في النبتة توفي

لَا تُنْكِرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ هَنْطِقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتَلَوُ عَلَيْهِ وَحِيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً فَأَعَافَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشُّعْرَى لَمْ تَرَعْ حَقِّي إِذْ أَبْحَثَ مَحَارِمِي
ووصف أعرابي رجلاً مجمعاً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَانَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمَعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِزِّ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالْتَقْلِيدِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَاتُ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوِّ أَقْرَبٍ وَاعْتَرَفَا

وقال البحرى فى المُسْتَعْنَى عَنِ الْمَدْحِ لِكَثْرَةِ فَضْلِهِ :

جَلَّ عَنِ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءً

وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُنْتَقَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثَرُ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التي أولها :

يقولون لى فيك أنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَارِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مَزِيدَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالشَّاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرْحُمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ ، وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْحَلِيقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثْرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَاً وَإِنْفَاقاً وَشُكْرًا ، إِلَى آخِرِ مَا قَالُ ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثْرَ إِنْعَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعَتَبِيِّ مَا يَلِي : أَرَادَ جَمْعُ بِنِ يُحْيِي حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 وَبَدَفَعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيَحْدِثُنِي وَيُضِحِّكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى جُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرَّأْسِ وَجِرَّةً مَكْسُورَةَ الْعُنُقِ ،
 وَقَضَعَةً مُشَعَّبَةً ، وَجَفَنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصَلًى بِالِ عَلَيْهِ بَرْنِكَانٌ^(٢)
 أَجْرُدٌ ، فَمَمَّرَ عَلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِي شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ النَّكْلَانَ وَالنُّضْبَانَ إِلَّا أوردَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرَعَى الذُّبَّ ظَلَمَ ، وَمَنْ زَرَعَ السِّبْخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِبَشْرِهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ إِنْ اللِّسَانَ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَاللَّهُ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاجُوا فَأَنْتَوْنَا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيْزَ أَمْدَحُ لَأَبْرُوِيْزَ مِنْ زَهْرٍ لَّالِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الاكسبة . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حالي تبوح بما أوليت من حسن فكُل ما تدعيه غير مردود
كلّي هجاءٌ وقتلي لا يحل لكم فما يداويكم مني سوى الجود
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لا يمدحون إلا إذا أعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن ممد بكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
وأجرت : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكرت ذلك ونفرت
به ، ولكن رماحهم أجرتني : أي قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكابر لأبي هفان ^(١) : مالك لا تمدحني ؟ فقال :

لسان الشكر نطقه العطايا ويخرس عند منقطع النوال
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أما القوافي فقد حصلت عذرتها فما يصاب دم منها ولا سلب

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزبي العبدي ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَتَعْتَ إِلا مِىنَ الأَكْفَاءِ ناكِحِها وكان منكَ عَلَيْها العَطْفُ والحدَبُ
 ولو عَصَلْتَ عَنِ الأَكْفَاءِ أَيْمَها ولم يَكُنْ لَكَ فى أَطْهارها أَرْبُ
 كاتَتْ بَناتٌ نُصِيبُ حينَ ضَنَّ بها على الموالى ولم تحفِلْ بها العربُ

« العذرة : البكارة ، والحدب : الإشفاق ، وعضل الأيتم : فالأيم : التى
 لزوج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وعضل الرجل أيمه
 يعضلها ويعضلها عضلا : منعهما الزواج طُلما قال تعالى : فلا تعضلوهنَّ أن
 ينسكحن أزواجهنَّ ، نزلت فى معقل بن معقل بن يسار العزنى - وكان زوج أخته
 رجلا فطلَّقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت
 فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بناتٌ وكان يرغِبُ
 عن أن يزوجهنَّ من الموالى ، والعرب لا ترغِبُ فيهنَّ ، فبقين بلا زواج ،
 قيل له يوماً : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدى فكسدن على ... ،
 وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبى تمام يوماً يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه
 لو اقتصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدته فيه :

رَأَيْتَكَ سَمِحَ البَيْعِ سَهْلاً وإِنما يُغالى إِذا ما ضَنَّ بالشىءِ بائعُه
 هو المَاءُ إِذا أَجمَعْتَه طابَ ورُدُّه وَيَفْسُدُ مِنْه ما تَباحَ شرايِعُه
 فكتب إليه أبو تمام :

أَباجعفرِ إِن كنتَ أَصَبحتُ شاعراً أَساهِلُ فى بَيْعِ لَه مِن أَبائِعُه
 فقد كنتَ قبلى شاعراً ذارِوِيَّة نَساهِلُ مِن هانتَ عَلَيْهِ بضائِعُه
 وصِرْتَ وزيراً والوزيرَ مَشْرَبُ يَغصُ بِهِ بعدَ الأذاةِ كَارِعُه
 وكَم من وزيرٍ قد رأينا مُسلطاً رأينا هُ قد سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطالِعُه
 وللهِ قَوْسٌ لا تَطيشُ سِهاهُما وللهِ سَيْفٌ لا تُفعلُ مَقامُها

« يقول : إن سبَّه الله مصيبةٌ لا تُخطئُ وسيِّفه لا يثلمُ ألبتَّةَ ، فهو الذي جعلك
وزيرا ولو شاء لأنزلك عن دستك »

حُثِّمَ عَلَى الشُّكْرِ وَلَوْ لَمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمْ

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَيْر : المَجْرُوسِيُّ يُؤَلِّينِي خَيْرًا فَأَشْكُرُهُ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيَّ
فَأُرَدُّ عَلَيْهِ ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ عَنِ نَحْوِ هَذَا ، فَقَالَ لِي : لَوْ قَالَ لِي
فِرْعَوْنُ خَيْرًا لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ ... وَسَلَّمَ نَصْرَانِيَّ عَلَى الشَّعْبِيِّ ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ :
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : سَبَّحَانَ اللَّهِ ، فَقَوْلُ لِهَذَا النَّصْرَانِيَّ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ ! فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَلَيْسَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ يَعْيشُ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَمَا
وَجْهُ الْإِنْكَارِ عَلَى عَافَاكَ اللَّهُ وَرَحِمْنَا وَإِيَّاكَ بِرَحْمَتِهِ ؟

اسْتَحْيَاؤُهُمْ مِنَ الْمَدِيحِ

وَلَا سِيًّا إِذَا كَانَ مُتَكَلِّفًا أَوْ مُبَالِغًا فِيهِ

سمع سيدنا رسول الله رجلا يُثْنِي عَلَى آخَرَ ، فَقَالَ : قَطَعْتَ مَطَاهُ ، لَوْ سَمِعَ
مَاءً فُأَجِحَ « المَطَا : الظهر » وَقَالُوا : اسْتَحْيَاءُ الْكَرِيمِ مِنَ الْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنْ اسْتَحْيَاءِ
اللَّئِيمِ مِنَ الذَّمِّ ... وَأَثْنِي رَجُلٌ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : إِنَّا نَسْكَرُهُ الْمَدْحَ ،
فَقَالَ : لَسْتُ أَمْدُحُكَ وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ فِيكَ ... وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ
رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ إِذَا مَدِيحٌ : اللَّهُمَّ ، أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَنِيَّ بِنَفْسِي مِنْهُمْ ،
اللَّهُمَّ ، اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسِبُونَ ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَا تَوَاخِذْنِي
بِمَا يَقُولُونَ ... وَكَانَ رَجُلٌ يُكْثِرُ الثَّنَاءَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، وَعَلِمَ مِنْ قَلْبِهِ خِلَافَ قَوْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ
مَا فِي نَفْسِكَ ؛ وَقَالَ الْجَاهِظُ : شَرُّ الشُّكْرِ ، ثَنَاءُ الْمُوَاجِهَةِ لِكِ الْمُسْرِفِ فِي مَدْحِكَ ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كُنْ مِنْ أَفْرَطِ فِي
تَرْكِيمَتِكَ أَحَدَرَ مِنْ أَفْرَطِ فِي الزَّرَايَةِ بِكَ . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرَّجُلَ بِمَا لَيْسَ
فِيهِ فَقَدْ بَالَعَ فِي ذِمَّتِهِ . وقال أبو فراس الحمداني :

وَلَا تَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ سَأَرْضِيكَ مَرَأًى لَسْتُ أَرْضِيكَ مَسْمَعًا

وقال الفضيل بن عياض : لَوْ شِئْتُمْ رَائِحَةَ الذُّنُوبِ مِنِّي مَا قَرِبْتُمُونِي ...

وَأَثْنِي عَلَى زَاهِدٍ ، فقال : لَوْ عَرَفْتَنِي مَعَرَفْتُ مِنْ نَفْسِي لَأَبْغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ فَضِيلِهِ مُكْرَهًا كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودًا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خُطْبَةً حَسَنَةً ، فقال : هل من

خَلِيلٍ ؟ فقال رجل من عُرُضِ النَّاسِ : خَلِيلُ الْمُخْتَلِ ، فاستدعاه وقال :

مَا ذَاكَ الْخَلِيلُ ؟ قال : إِعْجَابُكَ بِهِ وَمَدْحُكَ لَهُ ... وَقِيلَ لِلْحَكِيمِ : مَا الَّذِي لَا يَحْسُنُ

وَإِنْ كَانَ حَقًّا ؟ قال : مَدْحُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ ... وقال معاوية لرجلٍ : مَنْ سَيِّدُ

قَوْمِكَ ؟ فقال : أَنَا ، فقال له : لَوْ كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَقُلْهُ ... وَمَنْ طُرْفُهُمْ

فِي ذَلِكَ مَارُؤِي عَنْ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ أَنَّهُ سُئِلَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فقال : أَصْبَحْتُ

وَاللَّهِ أَظْرَفَ النَّاسِ وَأَشْعَرَ النَّاسِ وَأَدَبَ النَّاسِ ، فقال السائل : أَسَكَتَ حَتَّى

يَقُولَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فقال : أَنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَتَنْظَرُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ وَلَيْسُوا

يَقُولُونَ ... وَمَدَحَ أَعْرَابِيٍّ نَفْسَهُ فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ ، فقال : أَأَكَلُهُ إِلَيْكُمْ الْإِذْنَ وَاللَّهِ

لَا تَقُولُوا أَبَدًا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وعَزِيزٌ عَلَيَّ مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ الدَّلَالَةَ
وَهُوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لأبي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل قال له : أعالمٌ أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ، فأكون جاهلاً . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف «أى لا تمدح قبل التجربة، وأصل الهرف : الهديان قال الأزهرى : الهرف : شبه الهديان من الإعجاب بالشيء يقال : هو يهرف بفلانٍ نهاره كله هرفاً ، وقالوا : لا تمدح أمةً عامٍ شرايها ، ولا حرةً قبل بنائها «قبل الدخول بها»... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلاناً رجلٌ صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال : إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرّ : قلتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل ويحبه الناس ؟ قال : تلك عاجلٌ بُشِّرَى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه : إذا أردتُم أن تعملوا مالمالعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو مِثْنٍ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمِجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا
حَتَّى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا شُكْرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَدَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنَحُكُمْ مَالِي وَتُكْتَمَرُ نِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرِضِي فِي مَجَالِهَا فَهَرُ (١)
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الْآسَى وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشُوهَا الْغَمْرُ (٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤَكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيْبًا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ (٣)
سَاحِرِمْكُمْ حَتَّى يَذُلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ (٤)
وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بِيضَاءَ قَدِ اسْدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانَ كُلِّ وِدَادٍ
شَكَرَ الْإِلَهَ صَنَائِمًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي نِعْمًا عَلَى نِعْمٍ - وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ -
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى تَمَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْتَاقِ وَالْقِمَمِ -
فَلَا شُكْرَ نَّ يَدِيكَ مَا شَكَرْتَ خُضِرُ الرِّيَاضِ مَصَانِعَ الدِّيمِ -

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الآسى : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فالحمدُ يُقْبَى ذِكْرُ كُلِّ قَتِيٍّ وَبَيْنُ قَدَرِهِ وَوَأَقِعِ الْكَرِيمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيْعَةِ إِنْ طُلِبَتْ مَهْوَرٌ عَقَائِلُ النَّعْمِ.

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهته بالشكر ضرب من الملق ، منسوب من عُرف به إلى التَخَاتِي ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكَتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أني مِنَ الإِعْتِرَافِ بِمَعْرِفِكَ ، ونَشَرِ مَا تُطْوِي منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطناب في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتَمَلِ لِلصَّنِيْعَةِ النَّاهِيضِ بِحَقِّ النَّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخريزمي :

زاد معروفك عندي عظماً أنه عندك مخقورٌ صغيرُ
تناساهُ كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهورٌ كبيرُ
وقال بعضهم : لا تتق بشكر من تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكر ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذْمَعْ الْجَبَسَ اللَّيْمَ الْمَذْمَمًا (١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللهُ الْمَسَاعِغَ وَالْفَمَا
وقال ابن التَّوَعَمِ (٢) : كلُّ من كان ، جوده يرجعُ إليه ، ولولا رُجوعُهُ إليه لما جاد عيالك ، ولو تيمناً له ذلك المعنى في رواك لما قصد إليك ، فليس يجبُ له عليك شُكْرٌ ، وإنما يوصف بالجوود في الحقيقة ويُشكر على

(١) الجبس : النذل الذم . (٢) هو عتبة بن التوعم من رجال الحديث

النَّعْفُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الذِّي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَمَّا جَادَ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ مِنْهُ وَأَسْنُ مِنْهَا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْصَلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ ، مَنْ جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ التَّخِيرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرْزَها وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لِتَخْلُوَ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَتَوَابَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا أُعْطَانِي ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْمًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسَبِيًّا إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِخَرِيفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلٌ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرِّفْقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي فَوَادِهِ مِنَ انْتِصَرِ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ خِنَاةِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنْثِي عَلَيْكَ وَلى حَالٌ تُكْذِّبُنِي فِيمَا أَقُولُ فَاسْتَجِى مِنَ النَّاسِ

قَدْ قَلَّتْ إِنْ أَبَاحَ حَفِصٌ لِأَكْرَمٍ مِنْ بَشِي نِخَاصِنِي فِي ذَلِكَ إِفْلَاسِي

وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أُنْثَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَمَطْرٌ جَوْدٌ فِي

سَخِيَّةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُ إِلَى عَنِينٍ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَوُدٌّ إِلَى سَكْرَانٍ ،

وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يُراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيضُ الجزعِ ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يَصْبِرُ صَبْرًا ، وصَبْرُهُ أَنَا : حبسُهُ ، والتَّصَبُّرُ :
تكلفُ الصبرِ ، قال عمر رضی الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التَّصَبُّرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربانٍ : جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجِسْمِيٌّ : هو تحمُّلُ
المشاقِّ بقدر القوَّة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحُشِيَّةِ ، وليس ذلك
لفضيلة تامَّة ، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيُّ - وبه تُسَلَّقُ الفضيلة - ضربانٌ : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهِيٍّ ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبرٌ على تحمل مكرهه أو مُحْبُوبٍ ، وهذا
تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والملع والحزن ، وإن كان في احتمال
عَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس ويضادُّه الدَّقَعُ والبَطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعةً ويضادُّه : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْمًا ، ويضادُّه : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سَعَةً الصدر ؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : الغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته .

وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّي كتمان سرّ، ويزادُه : الإفشاء، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً، وهذا يصادُه : الحرص والشرّة...
«وبعد» فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب: أن الصبر ألوانٌ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب، ذلك الذي يصادُه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تصدّي له في هذا الباب، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب.

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه «مداواة الغم وإزالة الخوف» مع شيء من التصرف: خَلِقُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَمَّةُ الْمَصَائِبِ رَنْقَةُ الْمَشَارِبِ تُشْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أَوْعَافَ الْبَلِيَّةِ^(١)، فيها مع كلُّ لُقْمَةٍ عُصَّة^(٢)، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَةٌ^(٣)، فهي عِدْوَةٌ وَمَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا الْبَيْبَ تَكَشَفَتْ لَهُ عَنْ عِدْوٍ فِي نِيَابِ صَدِيقٍ

وكما روى عن الحسن البصري أنه قال: ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال

كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لِأَمَلُومَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ^(٤)

(١) البرية: الخلق، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية: المحنة

(٢) العصاة: الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء: حسوة منه، والشرقة: الغصة وليكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدى بن زيد:

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالغَصَانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

(٤) مقليّة: مكروهة، وهتات بحذف إحدى التامين وتقلب الشيء: تبغض، خاطب

كثيرهم غائب

فما أحدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالته غَرَضٌ لِلسَّاهِهَا :

تُناضِلُهُ الآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فُتُخِطُّهُ يَوْمًا وَيَوْمًا تَصِيبُهُ ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولا يسلمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد . فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهو غير عاقل ، لأنه يريد أن يملك ما لا يملك ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحقيق بالمرء أن لا يُخْلِ قلبه من الاعتبار بما يرى ، من ارتجاع لودائنها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نغتم ؟ فقال : لأنني لم أقتن ما يغني فقدته ، أخذته الشاعر فقال :

فمن سره أن لا يرى مايسوؤه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احترس من الخطيئة ، وقنع بحلاله ، ولم يجزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أن الجزع على ما فات لا يعلم ما تشعث ولا يُبرم ما انتكت ، فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذي هو حتم في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذي لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلاب غم ، وإن كان من الممكن الذي يصح دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعل غير مشوب بجزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناظلة فضله : باراه في الرمي نغله

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه، وسَبَقَ في عِلْمِهِ لاسيَّلا إلى أن لا يكون، هانت عليه الثُّوبُ، واعلم أن الذي يَغُرُّ النَّاسَ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفاتِ، واغترارُهُم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحقَّوا أنها كما قال عليُّ رضي اللهُ تعالى عنه: ما قال الناسُ لقرمِ طوبى لکم إلا وقد خبأَ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إنَّ الليالي لم تُحسِنْ إلى أحدٍ إلا أساءتْ إليه بمدَّ إحسانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبداع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أرى الصبرَ محموداً وعنه مذاهبٌ فكيف إذا لم يكنْ عنه مذهبٌ (١)
 هناك يَحِقُّ الصبرُ والصبرُ واجبٌ وما كان منه كالضرورةٍ أوَّجبٌ (٢)
 فشدَّ امرؤُ بالصبرِ ككفاً فإنه له عِصمةٌ أسبابها لا تقصُبُ (٣)
 هو المَهْرَبُ المُنجي لمنْ أهدقتْ به مكارههُ دهرٍ ليس منهنْ مَهْرَبٌ (٤)
 أعدُّ خِلالاً فيه ليس لعاقِلٍ

من الناسِ - إنْ أنصفنَ - عنهنْ مرَّغبٌ (٥)

لبؤسِ جمالٍ، جُنَّةٌ من شماتةٍ شفاءُ أسيِّ يُثني به ويثوبُ (٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقاً كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوباً

(٤٠٣) فشدَّ امرؤ بالصبر ككفاً يقول: خَلِيقُ بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه، إذ أن الصبر عِصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فنعَم الملاجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا يحصيها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خِلالاً لا يلبق بعاقِل أن يتركها إذا كان هناك إِنْصاف

فِيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَدَى خِلَالَهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَّظَى النَّاسُ أَنْ أَسَاهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ؛ طِبَاعُ مُرَكَّبٍ (١)
 وَأَنْهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْتِيَ أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبْرًا جَاءَهُ الصَّبْرُ يُجَابُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ (٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنْهَا ، فَتَارَةً يُرَادُ فِيهَا أَيْ أَوْ يُدَادُ فَيَذْهَبُ (٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي: أن الصبر لبوس جمال، أي أنه زينة وحلية جميلة، وأنه جنة من شتامة، أي وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرَيْبٍ الدَّهْرَ لَا أَتَضَعُّعُ
 وَأَنَّهُ شَفَاءُ أَسَى ، أَيْ مَذْهَبٌ لِلْحَزَنِ ، وَأَنَّهُ يَثْبِي بِهِ ، أَيْ أَنَّهُ مَدْرَجَةٌ لِلْحَصُولِ عَلَى
 النَّشَاءِ ، وَأَنَّهُ يَثُوبُ ، أَيْ يَجَازِي عَلَيْهِ

(١) يتظنى أصلها: يتظن، أي يعملون الظن، أي يذهبون مع ظنهم، والآسى: الحزن، وطباع: أي طبع، يقول: وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع، لا حيلة لمن طبعه الحزن في أن يصبر، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن، ثم قال في البيت التالي: وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التي يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء... البيت، ثم قال: ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شيء يملك على الإنسان أمره لا حيلة له في التخلي عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شيء لا بد أن يتحمل فقدسه أي يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله: وليسا كما ظنوهما... الآيات

(٢) يقول: وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتنسب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار: ذو الإرادة، ويداد: يدفع ويبعد

- إذا احتجَّ مُحْتَجٌّ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكْذُ عَلَى قَدَرٍ يُعْنِي لَهَا تَتَعَبُّ (١)
 وساعدها الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهَا لَه طَوْعًا جَنَائِبُ يُجَنَّبُ (٢)
 وَإِنْ هُوَ مَنَّاهَا الْإِبَاطِيلَ لَمْ تَزَلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغْلَبُ (٣)
 فَتُضْحِي جَزْوَعًا إِنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُسْمِي هَلْوَعًا إِنْ تَعَدَّرَ مَطْلَبُ (٤)
 فَلَا يَعْذِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بَأْنَ قِيلَ: إِنْ الصَّبْرُ لَا يُسْكَبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسن ما قيل في الصبر مع الشرح قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
 حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَعُ

ولا أتضعع: لا أذل ولا أخضع، وربب الدهر: صرْفُه، والمروة واحدة

المرو وهي: حجارة بيض براقه يقدر منها النار: ومروة المسمعي التي تذكر مع

الصفاء في الحج- وهي أحد رأسيه اللذين ينتهي السعي إليهما- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعني: يقدر يقول: إذا أقت للنفس الدليل على أن الصبر اختياري مكتسب

ثم ألت بها المصائب فإنها تقع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب

المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمانت النفس إلى الدليل

على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل

يواتها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والباطيل فإنها لا تزال في

عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال آتت عتبا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشتد

أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير

مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المشقر يروى : بصفا المشرق ، أما المشقر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمشرق فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيه الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَبِيهِ تَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
 قَالَتْ أُمَامَةٌ : مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلَ مَا لِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
 أَمْ مَا لِجِسْمِكَ لَا يَلَامُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدهن واكتحل - أى معاوية - وأمر أن يقعد ويسند وقال : إنذرتوا له ، وأيسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليت : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
 ثم ماخرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرجمي من أبيات قالها في سجن عثمان بن عفان رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَصِيرُكَ ضَيْرَةً وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَايِنٍ وَجِيبُ
 وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِبَاتِ الذَّهْرِ حِينَ تَنْوِبُ

- (١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
 (٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أخته ، معتب : مزيل عتبة ، أى مريض
 (٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
 (٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهي : الحصا الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً و ضيرةً -
 المرّة من الضير - ولا ضيرٌ عليك ، وضره يضره ولا ضررَ عليه ، والخشاة :
 مصدر خشيه يخشاه خشية و خشاة و محشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أُنه وينجو بإذن الله من حيث يُحذرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله
 فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْ ، كلُّ مُصيبة إذا وُطنت يوماً لها النفس ذات

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إن أرادني الله بضرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضره أو أرادني
 برحمة هل هُنَّ مُمسِكَاتُ رحمته ، قلُ حسيبَ الله عليه يتوكلُ المتوكلون ...
 وقولوا : الممتحنُ كالمُختنقِ كلما ازدادَ اضطراباً ازدادَ اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أزا بنا له مات فلم يرَ به جزعٌ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا توقعه ، فلما وقع لم نُنكره ... وقالوا : من أراد طولَ البقاء فليوطن نفسه
 على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكرم بن
 صَيْفِي : حيلةٌ من لاحيلة له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيُّ: أسباب الحزن: فَقَدْ محبوب ، أر
توت مطلوب ، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في
عالم الكونِ والفساد ؛ وقال الحسن البصرى : الدنيا دارُ غمومٍ ، فمن عُوِجَلْ
فُجِعَ بنفسه ، ومن أُجِّلْ فُجِعَ بأجابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَنْ أراد أن
لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ ما لا يكون ، لأن المصائب في عالم الكون والفساد
طبع بالطبع ؛ فيدبغى أن يكون منا على بال : أن جميع الأشياء التي تَصِلُ إلينا
كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قَبْلنا... وقيل لُسُقراطُ :
مالك لا تجرُعُ ؟ قال : لأنى لا أقتنى ما يحزُّننى فَقَدَهُ ... وقال ابن الرومى في
هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقَدًا
أقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام ، هناك
قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهَامِ الأيَّامِ ، ومن
أراد أن لا يصابَ فلا يَقْتَنِى ما يسوؤُهُ فَقَدَهُ - والقُنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة
الدنيا ، وإذ لا بد من توطين النفس وإعدادها لتلقَى المصائب ... وإذا كان
هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مرعى آخر ،
منهم مَنْ يفرغُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولأغراض
أخرى تراها بعدُ ... وقالوا : الجزعُ مَنقَصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقصانِ
حياته ، فقد عَظُمَت خَطِيئَتُهُ ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ
ثانٍ ، إن كنتَ جازِعًا لما أَفَلَّتْ منك فاجزَعْ على ما لم يَصِلْ إليك ؛ وقال

على كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو ، والقناعة سيف لا يذبو . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بايت أهما ركبت ؛
 وقيل : الصبر يناضل الحدّان ، والجزع من أعوان الزمان ، وما فى الشكوى
 إلا أن تحزن صديقك وتشمّت عدوك ؛ وقيل : اجعل صبرك على النوائب
 كفاءة شكرك على المواهب ، الصبر عند النقم ، والشكر عند النعم ، وقال
 حكيم : جميع مكاره الدنيا تنقسم قسمين ، ضرب فيه حيلة ، فالاضطراب^(١)
 دوائه ، وضرب لا حيلة فيه ، فالصبر شفؤه ، وقالت الفرس : كلمتان
 يقولهما العاقل عند نائتيه : إحداهما : هذه الحال خير مما هو شر منها ،
 والأخرى : لعل الله أن يجعل فى هذا المكروه خيرا وكلمتان يقولهما الجاهل :
 لعل ما أصابنى يدعو إلى شر منه ! والأخرى : لو كان بدّل كذا كذا من
 المصيبة ا وقالوا : الصبر على مرارة العاجل ، يفضى إلى حلوة الآجل ،
 إنك لا تنال قليل ما تحب إلا بالصبر على كثير ما تكره ، وقالوا : لكل شيء
 ثمرة ، وثمره الصبر الظفر ، والصبر كاسميه ، وعاقبته العسل ، . والصبر على
 المصيبة مصيبة على الشامت . وقال على : إن صبرت فأنت مأجور ، وإن جزعت
 جرى عليك المقدور .

حشهم على تصوّر المصائب

والاستعداد لها كفى تخيف وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان متوقفا ، لم يُلَفَّ متوجعا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال فى دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمنه بذهب ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفَاحًا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَمَا لَكَ كَالرَّمِيِّ فِي مَأْمَنِ لَهُ يَبْتَلِ أُمَّتَهُ غَيْرَ مُرْتَقِبَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَانِي فُجَاءَةٌ فَمَا فُوجِئَتْ نَفْسٌ مَعَ الْخَطَرَاتِ
وَلَا عُوقِبَتْ نَفْسٌ بِيَلْوَى وَقَدْرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ

وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتع الدهر إلا ليمع ، ولا أعطى إلا ليستر ، ولولا اغترار الجاهل
بعوائده ، خللت النفوس من الحسرة على نواتبه ، وقالوا : لا تخل فكرك
من عوارض الفكر وخواطر الذكر فيما تعروك به الأيام ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَم

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَهَرَمًا

« يخترم : يستأصل ويقطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عايه من الهزال ، ويشيب
الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهَرَم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها فمخالفان ، فالمكروهُ مَنَّ فوقك يذبح حزنا
ومَنَّ دونك يُنتِجُ غضبا

هـ فحزنٌ كلُّ أخى حُزنٍ أخو الغضبِ (١) *

الحزن يبلى بتقادم العهد

وقالوا فى الحزن يبلى بعد انقضاء مدة : الحُزنُ يتضو عن ابن آدم كما
يتضو الصبغ عن الثوب (٢) ولو بقى لقتله .

وقال المتنبي :

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها بخبت ثنت فاستدبرته بطيب
وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو سكون لغوب

« قوله : إذا استقبلت ... أبيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والخبث
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفه - أى الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومن لم يُوطن نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صعّب عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... أبيت

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جزاك ربك بالأحزان مغفرة حزن كل أخى حزن أخو الغضب
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا الحزن بما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا
أصابك بما تكرهه والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضا الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدُّ للهِجْرَانِ مِنَ السُّكُونِ ، إِمَّا أَنْ يَسْكُنَ عَزَاءً ، أَوْ يَسْكُنَ إِعْيَاءً ،
وَإِذَنْ فَحَقِيقٌ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَسْكُنَ تَعَزُّيًّا ، كَمَا قَالَ مَجْمُودُ الْوَرَّاقِ :
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسَلْ أَصْطَبَارًا وَحِسْبَةً سَلَوْتَ عَلَى الْإَيَّامِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ -
وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ :

أَتَصْبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً أَوْ حِسْبَةً فَتُوجِرَ أُمَّ تَسْلُوا سُلُوَ الْبَهَائِمِ -
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ الْقَدِيمِ ، فِي أَنْ الْحَزْنَ يَبْلِي إِذَا تَقَادَمَ عَهْدُهُ
قَوْلُ أَبِي خِرَاشٍ الْهَنْدَلِيِّ - شَاعِرِ مَخْضَرَمِ أَسْلَمَ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، يَوْمَ حَنْزِينِ - :
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو السُّكُومُ ، وَإِنَّمَا نُتَوَكَّلُ بِالْأَذْنِ وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ :

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَاللهِ : مَا أَنْسَى قَبِيلًا رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلْبَيْتِ

وَلَمْ أَذِرْ مَنْ أَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جَدَّ مَحْضٍ
وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ هَذَا الشَّعْرِ ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ مَرْثَةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنُ أَبِي خِرَاشٍ ، أَصْطَحِبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لهُمَا : فَأَسْرَمَا بَطْنَانَ مِنْ
ثَمَالَةَ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفُوا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَال بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أَوْلَاكَ بَعْرُوتَهُ قَتْلَهُ ، وَتَفَرَّدَ دَوْلَاءُ بَخْرَاشٍ
خِلَافَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : مُنْتَهِزًا لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاةٌ ، فَأَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أَنْجُ ، فَمَرَّ لِطَيْبَتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُسِكُّهُ إِنَّهُ أَفَاتٌ ، فطردوه - أى تَبِعُوا خِرَاشًا - فَأَعْيَاهُمْ ، فلما وصل خِرَاش إلى أبيه وَخَبَرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا آتَفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ ، ائْتَصَّ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وَقَوْسَى اسْمُ مَكَانٍ ، وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلَيْتُ فَإِنَّ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى الْإِعْتِدَالِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أُنْسَى قَتِيلًا رُزِئْتَهُ مَا مَشِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ» ، أَى مَدَّة حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبَرُ أَنْ : الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدَّرُوسُ وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلِمٍ ؛ وَيَعْنِي بِهِ : الْحَزَّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجِيعَةِ ، وَجَلَّ : عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أُنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤَكِّلُ بِالْجَزَعِ الْمَصِيبَةَ الْقَرِيبَةَ الْعَهْدُ ؛ فَأَمَّا الْمَتَقَادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ فَإِنَّ مُضَى الزَّمَنِ يُعْفِيهِ . وَقَوْلُهُ : وَلَمْ أَدْرُ ... أَلَيْتُ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَّحَ مِنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرَبِّي عليه

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وماي وماي

«تأسو: تُداوي، والكُوم: الجروح، وقبل هذا البيت - وهي آيات يُندبُ

بها الشباب - :

ياشبابي ! وأين مني شبابي؟ أذنتي حباله بانقضاب

لُفَّ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَهَوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرَّطَابِ

وَمَعَزَّ عَنِ الشَّبَابِ مُوسَى بِمَشِيْبِ اللَّدَاتِ وَالْأْتْرَابِ

قلت - لما اتتحي بعدُ أسأه من مُصابٍ شبابه فمصاب :
 ليس نأسوكلوم غيرى كلومى أليت
 وأما قولهم فى التأسى بن مصيبته كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصائب ، لقلَّ همك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
 وما يبسكون مثل أخى ولكن أسألى النفسَ عنه بالتأسى
 وقال حريث بن سلة بن مرارة بن مُحفص ، أحد بنى خزاعى بن مازن -
 شاعر جاهلى - :

ولولا الأتسى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤ بنى مثلى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيّة عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق
 عبد الله بن الزبير - الذى ولى الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية
 والذى تولى قتله الحجاج - وأم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذات
 النطاقين ^(١) ، وغالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بجبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لاسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروةُ هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيرِهِ وشرِّهِ ورجحانِ العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المديتهِ على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشَقَ - عاصمةِ الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانَه - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدواب ، فضربته دابةٌ فخرَّ مَيِّتاً ، ووقعت في رجلِ عروة الأَكَلَةَ - داء في العضو يأتكل منه - ولم يدعِ وِرْدَه تلك الليلة ، فقال له الوليد : أَنْطَعُهَا وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دُعِيَ الجزار لِيَقْطَعَهَا قال له : نَسْقِيكَ الخِرَّ حتى لا تجحد لذلك ألماً ، فقال : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نَسْقِيكَ المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَهُ كالأفيون » قال : ما أحب أن أَسْلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قومٌ أنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمَسِّكونك فإن الألم رُبَّمَا يعزُبُ معه الصبر « يعزُب : يبعُد » قال : أرجو أن أكْفِيَكُمْ ذلك من نفسي ، ففُطِعت كعُتْبُه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظمَ وُضِعَ عليها المِشْيار ، ففُطِعت وهو يُهْلَلُ وَيُكَبَّرُ « يهَلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغْلِيَ له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، ففُشِيَ عليه ، فأفاق وهو يَمْسُحُ العرقَ عن وجهه ، ولما رأى القدمَ بأيديهم دعاها فقلَّبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة طعام المسافر ، في جراب وعاء من جلد ، ففطعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب ، شدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَأْمُونَةٌ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، ولما دخل ابْنُهُ إِصْطَبِيلَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلْتَهُ الدَّابَّةَ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمِعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلَهُ « لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَذَكَرَ الْحَمْدَ ، وَأَيْمُنُ اللَّهِ ، لَئِنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَلَئِنْ أَبْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدَّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَاِدٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَتَدَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ نَلْمُ أَجَاوِزٍ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَاحْتَقَّتْ الْبَعِيرُ لِأَحْسِنِهِ فَتَفَجَّحَنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبَهُ بِحَدِّ حُفَيْهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بِعَيْنِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وُلْدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بِلَاءً ...

وَمَنْ عَزَى عُرْوَةَ : اِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِحَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشَى وَلَا أَرَبٌ فِي السَّمَى ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَانِكَ وَابْنٌ مِنْ أَبْنَانِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعٌ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبَقَ اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءً ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ ، مِنْ عَمَلِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفَعَكَ اللَّهُ وَإِيَانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يؤثرُ عن الحكيم سُقْرَاطُ أنه قال : إذا جُمِعَتْ مَصائبُ البشرِ كُلِّها في وعاءٍ ، ثم قُسمَتْ على جميعِ الناسِ بالسواءِ لأصبحَ من كان يَحسِبُ نفسه أشقى الناسِ وأخسَرَهُمْ يُفَضَّلُ أولى الحالتينِ على الثانيةِ ، وجاءَ بعدُ سُقْرَاطُ الشاعرُ الرومانيُّ «هوراس» فعدَّلَ هذا المعنى فقال : إنَّ ما يُكابِدُ أحدنا من المصائبِ أخفُّ عليه من مصائبِ أى إنسانٍ آخرٍ إذا وقعَ بينَ الرُجُلَيْنِ تبادلٌ... فبينما أنا ذاتَ يومٍ مُتَّكِنٌ في خَلْوَتِي أَفَكَّرُ في هاتينِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أَخَذتَنِي سِنَةٌ من النومِ إذ نُحِيلُ إلى أَنَّهُ بِأَمْرِ إِلهِ الآلهَةِ قد نودِيَ في الناسِ : أن يَحْمِلَ كُلُّ امرئٍ مَصائبَهُ فيأتواها جميعاً فيَطْرَحوها بعضها فوقَ بعضٍ ، في سَهْلٍ فسيحٍ ، فوقفْتُ وَسَطَ ذلكِ السهلِ ، وسرَّني أن أرى الناسَ طُرّاً يأتونَ واحداً بعدَ واحدٍ يُلْقونَ أثقالَهُمُ العديدةَ ، حتى ارتفعَ من مجموعِها جبلٌ طالَتْ^(١) ذُؤابَتُهُ السحابِ .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلةٌ خفيفةٌ قد شَمَرَتْ عن ساعِدِ الجِدِّ وَسَطَ هذه

(١) سمت فوق السحاب قال :

إنَّ الفِرْزَدَقَ صَخْرَةٌ عادِيَةٌ طالَتْ - فليس تنالها - الأجيالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجيالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجيالا

فليس تنالها الأجيال .

الخلائق، تحمِل في إحدى يديها مجَهْرًا، وعليها ثوبٌ تفضفاضٌ هفهافٌ سابغٌ
الذيلُ مؤمّىٌ بعددٍ عديدٍ من تصاوير الجان والعمارات، كلما ضربت الريح
الجلبابَ تلوّنتُ وتشكّلت تلك التهاويلُ أشكالًا وألوانًا؛ وكان في عينها وآهٌ
وتلهّفٌ وحيرةٌ، وكان اسمُها «الوهم» وهي التي كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من
البشر إلى المكان المعين بعد إغاثتها إياه على ربط حُزْمَتِهِ وحَبْكِيهَا وإلقائها على
عاتقه، فأذاب قلبِي رُؤْيَاهُ إِخْوَتِي وَأَبْنَاءِ أُمِّي وَأَبِي يَنوونَ بِأَحْمَالِهِمْ. وَيَدْتُنونَ
تحت أُنْقَالِهِمْ؛ وَفَتَتَ كَيْدِي أَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَادِحَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تَسْكُونُ، وَمِنْ آلامِهِمْ تَأَلَّفُ، عَلَى أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَالِكَ:
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لَغَرِيبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَجِيبِ هَيْئَاتِهِمْ؛ فَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطْرَزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَرْكَشَةَ حِمْلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَّجَتْ بِيَصْرِي أَتْبَيْنُهُ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخِرُ يَرْزُحُ تَحْتِ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنْفُسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى حِمْلَهُ؛
فَنظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ؛ زَوْجَتُهُ؛ وَرَأَيْتُ عِدَدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كِوَاهِهِمْ
أُنْقَالٌ عَجِيبَةٌ مِنْ سِهَامٍ وَسُعَلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغَمَ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يُمَرِّقُ فُلُوبَهُمْ مِنْ غُلُوءِ الْوَجْدِ وَبُرْحَاءِ الْكَمَدِ؛ وَبَرَّغَمَ زَفْرَةَ لَهْمٍ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةَ لَاتَرَقَّى^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوَعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِقَاءِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ - مَحَاوَلَةِ الْمُنْتَهَلِ
الْمُتَكَبَّرِ - هَزُّوا رُؤْسَهُمْ وَرَجَعُوا بِأَثْقَالِهِمْ أَشَدَّ نِقْلًا وَأَفْدَحَ
حِمْلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَعَاضِينَ وَجُوهِينَ

(١) أى: لا تفيض ولا تنجف وأصل ترقا: ترقا فخنف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيرا من الفتيات يلقين سُمرَ جلودهن . ورأيت كوماً^(١) من أنوف حمراء
وأَسنانٍ قَلحاء^(٢) وشِفاهٍ قَلحاء^(٣) . والعَجَبُ العُجَابُ أني رأيت معظمَ الجبل
مؤلفاً من غاماتٍ بدنية . وآفاتٍ جسدية ، ثم لمحتُ من بعيد رجلاً على ظهره
جملٌ لم أرَ في سائر الاحمالِ ما يُدانيه عِظماً ، فأنعمتُ النظرَ فإذا هي حَدَبَةٌ ،
فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عَمَلًا وأمراضاً
من كلِّ صَربٍ وصَريفٍ ، غير أني رأيت الوهميَّ من ذلك أكثرَ من الحقيقيِّ
وشاهدتُ بين هذه نوعاً قد أُلِّفَ من جميع الأمراضِ والعِللِ يَحْمِلُهُ في الأَكْفِ
عَدَدٌ عَظِيمٌ من ذَوِي النعمةِ والرِّفاهيةِ ، واسمُ هذا الداءِ : المَمَلُّ ، وأعظمُ
عَجبي وحيرتي أني لم أرَ أحداً قَطُّ أَلقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً مما
أَبْلَيْتُ به نفوسَ البشرِ من الرذائلِ والحماقاتِ والأضاليلِ والنقائصِ والسخافاتِ
والأباطيلِ ، فأدهشني ذلك أيّما دَهَشٍ ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
أحدٌ حتى يَطَهَّرَ نفسَه من أدرانِ الأهواءِ والشهواتِ . ويُخَلِّصَ طَبْعَه من
أكدارِ العيوبِ والعوراتِ . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشكَّ في أنه جاء
مُثَقلاً بأوزارِهِ وآثامِهِ : فلما أقبَلتُ على مارمائه أفتشته أَلقيتُ أنه لم يَرِمِ شيئاً
من تلك الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذا كرتَه ، وتبعه رجلٌ سائطٌ جاهلٌ ،
فظنرته فإذا هو قد نبذَ حياةَ لا جَهْلَه ... ولما فرغَ الناسُ من طَرَجِ ألقاهم
وفرغتِ الجَنِيَّةُ النجيلةُ الخفيفةُ^(٤) من عَمَلِها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كَومَ كومةً بالضم : إذا جمعَ قطعةً من ترابٍ ورفعَ رأسها

ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان

(٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الروم كما يذكر التماري

ولا يَعْمَلُ، دَنَتَ مَنَى، فلم يَرْعَى إلا رَفْعَهَا المِجْهَرِ إِزَاءَ عَيْنِي، وكنت أَعْرِفُ في وَجْهِ القِصْرِ، فإذا هو قد تَنَاهَى قِصْرَ أَحْتَى عاد أَبْشَعُ شَيْءٍ، فسَاءَ في مَنَظَرِهِ، فَأَلْقَيْتُهُ كما يُلْقَى القِنَاعَ. وكنت قبل ذلك بِرُهْمَةٍ أَبْصَرْتُ رجلاً رَمَى بوجْهِهِ لِفَرْطِ طَوْلِهِ، وكان أطولَ وَجْهِهِ حتى لَدَقْتُهُ وَحَدَّهَا تَطَوَّلُ^(١) وَجْهِهُ بِأَكْمَلِهِ، فاستراح من مصيبتِهِ واسترَحْتُ، واستراح الخلقُ طُرّاً؛ وَأَطْلِقُ لكلِّ امرئٍ أن يَسْتَبْدِلَ بِبَلَوَاهِ مِحْنَةَ غَيْرِهِ.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المِحْنِ كيف عَدَّهَا أهلُهَا مِحْنًا وكيف كان قد غُرِّبَها وَوُحِدَ فيها، خَسِبَهَا نَعْمًا وفوائدنا وبيننا نحن تتأمل خليط المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكان بالبراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رَمَى شيخ كبير على كتيب المصائب علة كانت في بطنه، وكان عاقراً، يتمنى ولداً يكون عماد شيخوخته ووارث ثروته، فمدَّ يده ليتعاضد من دائه الذي طرَّحه فاخطف ولداً فاجراً عاقاً، كان آفة أب له، وكان ذلك الأب قد نبذته في النَّبَاتِ^(٣) يريد به بديلاً، وقد أخذ بدلَه مرض البطن الذي رَمَى به الرجلُ الأوَّلُ. فلم تمض إلا برهة حتى رأيت ذلك الغلام قد ناز بالشيخ الكبير فأخذ بِلِحْيَتِهِ وناصيته، وهم أن يفلق رأسه. فما هو إلا أن أبصر الأب

(١) زيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أي: الأشياء المنبذة
يعني بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصلي، وكان يسعى نحوّه ممسكاً بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
 يرحمك الله وإيانا، أخذُ ولذلك بارك الله فيه وأعطى عني، ولكن قضى
 الأمر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابنُ بوران لا مفرَّ من الله ولا من قضائه المحتوم

ورأيت أسيراً مقيداً خلع قيده، وقُلع صفده، فاعتاض منه النقرس^(١)
 ولكن أبدى من التأوه والتأفف والتلوى والتنزي ما دلّ على أنه لم يكن
 في تجارته تلك بالراجح الصفة .

ولقد كان من المُمْتَحِ اللَّادِّ أن تُبَصِّرَ ما وقع إذ ذاك من المبادلات
 والمقايضات، من علة بخلة^(٢) وجوع يفقدان شهوة، وهم وتسويد، بأمر
 وتقييد . أما النساء فكانن من تبادل الأعضاء - أعضاء الوجه والجسم - في
 سُغْلِ شاغل، فواحدة تستعوض لمة شطاء، من جلدة سمراء، وثانية تأخذ
 عنقا قصيرا، وتعطى أنفاً كبيراً، وثالثة ترمي عرضاً مفضوحاً . وتلقطُ وجهها
 مقبوحاً، وما منهن إلا من تُدرِكُ في الحال أنها اعتاضت من سيئ أسوأ،
 ومن ردىء أزدأ، وكذلك حال سائر الجمع في كل بليّة وآفة، لعلة لأن
 ما أصابنا به الله مناسبٌ لمقدار صبرنا واحتمالنا، أو لأن كل مصيبة تدلّها
 العادة ...

فقلت لها : يا عرّ، كل مصيبة إذا وطئت يوماً لها النفس ذلت
 ولقد رحمتُ من صميم مُهجتي ذلك الاحدب الآنف الذكّر، إذ راح معتدل
 القامة وإني الشَّطاط، لكن يدهاء في كُلاه؛ وعلة في حشاه، كما رحمتُ معاقدَهُ
 ومبايعهُ الذي راح مُحدّو دِبِ الظهرِ يظاعُ وسطِ سُرْبٍ من الفتياتِ كُنَّ قبلَهُ بمواعات

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويلِ ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخذُ وجهي القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةَ الأعاجيبِ ، فاستلقيتُ ضاحِكاً من وجهي حتى أخرجتُ وجهي ، وأدركَ الرجلُ المسكينُ خطيئته وعَرَفَ غَلَطَته ، ففجّلَ واستخجني ، غيرَ أني ما لبثتُ أن فِئتُ ^(١) إلى نفسي فعملتُ أنه ليس لي أن أزهى وأختالَ وأسخَر من الغيرِ وأنا سُخْرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا ضُحْكَةٌ ^(٢) ، وإن لي في غرابة هيتي لشُغلاً عن اللهو بهيناتِ الناسِ ومندوحةً ، وذلك ، أيها القارئُ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَبْهتي فلم تقعِ لِطولِ وجهي إلا على الشَّفَةِ العُلْيَا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عينيَّ صَكَتْ يدي أنفي ، لِبروزِهِ وضامته ، مِراراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رَجُلَيْنِ في مثلِ حالِنَا من السُّخْرِيَةِ قد أحداً تبادلاً في زوجين من الأَرَجُلِ ، زوج غليظِ أعوجِ قصيرِ ، وزوج طويلِ نحيلِ ، فكان صاحبُ الرَجُلَيْنِ النحيلتينِ كأنما قد رُفِعَ في الهواءِ على عمودي بيتِ ، فهامتهُ تدورُ مع الرِّيحِ حينما دارتِ ، وأما صاحبُ الرَجُلَيْنِ العُوجاوينِ القَصِيرَيْنِ فكُلُّهُما حاولَ السَّيرَ دارَ في مكانِهِ لا يَبْرُحُهُ . ولما رأيتُ على نُحْيَاهِ سِيما الجِلْمِ وَالظَّرْفِ والفكاهةِ أقبلتُ عليه أَمَازِجُهُ فقلتُ له : سأجعلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تَبْلُغَ هذا ، ورسمتُ له خَطًّا على مسافةِ ذِرَاعَيْنِ من مُرْسِي قَدَمِيهِ ، في مُدَّةِ نصفِ ساعةِ .

وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثِيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِها ، من ذِكرٍ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سخرة كسفرة : يسخر منه ، وسخرة كهجرة :

يسخر من الناس ، وضحكة بسكون الحاء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أثقابها الجديدة رُزحاً حَسْرَى . وُلها حَيْرَى . وقد مَأْوَا
السَّهْلَ والحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَةً وَحَيْنَا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطْرَحِ أثقابهم كَرَّةً أُخْرَى ، فألقوها فَرِحِينَ بِالقائِها مسرورين . وأمره الوهم ،
تلك الشيطانة التي غَرَّرَتْ بهم وضَلَّتْهم ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلها ملكاً كريماً ، جِدَّ مُخَالَفٍ لها هيئته وشكلا . مُبَايِناً لها خَلْقاً وَخُلُقاً ،
رزينَ الحركة ثابتَ الجَنانِ ، قد جَمَعَ في هيئته بين الطلاقة والجِدِّ والوقارِ والبِشْرِ ،
لا يَنفَكُ من حينٍ إلى آخرٍ يَرْفَعُ نحو السماء طرفه ، ويسمو إلى عرشِ الله
بأَسِله ؛ وأسمُ هذا الملك . الصَّبْرُ ، وأعجِبُ ما رأيتُ أن هذا الملك ما قامَ بجانب
جبلِ الآلامِ إلا وأخذَ الجبلُ يَهْبِطُ ويضوُّلُ حتى لم يَبْقَ منه أكثرُ من رُبْعِه ،
ثم أعادَ ملكُ الصبرِ إلى كلِّ حَظَّةِ الأُولِ ، وألهمه الصبرَ الجليلَ ، وأشعرَ قلبه
قوَّةَ الجَلْدِ ونورَ اليقينِ ، فراحَ مُغْتَبِطاً سعيداً يحمَدُ الله على كلِّ ما أعطاه ، تائباً بما
أقترفه من الجهلِ وجناه .

فَمَا أَفَدْتُ من هذه العظمتِ والعِبَرِ أني لستُ حَقِيقاً أن أتَبَرَّمَ بشيءٍ منَّا
بُصِيْبِي به الله أو أَنفَسَ على امرئٍ هِبَةً أو نِعْمَةً ، إذ كان مُسْتَحِيلًا على امرئٍ
أن يعلمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صاحِبِهِ وَيَقِفَ على مَبَايِغِ أَحزَانِهِ وَأشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهِ ، وَرِزَايَاهِ ، فَكُلُّ لُكْلِي سِرٍّ غَائِضٍ وَخِزَانَةٍ مُقْفَلَةٍ
وَسِيفَرٍ مُطْبِقٍ . ولكنِّي آليتُ على نفسي أن آخُذَ نفسي بثلاثِ : كِتْمَانِ العَلَّةِ ،
وَكِتْمَانِ الفَاقَةِ ، وَكِتْمَانِ المصيبةِ ، مع الصبرِ عليها جميعاً ، وأن لا أَحْسُدَ امرأً على
شَيْءٍ ، وأن أكو زأبداً حَاضِرَ الصَّفْحِ للناسِ ، وَاسِعَ العَفْوِ ، إذ كان أعقلُ
الناسِ أَعذَرَهُم للناسِ ...

عقرياتهم في الدنيا

وأنها دار محن وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أمّ دفر - والدفر ، النتن ، دفرًا دار فرألهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دار مصائب ومحن وأكدار ، وحسبك بهاديم اللذات - الموت - الذي فصح هذه الدنيا وبديها أيما فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أي مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كل الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر من واشجة الرحم ، ولأنه كلام خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يليق بعاقل أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نصب عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأي بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق ممتلئ العقل أعمته بأبطال هذه الحياة وألهة التكاز وبهرجها عن كنهها فارتطم في أوحالها وصار يملخ في لذاتها تملخاً ، لاهيا عن المنهاة المؤسسة التي تنتظرنا جميعاً ، جالباً بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعمیرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كتابنا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المعاني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون بذلك وأولاً ، إلى أن يصدتوا بالحقيقة فقهى أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، ووثانيه ، إلى حث الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبرها، والتزود فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع! ذم رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: آسكت، إن الدنيا دارُ صديق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومَنجى أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أم دُفِر، أسماءها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفِر. النَّنُّ، وتُكنى كذلك: أم شملة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمَّ شَمْلَةَ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا عَرَارَةٌ زَيْتٌ مِنْهَا التَّهَاقُوتُ

وكذلك تُكنى: أم شملة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُميت الدنيا

والخر بذلك - كما سلفنا بذلك - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيباهن...

أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم

بشهواتها، وافتنانهم بزيتها وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدون كأنهم مُنزفون

مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه تحووا وأفاقوا... وصدق

سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا...

أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه

أبا العجب قال: * وما الدهر في فعله إلا أبو العجب *

والنسبة إلى الدنيا: دنيوى، ويقال: دُنَيْبِي ودُنَيْبِيَّةٌ - وجمها دُنَى، وإنما

سميت دنيا: لِذُنُوهَا، لِأَنَّهَا دَنَتْ وَقُرُبَتْ، وَتَأَخَّرَتْ الْآخِرَةَ، أَمَا الدَّهْرُ فَالْمَنْسَبَةُ إِلَيْهِ ذُهْرِيٌّ بِضَمِّ الدَّالِ تَقُولُ: رَجُلٌ ذُهْرِيٌّ: أَي قَدِيمٌ مُسِنٌ، أَمَا رَجُلٌ دَهْرِيٌّ بِفَتْحِ الدَّالِ فَمَعْنَاهُ: مُلْحَدٌ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ يَقُولُ بِيَقَاءِ الدَّهْرِ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُسْبِرُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَدُومَ الدَّهْرَ وَتُسَبِّهَهُ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ أَوْ هَرَمٍ فَيَقُولُونَ: أَصَابَتْهُمْ تَوَارِيعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ وَأَبَادَهُمُ الدَّهْرُ، فَيَجِدُلُونَ الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيُذْمَوْنَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ: وَمَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا يَظُنُونَ، وَجَمَعَ الدَّهْرَ أَدَهْرًا وَدَهْرًا، أَمَا الدَّهَارِيُّ فَهِيَ تَصَارِيفُ الدَّهْرِ، وَقِيلَ جَمَعَ لِلدَّهْرِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، قَالَ الشَّاعِرُ الْقَدِيمُ (١):

فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَأَرْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
يَبْكِي عَلَيْهِ غَرِيبٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مُشْرورٌ
حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهُ وَالدَّهْرُ أَيَّتِمَّا حِينِ دَهَارِيرُ

« قوله: فاستقدر الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله:

بينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره بينما العسر كائن أو حاضر، إذ دارت مياسير: أى حدثت وحلت، والمياسير جمع ميسور، ومغتبط أى فى غبطة: أى مسرة وحسن حال، والرمس: القبر، وتعفوه: تدرسه وتمحو أثره،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برقي: لعشير بن لبيد

العذري، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذري

والأعاصير جمع إعصار وهي: الریحُ تُهبُ بشدةٍ، وقوله؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضممر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدرّة، والدرّ مبتدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهارير من معنى الشدة، والدهارير قال الزمخشري: تصاريف الدرّ ونوائبه، مشتق من لفظ الدرّ ليس له واحد من لفظه كعبايرد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه: فِيمَ أَنَا مِنَ الدُّنْيَا؟ وَمَالِي وَهَلَا أُوَلَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كِرَاكِبِ سَارٍ فِي يَوْمِ صَائِفٍ، فَرُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا، قَالَ: مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا نَوْمٌ، يُقَالُ: قَالَ يَقِيلُ قِيلُولَةً فَهُوَ قَائِلٌ،

وقال علي بن أبي طالب: الدُّنْيَا دَارٌ مَرَّةً لَا دَارٌ مَقَرٌّ وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا «أَوْبَقَهَا: أَهْلَكَهَا بِسَبَبِ تَهَاوُفِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَإِعْرَاضِهِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَابْتَاعَ: اشْتَرَى، وَأَعْتَقَهَا أَي مِنَ النَّارِ، بِتَجَنُّبِهِ الْمَعَاصِيَ وَشَهَوَاتِ الدُّنْيَا» وَقِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الَّذِي عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا - : كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: كَدَارَ لَهَا بَابَانِ دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى» «قَلِيلٌ: سَرِيعُ النِّقْضِ» وَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَانَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا
أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أي في سرعة تفتتها وذهاب نعيمها
بعد إقبالها واعتزاز الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أي
متمكنون من حصيدها، وأنها أمرنا، أي نزل بزورها ما يحتاجه فجعلها الله
كأنها حصدت من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور
حين حضرته الوفاة: يعبنا الآخرة بتومة... وقال شاعر:

أراها وإن كانت تُحِبُّ فإنها سحابة صيفٍ عن قليلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بني فلان إلا طيفاً لما انتبهوا وإلى
عندهم، وقال آخر:

مَرَزْتُ بِدُورِ بَنِي مُضْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوَيْسٍ يُسَمَّى فُرْحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضي والحاضر والمستقبل

قال الحسن البصري: أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل...، وقال
حكيم: بيني وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته
وأما غد فإني وإياهم منه على خطر، وما هو إلا اليوم، فما عسى أن يكون!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ مَا وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاجِ فِي حُطْبَتِهِ: إِنَّ أَمْرًا آتٍ عَلَيْهِ سَاعَةً مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكَرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرَ فِي مَعَادِهِ ، لَجْدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري ، وهي ما قاله على ذؤابة المنبر : أيها الناس ؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ ، فإنها أسألُ شَيْءٍ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا بِخِطَائِهَا فِي اللهِ ، وَعَظَّفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ ... « ائذعوا : أى ائمتوا ، والخطام : حبل من ليف أو شعر أو كنان يُثْنَى طَرَفُهُ عَلَى مِحْطَمِ البعير ليقاد به ، والزمام : حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم : مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيئَةً ، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ :

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
« خائضاً : يريد مقبها في خفض ودعة »

وقالوا : أَنفَاسُ المَرءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ ، وَأَمَلُهُ خَادِعُهُ عَنِ عَمَلِهِ :

وقال الشاعر :

مَا رَتَدَ طَرْفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ
وقال أبو العتاهية :

تَطَلُّ تَفْرُحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجْلِ

وقال عمرو بن قيسة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَامِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنْوَاءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي
رَمَتْنِي بِنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بَمَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامٍ
فَلَوْ أَنَّهَا تَبْسَلُ إِذْنًا لَا تَقِيئُهَا وَالكَتْنَى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ

د قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنمك فى غيئه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضم حبل الخظام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهور حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التفاسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوء ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكسب ابن آدم إلا الصلوة والسلامة لكفى بهما داء « لأن السلامة تُسلبه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم » وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من أمته ! وقال حميد بن ثور الهلالي - وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصْرَى قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَا يَلْبَثُ الْعَصْرَانُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَمَا تَيْمَمَا

وقال أبو حَيَّةَ الثَّمِيرِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَّ مِمَّا لَبَسْنَ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبدالرحمن بن سُويدِ العُمريِّ -

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَالآنَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لغامزٍ : من الغمز ، وهو العُضْرُ باليد وهو مَثَلٌ يريد : أنه كان صُلبَ العُودِ شديد القوة على من يشتد ويجتري عليه » وقال النَّمِرُ بن تَوَلَّبٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن إسلامه ، ومن قوله : صومُ شهر الصبر ، وصومُ ثلاثة أيام يُذهِبَنَّ كثيراً من وَحَرِ الصَّدْرِ - قال :

تَدَارَكَ مَا قَبِلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمَرُّ وَأَغْفُلُ
يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ النَّفْسَ بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصِحَّةِ يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
« والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى » ... وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
وهذا البيت من أبيات جميلة للصَّلْتَانِ اختارها أبو تمام في حماسه

يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِ يَرَكُرُ الْغَدَاةَ وَمُرَّ الْعَشَى

إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْفِضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح مُعَقَّبٌ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أَبُو شُرَّانَ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ
هُلْكَ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَوْلَا أَنَّهُ سُورٌ ،
وَيَوْمٌ لَوْ كَانَ يُوثِقُ لَهُ بَعْدُ... وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءَ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ
كَانُوا شِعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تُوْفِيَ سَنَةَ ٩١ هـ :
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمَّتْهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لِأَخْرَ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتُ
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَن عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ
الْمَعْتَزَلِي - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَدْفَعُ آفَاتِ بِلَآفَاتِ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمَتْرُوفِيُّ سَنَةَ ٤١٦ هـ يَصِفُ الدُّنْيَا - :

طَبِيعَتِ عَلٍ كَدَّرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْدَائِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلَّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارِ
وَإِذَا رَجَّوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارِ

«الجدوة: الجرة، والشفير: ناحية الوادى من أعلاه، وهار: يقال: هار الجرف والبناء: انهار وانهدم»

وقال شاعر:

أَمَرَ الزَّمَانُ لَنَا طَعْمَهُ فَمَا إِنْ تَرَى سَاعَةً عَذْبَهُ

وقال آخر:

أَفَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّمَا لِلْحُزَنِ مَخْلُوقَةٌ
هُدْمُهَا مَا تَنْقُضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَةً

وقال آخر:

تَأْتِي الْمَكَارِهِ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةً وَتَرَى الشُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ
وقال ابن نباتة السعدي:

وَمَا خَيْرُ عَيْنَيْنِ نِصْفُهُ سِنَّةُ الْكَرَى وَنِصْفُ بِهِ نَعْتَلُ أَوْ تَتَوَجَّعُ
مَعَ الْوَقْتِ يَمِضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالْوَقْتُ عَمْرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشريف الرضي:

يَا أَمِنَ الْأَقْدَارِ بَادِرُ صَرْفِهَا وَاعْلَمْ بِأَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَاكُ
تُحَذِّمُ مِنْ ثَرَاكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْأَيَّامُ وَالْوَرَاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعَشَرُ وَجَدُوا الزَّمَانَ يَعِيثُ فِيهِ فَعَاثُوا
تَحْشُو عَلَى عَيْبِ الْغِنَى يَدُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَقْرِ بَحَاكُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّدَّ هَوَاتُ أَوْ دَفَعَتْ بِهِ الْأَحْدَاكُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيرَاثُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الْغُرُورَةَ حَاجَةٌ فَلْيَخْزِ سَاحِرُ كَيْدِهَا النَّفَاكُ
سَكَنَاتُهَا مَحْذُورَةٌ وَعُهُودُهَا مَنْقُوضَةٌ وَجِبَالُهَا أَنْكَاسُ

أَمْ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرَوُعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبِ وَإِنَّا
 إِنِّي لَا عَجَبٌ مِنْ رِجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاثُ
 كَنَزُوا السُّكُورَ وَأَغْلَوْا شَهْوَاهِمُ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ
 «صرفها: حَدَّثَانَهَا وَنَوَائِبَهَا، وَحِثَاثٌ: سِرَاعٌ، وَحِثَا التُّرَابُ: صَبَّهُ، يَقُولُ
 فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغِنَى يَغْطِي عِيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
 يَفْتَشُوا عَنْ عِيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيَلْصِقُوا بِهِمُ الْعِيُوبَ الْإِصْطَاةَ. وَنَكْتُ الْحَبْلِ:
 نَقْضُهُ، وَرِثَاثٌ جَمْعُ رِثٍ: بَالٍ، وَغِرَاثٌ: جَائِعَاتٌ...»

النقصان بعد التمام

قالوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ:
 وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيَّتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أُخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ، وَهِيَ:

أَحْدَثَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُدْتُ وَلَمْ تَخَفْ غِيبَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَأَلْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ السُّكْدَرُ
 وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...

وَالْبَيْتِ الْمَشْهُورِ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَضَ الدُّنْيَا عَارِيَّةً، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
 وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَيْفُ مُرْتَحِلٌ «العارية: مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
 أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَ تَمُّ تَرْدُهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَعَرَضَ الدُّنْيَا: مَا نَزَلَ مِنْهَا
 مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَّائِمِهَا»

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تَسْتَرِدُّ مَاتَهُبُ الدنِيا فِيا لَيْتَ جُودِها كانَ بِمُخْلا
فَكَفَّتْ كَوْنُ فَرِحَةٍ تُورِثُ الغَمَّ وَخِلَ يُغادِرُ الوَجدَ خِلا
• يقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتَهُبُ وتعطى ، فليتها بخلت وما
جادت إذ لو بخلت ولم تعط لسكرتنا الفرح بوجود شيء يعقب لنقده الغم ،
والفرح بوجود خليل يؤنس بقربه ثم تخترمه المنية فيغادرُهم خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحِياةِ أنْفُسُ في النَفِّ سَ وَأشْهَى من أنْ يُمَلَّ وأُحَلِّ
وَإِذا الشَيْخُ قالَ أَفِ فِما مَلَّ حِياةِ وإِنما الضَّعْفَ مَلَّ
آةُ العَيْشِ سِحَّةٌ وشِبابٌ فَإِذا وَآيا عَنِ المَرِّ وَلى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنقضى بما كان فيها من بلاءٍ ومن خفيضٍ
فهو نك لا تحفلُ إِساءةَ عارِضٍ ولا فرحةً تأتي فِكِلتاُهما تَمْضى
• الخفيض : الدعة ولين العيش وسعته ، والهون مصدر الهين في معنى
السكينة والتثبت والوقار والرفق قال :

فَهو نَكْما لا يَرُدُّ الدَّهْرُ ما فانا لا تَهْلِكُ أَسفا في إِثْرِ مَنْ ما نا

وقال آخر :

وما اکتأبت نفس فدام اکتأبها ولا ابتجعت نفس فدام ابتأجها
 ودخل أعرابي عُمر مائة وعشرين سنة على معاوية رضى الله عنه ، فقال له :
 صِف لنا الدنيا ، فقال : سُذَيَاتُ بِلَاءٍ وَسُذَيَاتُ رِخَاءٍ ، يولدُ مولودٌ وبهلكُ هالكٌ
 ولولا المولودُ بادَ الخلقُ ، ولولا الهالكُ ضاقت الأرض .

الدنيا غزارة

قال بعضهم : هذه الدنيا قَحْبَةٌ يومًا عند عطار ، ويومًا عند بيطار ...
 وقال المتنبي :

فَدَى الدارُ أَخونُ من مومسٍ وأخدُعُ من كَفَّةِ الحائِلِ
 تَفانى الرجالُ على حُبِّها وما يَحْصُلونَ على طائِلِ

« الحائِلُ : الصائدُ ذو الجبالة ، وهى الشَّرَك ، والطائِلُ : ما كان له قدر .
 يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوانة لبنيها كالومس مُخْلِفٌ مَنْ وثِقَ بها ،
 وهى كذلك أَخدُعٌ من جبالة الصائدِ تصرُّعٌ من اطمانِ اليها ، ثم قال فى البيت
 الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يحصُلوا من أمرها على طائِلِ لأنها
 تسترِدُّ ما تعطيه وتهدِمُ ما تبنيه ، وتمرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها .
 وقالوا : مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيةِ أَيْنُ مَشَّها وفى جَوفِها السُّمُّ الناقع ، يَهوى اليها
 الصبىُّ الجاهل ، ويحذَرُها الحازمُ العاقل . « يهوى إليها : يُسرِعُ وذلك كما تقول
 رأيت فلانا يهوى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفئدةً من الناس
 تهوى إليهم : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عمرو بن العلاء : كُنْتُ أُدورُ فى
 ضَيْعَتِي فى شِدَّةِ الحرِّ فسمعتُها تَفايِقول :

وإنَّ امرأً دُنْياءُ أَكْبَرُهمِ لَمُسْتَمِسِكُ منها بِجَبَلِ عُرورِ

فَنَقَشْتُ ذَٰلِكَ عَلَىٰ خَاتَمِي . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ عَرَفَ الْآيَاتِ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه - وقد ذُكِرَ له توَمُّ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمُ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالدِّيَةِ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَالدُّنْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةً :

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ أَتَقَلَّتِ
« وقد تقدم » ، وقال شاعر :

يَذُمُّونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُذَمُّ وَيُحْلَبُ
« لا يريحون درها فالدرُّ : اللبن يقول : إنهم مع ذمهم إياها يُلْحُونَ فِي
الإقبال عليها ويكلبون ويشرِّهون حتى ما يتركون درها يستريح ، وهذا على
المثل . . » ...

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضَرُّ مُحِبِّيهَا ، وَمَا كَرُمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيَّاهُ اسْتَخْدِمِي
مَنْ يَهْوَاكِ « وهذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تُضَرُّ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبَهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّهُ لَا يَدْرِكُ

غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفد أولاه، وأمل لا يدرك منتهاه .
وقال الشاعر :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تمين المكرمين لها بصغر وتكريم كل من هانت عليه
« الصغر : الصغار، أى الذل والضميم ،

وقال المتنبي :

ومن لم يعشق الدنيا قديماً ؟ ولكن لاسبيل إلى الوصال

« من : استهامية ، يقول المتنبي : من ذا الذى لم يعشق الدنيا من قديم
الدهر ؟ كل أحد يهوى الدنيا ولكن لاسبيل إلى دوام وصالها ، أى أن
كثيراً من عشاقها واصلها وواصلته ولكن لاسبيل إلى دوام الوصال فإن
وصالها يعقبه الهجر وسرورها يعقبه الحزن وأيادها تنتهى بالموت »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل للحسن البصرى : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يصبح من دو
غرض لثلاثة أسهم : سهم رزية ، وسهم بلية ، وسهم منية . وقالوا : من
أخطأه سهم المنية لم يخطئه سهم الرزية ، وقال ابن المعتز :

الدهر يطرف بالعنا والناس بين جفونه

« يقال : طرف بصره يطرفه طرفاً : إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر ؛

والعنا هو العناء أى النصب » وقال أبو العتاهية :

أف لدنيا تلاعبت بي تلاعب الموج بالغريريق

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اعْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي
فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْأَخِيرَ أَبَدًا شَرٌّ ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ (١) :
مَعْرُوفٌ زَمَانِنَا مُنْكَرٌ زَمَانٍ قَدَفَاتٌ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفٌ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَافِ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ كَبِيدًا ، كَيْفَ لُوْعَاشٍ إِلَى زَمَانِنَا ! وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزَّيْبِرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لُوْعَاشَتْ إِلَى
زَمَانِنَا ! وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بِلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًا
بِلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنْ مَاضَى الزَّمَانُ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ
حَدِيثَهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَامَاهُمْ وَمُحَدَّثُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَأَخْرَهُمْ
سَوَاسِيَةً فِي أَنْهُمْ خَلْفَ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ
السُّكْرَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسْتَاذِهِ أَبِي الْحَسَنِ
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمَجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كِتَابِ ابْنِ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمِرُ بْنُ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْعَفَّانِ

في ذمّ الزمان^(١)، قال البديع: نعم أطالَ اللهُ بقاءَ الشيخ الإمام، إنه الخَمُّ
المَسْنُونُ^(٢)، وإن طُنَّتِ الظُّنون، والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تقدّم،
وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فَسَدَ الزَّمان، أَفْلا
يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخِرَها وَسَمِعنا أَوَّلَها؛
أم المَدَّة المَرَوَانِيَّة وفي أخبارها « لا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها »^(٣)... أم
السَّنين الحَرَبِيَّة^(٤):

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلِي وَالرَّمْحُ يُرَكَّزُ فِي السَّكَلِي^(٥)

(١) قيل: ذكر الهمذاني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق
تعليمنا إياه، وعمتنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان،
فبلغ ذلك، البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
(٢) الحمأ: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المنتم.
(٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لَا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاسِجُ
وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِها فَإِنَّ شَرَّ اللَّسَنِ الْوَالِجُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها
والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها
والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والوالج: الذي يالج في ظهورها من
اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزّر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك
فألعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني
مروان وقلة الخير في أيامهم

(٤) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنة
(٥) الطلي: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفعه وأثبتته والسكلى:
جمع كلية وكلاوة، والكليتان أو الكلاوتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَرْبَلَا (١)

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول: لبيت العشرة منكم برأس، من بني فراس؛
أم الأيام الأموية (٢) والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؛ أم الإمارة
العدوية (٣) وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا النزول؛ (٤) أم الخلافة التيممية (٥)
وهو يقول: طوبى لمن مات في نأنة الإسلام (٦) أم على عهد الرسالة
ويوم الفتح قيل: أسكني يا فلانة، فقد ذهب الأمانة؛ أم في الجاهلية
وليد يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلْدِ الْأَجْرِبِ

(١) حجر: هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولى زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد، ففعل، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره، انظر تاريخ الطبرى في حوادث سنة إحدى
وخمسين، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حرة واقم وهي شرقي المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير، وكربلاء موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذى قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب

ابن لؤي، وهم رهط عمر

(٤) البزول: تشقق ناب البعير، وذلك في السنة التاسعة، يريد بهذا: وهل بعد

الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان؟ (٥) يريد خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

والتيممية: نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، وهم رهط أبي بكر

(٦) النأنة: أول الإسلام قال الزمخشري: ومعناها: الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :
 بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُعَبَّرٌ قَبِيحٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِبَارِيهَا : أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَاءَ ، (١) مَا فَتَسِدُ النَّاسُ ، وَلَكِنْ أَطْرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظَلَمَتِ الْأَيَّامُ ،
 وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يَفْسُدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنِ صِلَاحٍ ، وَيُمْسَى الْمَرْءُ إِلَّا
 عَنْ صَبَاحٍ !

إنكار ذم الدهر

رَوَى النَّاعِنُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا تُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأِنَّهُ
 فَاعِلُهُ لَيْسَ الدَّهْرُ ، فَإِذَا شَتَمْتَ الدَّهْرَ فَكَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ اللَّهَ : وَكَانَ مِنْ شَأْنِ
 الْعَرَبِ أَنْ تَدْمَ الدَّهْرَ وَتَسْبَهُ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ
 أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْمَعُونَ
 الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيُذَمُّونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجْمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ
 بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلَقَ آخِرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ
 أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر ، على تأويل : لا تسبوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سببتم فاعلها فإما يقع السب على الله تعالى لأنه الفاعل لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وكم نكني وكم نهجو الليالي وليس نخصمنا إلا القضاء^(١)

وقال رجل للأصمعي : قد الزمان ، فقال :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس^(٢)

والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان بنا هجانا

وقال المتنبي :

ألا لأرى الأحداث حمدا ولا ذما فسا بطشها جهلا ولا كفها حلما^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العاتية : أى خلق الله أصغر عنده ؟ قال :

الدنيا ، لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، قال : أصغر منها مجيها ...

المسرة من حيث تخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طلب الحجاج بن يوسف التقي أبي ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لانهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحمد الحوادث السارة ولا أدم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لدسير بصحراء اليمن إذ لحقنا لاحق يُنشدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُرُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ ، قال : فقال أبي : أَصْرِفُ رِكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... « ربما
 تكره النفوس ... ألبيت هو لآمِيَّة بن أبي الصلت وقبله :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدْوَارِ فَقَدْ تُكْشَفُ عَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرَجَةٍ « بفتح الفاء ،
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَقُّصُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخِرَى ، أَى الْفَرَجَةُ بِالضَّمِّ : كُلُّ
 مَنْفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَنَحْوَهُمَا . وَالْغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفِ الْمَضَارُّ مِنَ
 خَلَلِ الْمَسَارِ ^(١) ، وَارْجُ التَّنْفَعِ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَمْنُ مِنْ
 مَحَلِّ الْفَرْعِ ؛ وَقَالُوا : أَعْنَاقُ الْأُمُورِ تَنْشَابُهُ ، فَرُبَّ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٍ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَائِهِ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :
 رُبَّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَافِ سَبَابًا ، وَمَكْرُوهٍ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :

وقد يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ
 وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحُ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضَرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهَ عَمَّا يُبْسَرُ ... وقال سيدنا رسولُ الله « اشْتَدَّى أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنْ الشَّدَّةُ إِذَا تَابَعْتَ أَنْفَرَجْتَ
 وَإِذَا تَوَالَّتْ تَوَالَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَسَى
 أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلل المسار : أى من خلاها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِمَخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لأضربنَّ عُنُقَكَ ، أقتلوه ، فدخل الهيثمُ بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فذنا منه فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هَبْ
 بُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَدِيمُ ، فقال : هو لك ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأْتِي عَلَى
 اللَّهِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فأخذ يأكلُ ويضحك ، فقيل له : تضحكُ
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتِ صَيْحَةَ قَقِيلٍ :
 مات الملك ، فخلَّوا الرجل ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَّالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عَمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فقال حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فاحلَّه إلا وقد
 عَزِلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بِعَيْنِهَا ...

من زال كربه فَنَسِيَ صُنِعَ اللَّهُ

قالوا : ما صاحب البلاء الذي طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المعاني . وقيل :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكَةِ . وشكا يوسف
 عليه السلامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبِسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قَاتَ : السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ . وقال الله عزَّ وتقدَّس « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَا نَا لِحَبْنِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا
 إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وقال سبحانه :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْجِيَنَّكُمْ

من هذه لتكوننَّ من الشاكرين ، قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كَلَّ كَرْبٌ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عرفت ببلية نزلت ، ونعمة جهلت بسلامة لبثت .
وقالوا : شيئا لا يعرف فاضلها إلا من فقدتها : الغنى والعافية ... وقال الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ
وقال المتنبي :

• وبضدها تتبين الأشياء •

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طَيْبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ
وقال المتنبي :

ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا غفلنا فلم نشعر له بذنوب
« يقول المتنبي : إن الدهر تارة يُحَسِّنُ وتارة يسىء فلولم يحسن إلينا
بالجمع بيننا لما شعرنا بذنوبه في تمريقنا ، فإحسانه عرفنا إساءته »

فَضْلُ الْعَافِيَةِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »
« قال ابن بري : قال جماعة من أهل اللغة : السُّرْبُ : النفس قال : وأنكر

ابنُ دَرَسْتَوِيَه قولَ من قال في نفسه قال : وإنما المعنى : آمِنٌ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ في سيره ، وإنما السَّرْبُ هُهنا : ما للرجل من أهل ومالٍ ، ولذلك سمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرْبًا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمنًا في سيره والفحلُ آمنًا في سيره ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبحذافيرها : بأسرها «
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْبًا لِحَمَّةٍ ولم تَحُلْ من قوتِ يَحِلٍّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِينَ فَإِنَّهُمْ على حَسْبِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْأُبُ
«السربال : القميص ، وحلٌ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أوتِيَ العافيةَ فَظَنَّ أن أحداً أوتِيَ أكثرَ منه فَمَقَدُّ قَلَلٍ كثيرًا وكَمَثَرٌ قَلِيلًا » كثر قليلا ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضى فَحَلْمٌ وأما ما بقي فأمانِي . وقال بكر بن عبد الله : المُسْتَغْنَى عن الدنيا بالدنيا كالمُطْفَعِ النَّارِ بالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غُوم ، فما كان فيها من سرور فهو رَيْج . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضَرَّتَانِ إن أَرْضَى إحداهما أَسْحَطَ الأُخرى ... وقال سُفيان الثوري : تَرَكَ المُلُوكُ لِمِ الحِكْمَةِ فَاثْرُ كَوَالِهِمُ الدُّنْيَا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا في الدُّنْيَا دُخُولًا

أخرَجنا منها . وكان الحسن البصري كثيرا ما يتمثل كلما جرى ذكر الدنيا - :

اليومَ عندك دَلمَا وحديثُها وغداً لغيرك كَفْها والمعصم
وهذا البيت كذلك يقال في غدر المرأة ونلة وفاتها . وكان إبراهيم بن آدم
العجلي يقول :

نُرَقِعُ دُنْيَانَا بتمزيقِ ديننا فلا ديننا يَبْقَى ولا ما نُرَقِعُ
وقال السيد المسيح : أنا الذي كفأت الدنيا على وجهها ، فليست لي زوجة
تموت ولا بيتٌ يَحْرَبُ . وقيل لمحمد بن واسع : إنك لترضى بالدون فقال :
إنما رَضِيَ بالدون مَنْ رَضِيَ بالدنيا ... وقالت امرأة لزوجها ورأته مهموما :
مِمَّ هَمُّكَ ؟ أبالدنيا فند قرغ الله منها أم بالآخرة فزادك الله همًّا ؟ وقال السيد
المسيح : حُبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة والمالُ فيها داءٌ كثير ، قيل : ما دأؤه ؟
قال : لا يَسْلَمُ صاحبه من الفخر والكبر ، قيل : وإن سَلِمَ ؟ قال : يَشغله
إصلاحه عن ذِكرِ الله . وقال سيدنا رسول الله : مَنْ أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وسَدَمَهُ ^(١) نزعَ اللهُ الغنى من قلبه ، وصَيَّرَ الْفَقْرَ بين عَيْنَيْهِ ولم يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كَتَبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ نزعَ اللهُ الْفَقْرَ من قلبه
وصَيَّرَ الْغِنَى بين عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاعِمَةٌ ... وقال سيدنا رسول الله
للضحَّاك بن سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قال : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قال : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قال : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدِ عَلِمْتَ ، قال : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وكان بشرُ بنُ كَعْبٍ يقول لأصحابه إذا قرغ من
حديثه : انطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فيجىءُ فيقفُ بهم على السُّوقِ ، وهى
يومئذ مَزْبَلَةٌ ، فيقول : انظروا إلى عَسَلِهِمْ وَسَمْنِهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشيء .

صارَ إلى ما ترون...

وقال محمد بن وهيب: (١)

نُزاعٌ لِيذِكرِ الموتِ ساعةَ ذِكرِهِ وتَعَرِّضُ الدنْيا فتلَهُو وتَلْعَبُ
ونحنُ بنُو الدنْيا حُلِقْنَا لِغَيْرِها وما كُنْتَ مِنْهُ فهُوَ شَيْءٌ مُحِبُّ (٢)
يَقينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرفانٌ إلى الجَهْلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنَا الجَنائِزُ مُقْبِلاتٍ فتَلَهُو حينَ تَذْهَبُ مُدْبِراتٍ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لَمُغَارِ ذَنْبٍ فلما غابَ عادتُ راتِعاتٍ (٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُملي:

• ودَعِ أَمامَةَ حانَ مِنْكَ رَحِيلُ •

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الجَنائِزُ، قلتُ: فَلِمَ تُسَابُ
الناسَ! قال: يبدؤونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هـذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... ألبت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بِشِكِّ
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتمد وبعث وسطاً في طبقة
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمخ الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظُرَفَاءِ : إن الدنيا قدِ اسْتَوَدَّقتْ وأنعَطَّ الناس : « استودقت يقال : ودقت الفرس تدقُّ ودقاً واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليتهيأ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كَرَبٌ يُسَارُ بهم وهم نيام .. ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجلٌ وهو فى خُطبة : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا فقال : ما أصفُ من دارٍ أو لها عِناءٌ وآخِرُها فناءٌ ، فى حلالها حسابٌ وفى حَرَامِها عقابٌ ، مَنْ صَحَّ فيها ما مِئِنَ ، ومن مَرِضَ نَدِمَ ومن استغنى فُتِنَ ، ومن افترق فيها حَزِنَ ! وقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا عَرَضٌ تَلْتَضِلُ فيه المَنابِيا ، ونَهَبٌ للصابِيا ، ومع كلِّ بَجْرَعَةٍ شَرِقٌ ، وفى كلِّ أَكْلَةٍ عَصَصٌ ، ولا يَنالُ العبدُ فيها نِعْمَةً إلا بفراقٍ أُخرى ، ولا يَسْتَقْبِلُ يوماً من عمره إلا بهَدْمٍ آخَرَ من أَجَلِه ، فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ ، وأنفُسنا تسوقنا إلى الفناء ، فمن أين نرجو البقاء ! وهذا الليلُ والنهارُ لم يَرَفعا من شىءٍ شَرِفاً إلا أَسرعا السكرة فى هدمِ ما بَنِيا ، وتفريقِ ما جَمعا ، فاطلبوا الخَيْرَ وأهملهُ ، واعلموا أن خيراً من الخَيْرِ مُعْطِيه ، وشراً من الشرِّ فاعِلُهُ ... « الغرض : الهدف ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً والجمع نهبٌ وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ فالحتف : الموت ، ومعنى أننا أَعوانُ الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما رَبِنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُجَدِّثُها المِأْكَلُ والمشارب ، أو من سِقطَةِ يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكِبها أو من ضَعْفِ يلحقه من الجِماعِ المفرط أو مصادماتٍ واصطكاكاتٍ تصيبُهُ عند تصرفه فى ما رَبِه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك وتقرّبك من يومك ، فأية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق ! فنأمل أمرك فكأنك قد صرّت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحلهم إلا في غيرها ، قوله : تزدلف بك إلى حمامك : أى تُقرّبك إلى موتك ، والمحترم المستاصل والمقتطع .

وقال حكيم : من ذا الذى يبني على موج البحر داراً ، تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرّب المنية ، ويُبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفّر به تعب ، ومن فاته الكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيْشِ يُسْرُهُ فسوف لِعَمْرِى عن قليل يَلُوهُما
إذا أدبرت كانت على المرء حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلّ الحِرْصُ أعناق الرجال
هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذلك إلى الزَّوالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ نِيءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنٌ بَاتِقَالِ
ولنجزئ هذا المقدار فَعَبَقْرِيَاتِهِمْ فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .

عقبرياتهم في الموت

أسماء الموت ووصفه

الموت: ضد الحياة، ويقال: مات يموتُ ويمَاتُ — لغة طائفة — وقالوا: مِيتَ تَمُوتُ؛ قال ابن سيده؛ ولا نظير لها من المعتل، ورجلٌ مَيِّتٌ ومَيِّتٌ، وقيل: الميِّت: الذي مات، والميِّت والمائت: الذي لم يمُتْ بعدُ، يقال: هو مَيِّتٌ غدا ومائتٌ ولا يقال: مَيِّتٌ، قالوا: وهذا خطأ، وإنما مَيِّتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت، وقد جمع بين اللغتين عدى بن الرِّعَاء الغساني - والرِّعَاء أمه - فقال:

ليدس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميِّتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميِّتُ من يعيش كثيراً كاسفياً بأله قليل الرجاء
فأناسٌ يُصَّصُونَ نِمَاداً^(١) وأناسٌ حُلُوفُهُمْ في الماءِ

فجعل الميِّتَ كالميت... ويقال للموت: الهَمِيْعُ، وقيل: الهَمِيْعُ: الموتُ المُعْجَلُ. أقول: ولعله سُمي كذلك لأن الروح تَمُتُ: أى تسيل، من هَمَعَتِ الدَّمَعُ والماء: سال. ومن أسماء الموت أيضاً: النَيْطُ، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال: لَوَدَّ مُعَاوِيَةُ أَنَّهُ مَابِقٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَافِخُ ضَرْمَةٍ إِلَّا طَعِنَ فِي نَيْطِهِ^(٢)، معناه: لإلامات، قال ابن الأثير: والقياس: النَوُطُ، لأنه من ناطَ ينوطُ: إذا عَلَّقَ، وقيل: النيط: نياط القلب، وهو: العرق الذي يَتَمَلَّقُ به القلب... ومن أسماء الموت: الرَّمْدُ قال أبو وجرة السعدي:

صَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَرَكْتُمْ كَأَصْرَامِ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

«الحاصب: العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء، والأصرام: الجماعات

(١) النباد: الماء القليل الذي لامادة له (٢) الضرمة بتحريك الميم: الجرة أو النار نفسها، ويقال ما بالدار نافخ ضرمة: أى ما بها أحد.

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا^(١) ومن أسمائه : أمّ قشعَم ، قال أبو عبيد : أمّ قشعَم : المنيّة ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النّسور والرّخَم : قشعَم ، إطّول عمره . وأمّ قشعَم في قول زهير في معلقته :

فَشَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ يُبِوتَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنيّة ، وقيل : الضّبع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذّيلة ... ومن أسمائه : أمّ اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أمّ اللّهِم : المنيّة ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شُعُوبُ ، قال ابن السكّيت : شعُوبُ : اسم المنيّة ، مؤنثة معرّفة لاتصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدُوعُ يَوْمًا شُعُوبٌ يُجِبُّهَا ❖

قال : وإنما سميت المنيّة شعُوبَ لأنها أشعُوبٌ — أى تُفرّق — يقال : شَعَبَ وَأَشَعَبَ وَأَنْشَعَبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : الفوْدُ ، فَاذُ يَفوْدُ فوْدًا : مات ، قال لبيد بن ربيعةَ يذّكر الحارث بن أبي شمر الغَسّانيّ ، وكان كلّ ملك منهم كلما مضت عليه سنةٌ زاد في تاجه خَرَزَةٌ ، يُرادُ بذلك أن يُعلمَ عدَدُ السنين التي ملكها ، فأراد أنه عمّر حتى صارَ في تاجه خَرَزَاتٌ كثيرةٌ :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَاذُ وَالشَيْبُ شَامِلُ
ومن أسمائه : الحِطَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حِمَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدْرُهُ ، مِنْ حُمِّ كَذَا
أى قَدْرَ أَنْشَدَ ابْنُ بَرِّى لِحَبَابِ بْنِ عُزَيِّ :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطّاب رضی الله عنه

وَأَرْجَى بِنَفْسِي فِي فُرُوجٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةَ اللَّهِ صَارِفٍ
 وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ
 الْهَذَلِيُّ ...

✽ أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَئِيهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعِبَادِيِّ :
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدَنَّ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
 مَعْنَى الْعَمُومِ وَالكَثْرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدْمَى الدَّوَاهِي ؛ وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : مَنْ
 أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمَنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مَنُونًا
 لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَنَّةِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
 صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
 يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ النَّعْمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعِ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
 سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
 وَذُعَافٍ وَزُوَافٍ وَجُحَافٍ ، جُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُقَالُ : سَبِلَ
 جُحَافٌ وَجُرَافٌ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٌ وَذُوَافٌ وَذُعَافٌ : سَرِيعٌ
 وَجَنِيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيُ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
 فُجَاءَةً : فَمَقَسَ يَفْقَسُ فُقُوسًا ، وَفَقَاسَ يَفْقِطُسُ فُقُوسًا ، وَيُقَالُ لَعَقَى إِصْبَعَهُ
 وَطَانَ وَتَلَبَّلَ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
 وَيُقَالُ : جَرِحَ بِرَيْقِهِ ، وَأَصْلُ الْجَرِحِ : الْغَضَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانَى غَضَصَ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القَريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للمندر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : العَصُصُ واختلاف الفكين عند الموت ، والقريض : الجِرَّة»^(١) - لأنه إذا عُصَّ لم يقدر على قريضِ جِرتِه ، والقريض أيضاً : الشَّعر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلَّ تركيبُه ، وبَضِيَ لِمَا حُلِقَ له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهرُ عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصَفِرَ وطابه ، ومعناه : أن جسّمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للوت قول سيدنا رسول الله : أَكثِرُوا من ذكرها ذِمَّ اللذاتِ^(٢) ... ولنَجْتزِي بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إنَّ الموتَ قد فَصَحَ الدنيا ...

وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً إن عشتَ تر مالم تره ، فقال : إن مِتَّ تر مالم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ منظرًا فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يباعه

(٢) قرأ هادم بالبدال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية

بالمعجمة .

(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

المختص لابن سيده

حتمهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصرىُّ إذا خَوَّف من الموت يقولُ للشَّيْخِ : الزرعُ إذا
بانغ ما يُصنَع به؟ قالوا : يُحصَد ، ويقول : للشَّبان : يامعشرَ الشَّبان كم
من زرع لم يبلغْ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخلفاء لابن السَّمَك^(١) : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال : اعلمْ أنك أوَّلُ
خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أردشيرُ بعضَ الحكماء عن دار بناها وقال : هل
ترى فيها عيباً؟ قال الحكيم : نعم ، عيباً لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو؟
قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أردخلةٌ لا خروج بعدها ... وقالوا :
من ضاق به أمرٌ فليذكُر الموت فإنه يتسعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَبَ أَنَّهُ
يَمُوتُ فَلَيْسَ يَفْنَى أَنْ يُغْتَمَّ لِأَمْرٍ صَعْبٍ يَنْزِلُ بِهِ .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قسارة قلبه فقال صلوات الله عليه :
أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ هَازِمَ اللَّذَاتِ ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ
وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ ... وقال بعضُ الصالحين : نِعْمَ نَصِيحَةُ الْقَلْبِ
ذِكْرُ الْمَوْتِ ، يَطْرُقُ دُنُوقَ الْأَمَلِ ، وَيُكْفِكِفُ غَرْبَ الْمُنَى وَيَهْوِنُ الْمَصَائِبَ ، وَيَحْمِلُ
بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الطُّغْيَانِ ... وقال الحسنُ البصرى - وقد قعد عند رأس
مَيِّتٍ : إِنْ أَمْرًا هَذَا آخِرُهُ لِأَهْلٍ أَنْ يُزَهَّدَ فِيمَا قَبْلَهُ ، وَإِنْ أَمْرًا هَذَا أَوَّلُهُ
لِأَهْلٍ أَنْ يُحَذَّرَ مَا بَعْدَهُ ، وَنَظَرَ الْحَسَنُ إِلَى صَبِيَّةٍ بَيْنَ جِنَازَةِ أَبِيهَا فَقَالَ :
يَا أَبَتِ مِثْلَ يَوْمِكَ لَمْ أَرَهُ ، فَضَمَّهَا الْحَسَنُ وَقَالَ : أَيْ بُلْبِيَّةَ ، وَأَبُوكِ مِثْلَ
هَذَا الْيَوْمِ لَمْ يَرَهُ ؛ فَبَكَى النَّاسُ ... ومَرَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَابِرِ

(١) هو أبو العباس محمد بن صالح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المفقرة، أتم لنا
سلف ونحن لكم تبغ، أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت،
وأما الأموال فقد قسمت؛ هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم انفت
إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: إنا وجدنا خير الزاد التقوى.

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب التقوى:
أيا يا ابنَ الذين فنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين: إن أمراً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد:

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معدي فلتزعك العواذل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها:
ألا تسألان المرء ماذا يجاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا تحالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمته تصفر منها الأنامل
وقوله: فإن أنت لم تصدقك ... ألبيت يقول: إن لم تصدقك نفسك عن
هذه الأخبار، بل كذبتك، فانتسب: أي قل: أين فلان بن فلان، فإنك
لا ترى أحداً بقي، ولعلك تهديك القرون وتريشدك، وقوله: فإن لم تجد... ألبيت

فزعك : تكفك ، والعواذل هنا : حوادث الدهر وزواجره ، وقال
بعض الشراح : العواذل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حتى إلى عدنان
فكفَّ عن الطمع في الحياة ، ومعنى البيتين : إن غاية كلِّ حتى الموت ، فينبغي
للإنسان أن يتعظ : بأن يَلْسَبَ نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجدْ مَنْ بينه وبينه
من الآباء باقياً فليعلم أنه يصير إلى مصيرهم ، فينبغي له أن يَنْزِعَ عما هو عليه «
ومثله قولُ امرئ القيس :

فَبَعْضَ اللُّؤْمِ عَاذَلْتِي فَأَيُّ سَيِّكْفِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلَى عِرْقِ السَّعْرَى وَسَجَّتْ عُروقي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي سَبَابِي
« وَسَجَّتْ » : اشتبكت ، وقال أبو تمام في قصيدة له يمدح مالك بن طويق
ويعزبه عن أخيه القاسم :

تَأْمَلُ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدُّنْ سَالِمًا إِلَى آدَمِ أَمْ هَلْ تَعُدُّ ابْنَ سَالِمٍ
مَتَى تُرْعِ هَذَا الْمَوْتَ عَيْنًا بَصِيرَةً تَجِدُ عَادِلًا مِنْهُ شَيْمًا بَظَالِمٍ
« قوله : متى تُرْعِ ألبيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت في أمر الموت
وجدت منه عادلاً أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يخترمُ من يكون اختراؤه أصلاً
له لدى العزيز الحكيم الذي يعلم مصالح خَلْقِهِ وقد يَخْفَى عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ
فتظنُّ العدلَ جوراً ،

وقال البُحْتَرِيُّ

وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكَبٍ مَنَابِهِمُ رَوَاحُ وَإِتِّكَارُ
لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالٌ تُرَجِّبُهَا وَأَعْمَارٌ قِصَارُ
والبيت الثاني مثله قول ابن هانئ الأندلسي من أبيات يَرْتِي بِهَا وَالِدَةَ
يحيى وجعفر ابني علي صاحب الميعة بالمغرب ، وهذه هي الأبيات :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ النَّذْرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا ، وَالغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحِنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تُنْتَحَنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ (١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَلَمِي أَنْتِي بَشْرُ
 حَرِسْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمْ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالذَّهْرِ رَأَيْتَ الْمُهَيَّرَ الْمُؤَفَّرُ (٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَائِقُ مِنَ الْآيَا بِمِ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَذُونِ خَلْدُنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ (٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنْ أَمِنْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ (٤)
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الرُّو بِمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ

(١) أى ما عد من המתحنتات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا

يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) المؤففر : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المذون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور

ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرِ إذ بناه وإذ دَجَّ لهُ مُجْبِي إِلَيْهِ وَالخَابُورُ (١)
 شَادَهُ مَرَمْرًا وَجَلَّاهُ كِأَنَّ سَاءَ فَلَّطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ (٢)
 لَمْ يَهَبْهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَ الـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرِ تَقِي إِذَا أَصْبَحَ بوما وَلِلْهَدْيِ تَفْكِيرُ (٣)
 سِرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْدُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْرُ (٤)
 فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ : وَمَا غَيْبُ طُهُ حَيَّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمَلِكِ وَالنَّعْمَةِ مِةٍ وَأَزَتْهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ بَجَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ (٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي يرثي بها بني الألفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فاوْجَدُوا جَنَّةً نَقِيهِمْ مِنْ وَثْبَاتِهِ، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسفقتهم

(١) الحضِر : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضِر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغانى ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلّى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورنق - وهو القصر الذى بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغانى وهو الذى سأل على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معروض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

العينية بكأس حُتوفها، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالشُّوَرِ
 نِيدُ أَنَا لِطَوْلِهَا رَأَيْنَا أَنْ نُضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا، وَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
 الْخَامِسِ مِنْ نِهَايَةِ الْأَرْبِ لِلنُّوْبِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ...
 وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَلَا تَغُرُّكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ
 مَالِيًّا - أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
 فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصْرِ
 تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرُّ بِهِ كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ
 وَقَالَ الْمَتْنِيُّ :

أَبْنِي أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
 نَبِيٌّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرِ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَنْفَرُوا
 أَيْنَ الْإِكْبَارَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأَتْلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
 مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى تَمُوتَ فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
 حُرْسٌ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
 وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ نَفَائِسُ وَالْمُسْتَغْرُ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ
 وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أَبْنِي أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِغُرَابِ الْبَيْنِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
 يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلٍ يَنْفَرِقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : نَبِيٌّ عَلَى

(١) الأيم : الأفعى .

الدنيا... ألبت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لا يَلْبَثُ الْقُرْنَاةُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يُكْرِعُهُمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمنثاة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحَ

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور ، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنع ذلك من أخذها ، والاحمق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغير بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه ،

وقوله : والمرء يأمل ... ألبت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه ،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب ، يعنى : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له ، لأنه يكسبه الحلم والأناة والوقار ، والشباب شر

له ، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتَ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَظَنُّ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » ، وقال مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُدِيلِ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا فَتَخَرَّ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَاتَرُوا جَمِيعًا فَمَا نُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الثَّرَى وَتَمْحُو مَحَايِنَ تِلْكَ الصُّورِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيهَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمان بن المنذر ومعه عدى بن زيد العبادى فى ظل شجرة عظيمة
ليلهوا ، فقال له عدى : أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الخمرَ بالماءِ الزلالِ
نَمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم وكذلك الدهرُ حالاً بعد حالِ

ونظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقلت : لئن كنت فى الحياة غايبة فلقد صرت فى الممات آية ... ولما مات
الإسكندر المقدونى وقف عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالما كان هذا
الشخص واعظا بليغا ، وما وعظ بموعظة فى حياته أبلغ من عظته فى مماته ،
أخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أو عظ منك حيا

من مات فقد تنهى فى البعدِ

قال النابغة الذبياني :

حَسبُ الخالينِ نأى الأرضِ بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالي
وقال أبو حية النميرى :

فلا غائبٌ من كان يُرجى إياهُ ولكنه من ضمن اللحدِ غائبٌ



غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

وقال الحسن البصرى : مارأيتُ بَقِينًا لَأَشَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَابِقِينَ فِيهِ
 مِثْلَ الْمَوْتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي خُطْبَةٍ لَهُ : مَا هَذَا
 التَّغَاوُلُ عَمَّا أَمْرُهُمْ بِهِ ، وَالتَّسْرُعُ إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَقِينٍ فَأَنْتُمْ
 حَقِّقٌ ، وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى شَكِّ فَأَنْتُمْ هَلَكِي ...

وقال شاعر :

وَنَامِلٌ مِنْ وَعْدِ الْمَنَى غَيْرَ صَادِقٍ وَنَأْمَنُ مِنْ وَعْدِ الْمَنَى غَيْرَ كَاذِبٍ

نُرَاعُ إِذَا مَا شَيْكَ لِأَخْمَصٍ بَعْضُنَا وَأَقْدَامُنَا مَا بَيْنَ شَوْكِ الْعَقَارِبِ

« الْمَنَى : جَمْعُ الْمَنِيَّةِ وَهُوَ مَا يَتَمَنَاهُ الْمَرْءُ ، وَالْمَنَى : الْمَوْتُ ، وَأَصْلُهُ الْقَدَرُ
 تَقُولُ : مَنَى اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ : أَيِ قَدَرِ اللَّهِ لَكَ مَا يَسُرُّكَ وَيَسْمَى الْمَوْتُ بِالْمَنَى
 لِأَنَّهُ قَدَرٌ عَلَيْنَا ، وَقِيلَ : مَنْ لَمْ يَرْتَدِّعْ بِالْمَوْتِ وَبِالْقُرْآنِ ثُمَّ تَنَاوَحَتْ الْجِبَالُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ لَمْ يَرْتَدِّعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : مَنْ لَمْ يَمُتْ عَاجِلًا مَاتَ آجِلًا ؛ وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأَسِّ الْمَرْءِ ذَاتِهَا

مَالِدَةُ النَّفْسِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ عَاشَتْ قَلِيلًا فَالْمَوْتُ لِأَحْقِهَا

يَقُودُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَاشِيًا إِلَيْهِ سَائِقُهَا

« يقال : مات فلانُ عِبْطَةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العيبط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عَبَطَ الشاة والناقة وكلَّ دَابَّةً : نَحَرَهَا أو ذَبَحَهَا من غير داء وهي فَيْتِيَّةٌ ،

وقيل لابن المقفّع : قد كنت نُعَيْتَ لنا ا فقال : ما بعدُ كأن ولا قُربَ بآن ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جِسمي لِروحِي مَطيَّةٌ ولا بُدُّ يوماً أن يُعَرِّيَ مِنَ الرَّحْلِ

« الرجل : المنزل ، والسرج يوضع على ظهر الدابة ، وعُرِّيَ منه نُزِعَ عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحِبُ السَّبْعِينَ والعشْرِ بعدها بأقربَ مَن حَنَنَكُمُ للقوايلُ

ولكنَّ آمالاً يُومَلُها الفَتَى وفينَ للراجينَ حَتَّى وباطِلُ

« التوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحننكته

فالتحنينك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...

وقال المتنبي :

وأوفى حَيَاةِ الغايرينَ لصاحبِ حَيَاةِ امرئِ خانتهُ بعد مَشيبِ

« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر

أن يبقى حتى المشيب ثم يموت بغيره بعد ذلك ، وتصاراه الموت ، أو تقول : إذا

عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خانته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء »

ومرّ شيخ من العرب بـغلام فقال له الغلام : أَحصدتَ يا عمّاه ، فقال : يا بُني ،

وَأُحَصِّرُونَ « أَحصدت : آن لك أن تُحصدَ ، وتُحَصَّرُونَ : تموتون حُضْرًا في

شبابكم ،

الموت لا يتحرز منه بشيء ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوس في طَبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرِّهِ (١)
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلإِنسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعِ عن جَنْبِهِ (٢)
يَلْتَسِي بها ما كان مِنْ عُنْجِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ (٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَأَنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبَخَّلُ أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هيَ من كَسْبِهِ (٥)
فهذه الأرواحُ مِنْ جَوْهٍ وهذه الأَجسامُ من تُرْبِهِ (٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .

(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها ! فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فإيا أمان من أهل الآخرة سكننا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح مما أكسبه الزمان اقال حكيم : إذا كان تناقض الأرواح من كروار الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أما كنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوّ والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)
لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)
إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا:

وَعَايَةُ المُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَعَايَةُ المُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادِهِ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ في مَرَضِهِ: ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: أَنْظِرُونِي،
ثم فَكَّرَ فقال: وَعَادَا وَتَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ
كَانَ فِيهِمْ أَطِبَاءُ، فَأَرَى المُدَاوِي بَقِيَ وَلَا المُدَاوِي صَلُحَ....
وَدَخَلَ الفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءِ نَخْوَنَهُ إِنَّ الطَّبِيبَ الذِي أَهْلَكَ بِالدَّاءِ
هُوَ الطَّبِيبُ الذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَأَمَّنْ يَدُوفُ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالدَّاءِ

« الذِي أَبْلَى المَرِيضَ بِالدَّاءِ وَالذِي يَرْجَى لِعَاقِبَتِهِ: هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .
وَيَدُوفٌ: يَخْلُطُ . وَنَخْوَنَهُ: غَيْرَ حَالِهِ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: نَخْوَنَهُ وَالتَّرْيَاقُ:
الدَّوَاءُ هُنَا، وَأَهْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشئ المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى
زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شئ .
(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رأها طالعة علم أنها غاربة لاحالة، كذلك كل شئ .
مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب ،
الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجرع قال حكيم : آخر إفراط التوق أول موارد
الحتوف (٤) من خاف الموت لا أدرك حاجته ، يدعو المتني على الجبان - لأنه
إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فرعاً منه !

وقال ابن الرومي :

عَظَطَ الطَّيِّبُ عَلَى غَلْطَةٍ مُورِدٍ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحُونُ الطَّيِّبَ وَإِنَّمَا عَظَطَ الطَّيِّبُ إِصَابَةَ الْمِقْدَارِ (١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَيْمَمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَيْسِرَةِ وَالْآنُ مَا طِ أفضتْ إِلَى التُّرَابِ الْخَدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكَلُهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحِقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذَى اللَّوْتِ يَمِّنَ يَعُودُ

« السعوط: الدواء الذي يؤخذ من الأنف، واللدود: ما يؤخذ من
الدواء بالمسقط ويصَّب في أحدِ شِقَى الفم، ويروى: أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
هَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ، فَرَكِبَ لَيْلًا وَأَخْرَجَ غَلَامًا مَعَهُ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ،
فَقَالَ لِلْغَلَامِ: حَدِّثْنِي، فَاقْلُ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُحَدِّثَكَ؟ فَقَالَ: عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ، فَقَالَ: بَلْغَنِي: أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَحْمِيَهُ وَيَمْنَعُهُ يَمِّنَ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ، فَرَأَى الثَّعْلَبَ عُقَابًا، فَجَاءَ إِلَى الْأَسَدِ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَانْقَضَ
الْعُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ، فَصَاحَ الثَّعْلَبُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَغَشِنِي وَادْكُرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون: يلومون، والمقدار: القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَّتَنِي وَأَحْسَنْتِ، انصرفَ ورَضِيَ بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عُمرَ بن الخطَّابِ رضوانُ الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرفَ بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نَفِرُ من قَدَرِ الله إلى قدر الله؛ أرأيت لو أن لك إبلا هَبَطَتْ بها وادياً له جهتان إحداها خصيبة والأخرى جديبة، أليس لو رَعَيْتَ في الخصيبة رَعَيْتَها بقدرِ الله، ولو رَعَيْتَ الجديبة رَعَيْتَها بقَدَرِ الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علمٌ سَمِعْتُهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتمُ به - بالطاعون - في أرض فلا تَقْدَمُوا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله عُمرُ ثم انصرفَ بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبُطُ السَّوَابِقِ مُقْرَبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ من حَبِّ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا؟ وَلَكِنْ لاسَبِيلَ إلى الوصالِ

«المشرفية: السيوف - والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لفرط الحاجة إليها والخب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ والرماحَ لِمَنَازِلَةِ الأعداءِ ومُدافعةِ الأقران: والموتُ يَخْتَرِمُ نَفُوسَنَا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيأُ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَزَبْتُ الْخِيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّنُنَا مِنْ طَلْبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا
وَتَحَبَّبَ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّنا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ، فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُنُقِهِ ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَايِهِ : اللَّهُمَّ أَجْرُنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا ، أَيْ يُخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَابِسًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ بَخَاءً » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

رُبَّمَا عُرِفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يُقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلُ مُغَافِصَةً وَغِغَافِصًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ » ،
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمُوجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم النقي :

كُلُّ امْرَأَةٍ سَتَيْمٌ مِّنْهُ الْعَرْسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَتِيمٌ وتَأَيَّمَتْ مات عنها
زوجها أو قَتِلَ وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل ، »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجهه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ فِي حَالٍ ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي مَتَى يَغْشَاكَ إِلَّا تَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ
أَنْ يَفْجَأَكَ ! وقال ديك الجن ^(١)

والنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَا بَقَاءَ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمِقْدَارِ مَا عَلِمُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَّبِعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنِ أَقْدَامِنَا الرَّاحَ ثَارَهَا
مُورَّدَةً مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَادَارَهَا

وَصَلَتْ إِلَيْكَ يَدٌ سِوَاهُ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
 «الباز الأشهب: الذي غلب عليه البياض، والأبقع: الذي في صدره
 بياض يقول المتنبي: وصلت إليك يدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لديها
 سواء، فعلمها مع الباز الأشهب مع كرمه كعلمها بالغراب الأبقع مع قبحه
 ودمايته، وهذا على المثل»... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ؛ فَقَالَ: انظروا هل بقي بها أحدٌ من نَسْلِ
 ملوكها؟ فقالوا: رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنِ إِقَامَتِهِ هَذِهِ؛
 فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سِوَاءً،
 فَقَالَ: هَلْ تَتَّبِعُنِي فَأُحْيِي لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ؟ فَقَالَ: هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
 إِنْ أَنْتَبَيْتَنِيهَا، فَقَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ،
 وَغِنَىٌ لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي هَذَا، فَقَالَ:
 دَعْنِي أَلْتَمِسَهُ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا؛... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
 دِينَارٍ: قَدِمَ عَلَيْنَا بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ أَخُو الْخَافِقَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ -
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ
 - الْجَبَانَةُ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَمْ يَمُتْ إِلَى الْقَبْرِ، فَدَفَّنَاهُ وَدَفَّنُوا
 صَاحِبَهُمْ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ؛ وَفِي هَذَا
 يَقُولُ الشَّاعِرُ:

ولقد مررتُ على القبورِ فما ميزتُ بين العبيدِ والمولى

وقال صالح بن عبد القدوس:

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستبين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنَّ لله في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسكْرٌ ينزلُ من الأضلابِ إلى الأرحامِ ، وعسكْرٌ ينزلُ من الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسكْرٌ ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُفقاءُ غيرِ أتنا أقمنا قليلاً بعدهم ونزوحُ

وقال آخر :

إذا زُرْتُ أرضاً بعد طولِ اجتنابِها فقَدْتُ صديقاً والبلادُ كما هيّا

وقال : * أرى الأرضَ تَبَيُّ والأخلاءُ تَذَهَبُ *
وقيلَ للبهلولِ ^(٢) - وقد أقبلَ من الجبَّانِ - : من أين ؟ فقال :

من عسكرِ الموتى ، فقيلَ ما قلتَ وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟ فقالوا : ننتظرُ قدرَ مَكمْ ثم نرتحلُ ... ورووا : أن رَاهِبِينَ دخلا البصرةَ من ناحيةِ الشامِ فنظرا إلى الحسنِ البصرى ، فقال أحدهما : ميلُ بنا إلى هذا الذى كانَ سَمَّتَهُ المَسيحُ ، فعدَّلا إليه ، فألقياه مُقترشا بِدَقْنِهِ ظاهراً كَفَّهُ وهو يقولُ : يا عجباً ^(٣) لقومٍ قد أمروا بالزادِ وأذِنوا بالرحيلِ ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنوناً يمرورا وكان ظريفاً وكان يتشيع ، قال له قائل : اشتم فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشتم عائشة وأعطني نصف درهم أو مز به بعضهم وهو يأكل خبيصاً ، فقال له : أطمعني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجباً : لك أن تقرأه بالتونين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبى فقلب ياء المتكلم

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شِعْرَى ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه
الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخِرهم قُعود يلعبون « قوله :
أُسروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا
بالرحيل : أذنوا : أعلِمُوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم
على آخرهم : أعلمه يريد : أن أولهم يرضى فعمل آخرهم فلم يُنكَرْ عليه ، ولعله
يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في
هذا آيات قُسِّ بن ساعدة الايادى :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضَى الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَائِرُ
أَبَقَّتْ أُنَى لِأَحْمَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

« في الزاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبرة ، والقرون جمع
قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك
الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان
فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفاوأما بالتونين فلك أن تجعل عجباً من نادى منكراً ، ولك أن تجعل دياً ، حرف تنبيه وعجبا
مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن تجعل دياً ، حرف نداء والمنادى
محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحثهم على تعاطى ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبيَّ الله ، ما لى لأحِبُّ الموت؟
فقال له : هل لك مالٌ؟ قال : نعم ؛ قال : قدَّمه بين يديك ؛ قال : لأطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المرءَ مع ماله إنَّ قدَّمه أحبَّ أن يَلْحَقَ به
وإنَّ آخرَه أحبَّ أن يتخلَّفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخ في جنازة :^(١)
أُترى هذا الميت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
المرجاني :

إذا قلت لم يباغِ بِى السَّنُ مَبْلِغًا وَوَعِظْتُ بِطِفْلِ صَارَ قَبْلِى إِلَى التُّرْبِ
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رَجَا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هَرَبَ منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسي : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والتخارير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنونى

لمن يَكْرَهُ الموت لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَانَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ : لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَعَمَّرْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكْرِهْتُمْ أَنْ تُتَقَلَّوْا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخِرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ تَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعَهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنْ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرْقَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبُدٍ^(١)
وَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتِ فِي مَصَدَّقِ
وَقَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقَوْلِي : تَوَى طُودُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الْجِلْمِ رَاجِحٌ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقْرَأُ : تَوَى وَالطُّودُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأَنَاةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : بِسَمَاعِ صَوْتِ الْبِكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّا نَعَذَّبُ بِبِكَاءِ الْأَطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبود أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو
مات - بالنساء الذي يستحقه وشق جيبتها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِئٍ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي عَنَّا نِي وَهَشْمَدِي
وَالْحَمُّ : الْهَمَّةُ وَالطُّمُوحُ إِلَى الْعِلْمِ ، وَالغِنَاءُ : الْكِفَايَةُ . وَالْمَشْهَدُ : الشُّهُودُ أَيْ مَلَابِسَةُ

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا احْتَضَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدُهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ الْعَقِيدِ، مِنْ عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا قَرَّطْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِينَا، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ احْتَضَرَ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحِّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ أَوْ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَدِدْتُ أَنْيَّ كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَدْنَفَ^(١) الْمَسَامُونَ بِنَ الرَّشِيدِ أَمَرَ أَنْ يُفَرَّشَ لَهُ جِلٌّ - بِسَاطٌ - لِيُجْعَلَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ فِي رُؤْيُ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا^(٢)
وَأُنْعِمِي عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ:

لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي
هَذَا لَيْتَنِي لَيْتَنِي

اللَّهُمَّ لَا بَرِيءَ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصِرُ

ثُمَّ أَنْعِمِي عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أدنف المريض: نقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت. والوعول: جمع وعل: تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من

الذنوب قال سبحانه: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعم وقيل: اللعم:

أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمور العظام جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أطعْتُك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادةً إن لا إله إلا أنت ، منَّا مِنَّا لأمناً عليك ... وكان سببُ إحرامِهِ
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَانَ فِي هَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إِلَى جَدَّتْ تُشَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حَلَالَتِهِ (١)

فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَقَاتِكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَابِدٌ وَاقِعٌ
فَهَلْ كَاهِنٌ أَعَدَّدَتْهُ أَوْ مَنَجَّمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنكَ الْمَنِيَّةَ دَافِعٌ

فقال : ياربيع اتننى بطهورى ، فقام واغتسل وصلى ولجى وتجهز للحج ،
فلما صار فى الثلث الأول اشتدت عاتيه ، فجعل يقول : ياربيع ألقنى فى حرم
الله ، فمات بيثر ميمون (٢) ... وقالوا : لقن ميثك - أى لا إله إلا الله - فإذا
فألها فدعه يتكلم بغيرها من أمر الدنيا ولا تُضجره .

من امتنع من التوبة عند موته

اعتلَّ أعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبْتُ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُعْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلالتها : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) بثر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمى .

إن عافاني الله تُبِتْ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليستْ هذه ساعة التَّوبَة ، وإن كنتُ مُحسناً فليست ساعة الفزع
 « الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس تمت داع للخوف ،

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُهين ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرح
 فقيل له : تستبشرُ بالموت ؟ فقال : أنجملون قدومي على خالقٍ أرجوه كقماي
 على مخلوقٍ أخافه ! وسئل حكيم عن الموت ، فقال : هو فزعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسرقُهُ
 والموت يُعْتَقُهُ .. وقال المتنبي :

تُعْرُ حَلَاوَاتُ النُّفُوسِ قُلُوبَنَا فَمَتَخَتَارُ بَعْضُ الْعَيْشِ وَهُوَ حِمَامٌ
 « يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل ومافى إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر : وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرُّ الْحَامِينَ الزَّوَامِينِ عَيْشَةً
يَذُلُّ الذِي يَخْتَارَهَا وَيَضَامُ ،
وقال أيضا :

وما الدهرُ أهلٌ أن تُؤمَلَ عندهُ حياةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى البَسَلِ
« وقد تقدم » وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

نُبَكِّي لِموتانا على غيرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ من الدنيا ولا مَوْهَبِ جَزَلِ
إِذَا ما تَأَمَّلْتَ الزمانَ وَصَرَفَهُ تَبَيَّنْتَ أن المَوْتَ ضَرَبٌ من القَتْلِ

« يقول : نحن نبكي على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ في مثله ولا يتمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالي : وأنت إذا ماتأملت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تبينت أن الموت المحتوم على المرء كالذي يتوقعه من القتل وإذن لا داعي للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنبرة :

فأجبتُها : إنَّ المِنيَةَ مَنهَلٌ لا بُدَّ أن أُسْقَى بِذاك التَمهَلِ

فاقنَى حياءك لا أبالك وأعلبي أئى امرؤ سأموتُ إن لم أقتل

« فاقنَى خباءك : فالزَمِيه واحفظيه واتخذيه قُنِيه ، وقال الإمام الجنيدي : من كان حياته بنفسه يكون تَماته بذهاب رُوِحِه ، فتَصعَبُ عليه ، ومن كان حياته برَبِّه فإنه يَتَمَلُّ من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهى الحياة الحقيقية .

تمنى الموت

قال أعرابيٌّ : خيرٌ من الحياة ما إذا فَمَدَّتْه أبعَضتْ لفَقْدِهِ الحياة ، وشرُّ

من الموت ما إذا نزل بك أحببت لنزوله الموت ... وقال المتنبى :
 كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانياً
 تمنيتها ما تمتت أن ترى صديقا فأعيا أو عدواً مُداجياً
 وقال المهلبى الوزير (١) :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتره فهذا العيش مالا خيراً فيه
 ألا موتٌ لذبذ الطعم يأتى يُخلّصنى من العيش الكريه
 إذا أبصرتُ قبراً من بعيد وددت لو أنّى مما يابيه
 ألا رَحِمَ المُهَيِّمُ نفسَ حُرِّ تصدّقَ بالوفاةِ على أخيه
 واعتلّ السبلى ثم برأ ، فقال له بعض أصحابه كيف أنت : فقال :
 كلما قلتُ : قد دنا حلّ قيدي قدّمونى وأوثقوا المساراً

الحياة لاتمل

قال حكيم : الحياة وإن طالّت لا تُتملّ ، وإنما يتملّ المرء تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لاهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدرهم من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضافت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

ألا قلّ للوزير فدته نفسى مقالة مذكر ماقد نسيه

أتذكر إذ تقول لضعك عيش ألا موتٌ يباع فأشتره

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعة : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فَضَّلَ قولُ زُهَيرِ بنِ أبي سُلَيمٍ :
 سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ ثَمَانِينَ حَوَالًا لَا أَبَالَكَ يَسَامًا
 على قول لبيد :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ
 « تَكَالِيفُ الحَيَاةِ : مَشَاقِقُهَا وَشِدَائِدُهَا ، أَمَا لَبِيدٌ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْذُورًا إِذَا
 هُوَ مَلَ الحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عَمَّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ المُنَبِّيُّ :
 وَلذِيذُ الحَيَاةِ أَنفُسٌ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأَحْلَى
 وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِ فَمَا لِحَيَاةٍ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ
 آلَةَ العَيْشِ صِحَّةً وَشَبَابُ فَإِذَا وَلَّيَا عَيْنَ المَرِيءِ وَتَى
 « وَقَدْ تَقَدَّمَتْ » وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى
 شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيُسْرَكَ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ
 بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى اِقَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرَّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،
 فَأَنَا إِذَا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي
 هَاتَانِ الحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عن من مات

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ
 قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ :
 سَيُعْرَضُ عَن ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَلِيلِ خَلِيلُ
 وَقَالَ مَنْصُورُ الفَقِيهِ : (١)

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه المصري الشافعي

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثِ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر :

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبُ ثُمَّ انْتَنَوْا عَنْهُ وَحَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى اِقْتَسَمُوا مَالَهُ
سَهْمَ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلَعٌ

قال أبو تمام (١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرٌ
وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا :

إِنْ يَنْتَحِلْ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمُرُ الْآجِنِ الْآسِنِ
وقال ابن النبية المِصْرِيُّ من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَاذِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضرير، كان فقيهاً شافعيًا وكان أديبا شاعرا امتقنا توفى بمصر سنة ٤٣٠٦ هـ ومن شعره السائر:

لِي حَيْسَلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُو وَلَيْسَ فِي الْكُذَّابِ حَيْلُهُ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَهْوَى وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه : إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَابِتْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَدُّ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهَ تَكَلَّفُ

(١) من مرثيته التي يرثى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها :

كَذَا فَلَئِنْ جَلَّ الْخَطْبُ وَلِيَ فَتَدَجِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَا وَهَّأَ عُدْرَ

والله لا يدعوا إلى داره إلا من استصاح من ذى العباد
 والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
 والمزء كالظل ، ولا بد أن يزول ذلك الظل بعد امتداد
 لا تصالح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
 أرغمت يا موت أنوف القنا ودنت أعناق السيوف الحداد
 وقال شاعر :

فلا تجزعبن من موته وهو نائبي ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
 فكل طويل المجد يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم الشماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور
 أم لذيك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
 « وقد تقدمت هذه الأيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
 ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
 ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
 قال : نعم ، وقد بلغت مجودك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

== وقول أبي تمام : إن ينحل البيت . فينحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
 أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
 واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في عُمرِكَ ، قال : أَحَسْبُهُ تَرَكَ صِغَارًا وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْهِمْ
كثِيرَ مَعَاشٍ ؟ فقال : إن الذي وكلهم إليه غيرُكَ ، ... وقال الفرزدق :

قُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيؤُوا سِيلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وحكى المبرد عن بعضهم : أنه شهد رجلاً على قبرٍ وهو يُكثِرُ البكاءَ ،
فقلت : أَعَلَى قَرِيبٍ أَوْ عَلَى صَدِيقٍ ؟ فقال : أَخْصُ مِنْهُمَا ، قَدْ كَانَ لِي عَدُوًّا ،
فخرج إلى الصيْدِ ، فرأى ظبياً فتبعه ، فعدَّ بِالسَّهْمِ ، فخرَّ هو والظبي ميتين ،
فدُفِنَ ، فانتهيتُ إلى قبره شامتاً به ، فإذا عليه مكتوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَا أَقْمَنَا قَلِيلاً بَعْدَهُمْ وَتَرَحَّلُوا

فها أنا ذا واقفٌ أبكى على نفسي ... ولما مات الفرزدق بكى عليه جريروثرثاه ،
ف قيل له : أَبَعَدَ تِلْكَ الْعِدَاةُ ؟ فقال : لَمْ أَرَأَيْتَيْنِ بَلَاغَا الْغَايَةِ وَمَاتَ أَحَدُهُمَا إِلَّا وَلِحَقِّهِ
الْآخَرَ عَنْ كَتَبٍ ، فَكَانَ كَذَلِكَ ... وقال سيدنا رسول الله : لا تُظْهِرِ الشِّمَاتَةَ لِأَخِيكَ
فِي مَا فِيهِ اللَّهُ وَيُبْتَلِيكَ - أقول : يبدو أن الشماتة - وهي أن تفرح بالبلية تنزل بمن
يُعاديك - من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثم لم ينه سيدنا رسول الله عن
كوتبها - وجودها - وإنما نهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذي في استطاعة المرء ،
مثلها مثل الحسد والظن والطيرة ، ولذلك ورد في الأثر أيضاً : إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا
تَحْقُقُوا ، وَإِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا ، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَأُضُوا ، وَعَلَى اللَّهِ فَمَوَكُّوْا ..
يقول صلوات الله عليه : إِذَا حَسَدْتُمْ : أَى تَنِيْمْتُمْ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ
أَنَعَمَ عَلَيْهِ فَلَا تَتَعَدَّوْا وَتَفْعَلُوا مَا يَقْضِيهِ هَذَا الْخَاقُ الذَّمِيمُ ، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ سُوءَ
بِمَنْ لَيْسَ مَحَلًّا لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ فَلَا تَحْقُقُوا ذَلِكَ بِاتِّبَاعِ وَارِدِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى
مَقْتَضَاهُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،
وَالظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ : ومن أساء الظن في غير موضعه دلَّ على عدم

استقامته في نفسه كما قال النبي :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَبْتَاعُهُ مِنْ تَوَهُّمِهِ
أَمَّا مَنْ كَانَ مَظَنَّةً لِلظَّنِّ، بَانَ كَانَ رَجُلًا شَرِيرًا فَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ
وَالاحْتِرَاسُ وَالْحَذَرُ، ثُمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : وَإِذَا تَشَاءَ مَتَمَّ بِشَيْءٍ فَأَمْضُوا
طَبَائِعَكُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ خَاطِرُكُمْ لِذَلِكَ وَسَيَمُرُ عَلَيْكُمْ كُلُّ هَوْلَاءٍ فِي دِكْتَابِ
طَبَائِعِ الْمَذْمُومَةِ ، ... وَمَا يَتَّصِلُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الشَّهَادَةِ بِالْمَيِّتِ مَا يُرَوَى :
أَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ خَبْرَ قَتْلِ مُصْعَبِ أَخِيهِ احْتَجَبَ أَيَّامًا، فَخَبَّرَ
بِمَجِيءِ قَوْمٍ لِلتَّعْزِيَةِ، فَقَالَ : أُنْكِرُهُ وَجَوْهًا تُعْزِي أَسِنَّةَهَا وَتَشْمَتُ قُلُوبَهَا .

لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لِعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى امْرِئٍ إِذَا لَمْ تُصِيبْهُ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ
« المعار : المعايير والمسائب يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعاير القوم : عَيرَ
بعضهم بعضاً »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كُنْتُ قَاعِدًا فِي الْجَامِعِ فَمَرَّ بِي مَعْتُوهُ فَأَقْبَلَ
عَلَيَّ وَقَالَ :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسَ طُرَا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْوِي تُرَائِكَ عَنْكَ هَذَا نِمْ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ ضُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْعَيْنِيَّةُ

وقال القائل:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ (١)

وصية الميت

قالوا: كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الحزارة للإمام البغدادي ما خلاصته: هذا المصراع - لدوا للموت وابنوا للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي:

عَجِبْتُ لِمَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ بِأَهْلِ أَوْ حَبِيبِ ذِي الْكِتَابِ

شَقِيقِ الْجَيْبِ دَاعِيَ الْوَيْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَسِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ

و نسي الله: مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص، قال: ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذي أوردناه، ثم قال: ولسابق البربري في هذا المعنى:

فَلِلْمَوْتِ تَعْتَدُو الْوَالِدَاتِ سِخَالَهَا كَمَا لَخْرَابِ الدَّارِ تُبْنِي الْمَسَاكِينَ

هذا: وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة، مثلها مثل قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري: والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد. انتهى... وسابق البربري: هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بني أمية، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربري وإنما البربري لقب له، والسخال في بيته المذكور: جمع سخلة وهي ولد الشاة من الضأن والمعز، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المراد إذ الأصل: كما تبني المساكن لخرابها.

الذى يقول :

ولا يغررك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع
 « قصره وقصاره أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
 كذا » ... وقال مالك بن ضيفم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا توصى ؟ قال :
 بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ : « يا بنيَّ إن الله اصطفى
 لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ، وأوصيكم بصلةِ الرحمِ وحسن
 الجوار وفيل ما استطعتم من المعروف ، وأذفوني مع المساكين ...
 وقيل لهرم بنِ حبان : أوص ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
 شىء أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
 وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ،
 قال : يرحمُ الله ابنَ عَفْرَاءَ ^(٢) ، قلتُ : يا رسول الله : أوصى بمالى كله ؟ قال :
 لا ، قلتُ : فالكسْبُ طُرٌّ ؟ قال : لا ، قلتُ : التُّلْكُ ؟ قال : فالتك ، والتلك
 كثير ، إنك أن تدعَ ورثتكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تدعَهُمُ عالةً يتكفّفون فى
 أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقةٌ ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى
 امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضرب بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا

والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ

التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
« وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثورى الستة
الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
اشتدَّ به حتى أشقَى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي
هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة ^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
ابن خولة من ابن أبي وقاص ترحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
ابنةٌ واحدة ^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى ابنةٌ واحدةٌ ، أنا وصى
بمالي كله ؟ قال الرسول : لا ، قال : فأوصى بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
أفأوصى بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصى به ، والثلثُ كثير ، ثم قال الرسول :
- مُبِينًا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكتفهم إلى الناس مُستجدين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما
قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنتا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدّمه صدقة ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثالث أو مادونه فليستكثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجح له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثالث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حريصٌ تأملُ الغني وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثل الذي يعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شبع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يبخلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بشراً وكان قاسياً

لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ للشعر من راوية السوء؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطيئة قال: من الذي يقول:

إذا أنبض^(١) الرامون عنها ترنمت ترثم تكلى أو جمعتها الجنائز؟

(١) أنبض القوس وأنضها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّهَاحُ ؛ قال : أبلغوا عَظْمَانِ أَنَّهُ أَشْعُرُ الْعَرَبِ ؛ قالوا : وَيَحْكُ أَهْذَهُ وَصِيَّةَ أَرِصٍ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ ضَابِيٍّ ^(١) أَنَّهُ شَاعِرٌ حَيْثُ يَقُولُ :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَدَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ
قالوا : أَرِصٌ وَيَحْكُ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعُرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

فِي اللَّيْلِ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَتَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلُ سُدَّتْ بِيذْبُلٍ ^(٢)
قالوا : أَتَيْتُ اللَّهَ وَدَعَّ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ ^(٣) أَشْعُرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هَذَا لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُدَّ لَهُ إِذَا آرَتْنِي فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ ^(٤)
قالوا : هَذَا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَانًا شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ ^(٥) عَلَى النَّخْصِ أَلْتَدَّ

- (١) هو ضابئ بن الحارثي البرجمي الشاعر من بني تميم
(٢) من معلقةه ، ومغار القتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل
إغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل
(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت
(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على قوله « يعربه »
(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأحدُ الأُمِّ من حُطِيَّةٍ هجا بيديه وهجا المرِيَّةِ
* من لُؤْمِهِ ماتَ على فُرْيَةٍ *
« المرية : تصغير مرّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفربة يريد الفراء
أى الحمار ،

نهيهم عن الإفراط في البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحَضَرَ فسمعت بُكاءً من دار فقالت : ما هذا أراهم من
ربهم يَستغيثون ، ومن استرجاعه يَتَضَجرون ، ومن جزيل ثوابه يَتَبَرَّون ...
وقال أبو سعيد البلخي . مَنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ النِّعَمَ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
غَمًّا مِثْلَهُ ، قال الله تعالى : فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكِيلًا تَحْزَنُوا ... الآية ...
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه
وسلم : ليس مِنَّا مَنْ لَطَمَ الحُدُودَ ، وَشَقَّ الجُيُوبَ ، ودعا بدعوى الجاهلية ...
« ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : والآباء ، والآماء ، واولداه ،
وامصيتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والتذبة ... ، أما البكاء والجزع
دون إفراط فَرَحَّضُ فيه ، حدث أنس بن مالك قال : دَخَلْنَا على أَبِي سَيِّفِ
القَيْنِ ^(١) - وكان ظَنُرًا لإبراهيم عليه السلام ^(٢) ، فأخذ رسولُ الله صلى
الله عليه وسلم إبراهيمَ ، فقبَّله وشَمَّه ، ثم دَخَلْنَا عليه بعد ذلك وإبراهيم
يُجُودُ بنفسه ، فجمَلتَ عينا رسول الله تَذَرِفَانِ فقال له عبدُ الرحمن بن عوف

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا

رسول الله . والقين : الحداد

(٢) الظنر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

✽ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ (١) ✽

قالوا : يا أبا مُليْكة ، ألك حاجة ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المدبح الجيّد يُمدّح به من ليس له أهلا . قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأوماً بيده إلى فيه وقال : هذا الجَحِيرُ إذا طمِعَ في خير (بمعنى فمه) وآستعبرَ با كيا ؛ فقالوا له : قل لا إله إلا الله ؛ فقال :

قالت وفيها حَيِّدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرُ (٢)

فقالوا له : ما تقول في عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قنّ ماعاقبَ الليلُ النهارَ ؛ قالوا : فأوصِ للفقراء بشيء ، قال : أوصيهم بالإلحاح في المسئلة فإنها تجارةٌ لا تبورُ ، وآستُ المسئولُ أضيقُ (٣) . قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأثني من ولدي مثل حظ الذكر . قالو ليس هكذا قضى الله جلاّ وعز لهنّ ، قال : لكنّي هكذا قَضَيْتُ . قالوا فما توصي لليتامى ؟ قال : كُلُوا أموالهم وانكحوا أمهاتهم ؛ قالوا : فهل شيءٌ تعهدُ فيه غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، تحمّلوني على أتانٍ وتبركونني راكبها حتى أموت ، فإن الكريم لا يوتُ على فراشه ، والآتانُ مَرَكَبٌ لم يمتُ عليه كريمٌ قطُّ ؛ ففعلوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به ويمجثون عليها حتى مات وهو يقول :

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله

ولعله يريد من الورد : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفامته ، وحجر : أى دفع

ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استنك أضيق من أن تفعل

كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله! فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى - أي أتبع الدمعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى الله، وأنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون... قوله صلوات الله عليه: ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية: ولا نقول ما يسخط الرب: أي من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل، وقيل لأعرابي: اصبر فالصبر أجر، فقال: أعلى الله أتجلد، والله: للجزع أحب إليه، لأن الجزع استكانة والصبر قسوة... وقيل لفيلسوف: أخرج الحزن من قلبك فقال: لم يدخله يا ذني فأخرجه يا ذني... وأقرط امرأة في الجزع على آبنها، فموتت في ذلك، فقالت: إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات، فأما جزعي فليس في الطاقة صرفه، ولا في القدرة منعه، ولي عذراً للضرورة، فإن الله تعالى يقول: فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكي، وكان يؤذيني ذلك، حتى سمعت أعرابياً يبشُد: لعلَّ اندارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً من الوجدِ أو يشفي سجيَّ البلايل فسألته لئن الشعر؟ فقال: لذي الرمة، فكنت إذا أصبت بكيت، فاسترحت....

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال: سراج ضعيف، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ا » يعنى بالسراج : رُوْحَه ، وبالرياح الأربع : طبائعه^(١) ،
وقال الشاعر كلبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وصَوْتِهِ يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطِعُ
كل شيءٍ تغَيَّرَ من حالٍ إلى حالٍ فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسدةً والبنية ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيةً ، والعمرُ يسيراً ،
والمَنيَّةُ صادقةً ، فالثِقَّةُ باطلةٌ ...
استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى
موضعُ شبرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشى
حَتَفَ أنى ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تنمى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ،
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواعٍ أخرى ملاءك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأبما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفتها
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

ولا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرِي أُمَّ عَامِرٍ^(١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيد حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ مِنَّا - حيث كان - قَتِيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
«طُلَّ»: أهدردمه، وقيل: أن لا يُثَارَ به وتقبل؛ ديته وقال أبو تمام:
لولم يَمُتْ تحتَ أسيافِ العِدا كَرَمًا لَمَاتَ - إذ لم يَمُتْ - من شدة العزَنِ
وقال آخر:

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ
وقال:

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في «باب الشجاعة»

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو: كنية الضبع، قال الراجز:

يا أم عمرو أبشري بالبشري موت ذريع وجراد عظلي
وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب: لأنهم إذا أرادوا صيدها يحجى الرجل
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لثلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها:
أبشري يا أم عامر بجراد عظلي وكر رجال قتلي. فتدل له حتى يلقهها ثم يجرها
ويخرجها جراد عظلي: ركب بعضها بعضا كثرة؛ وأصل العظام: الملازمة في
السفاد من الكلاب والسباع والجراد، وقولهم وكر رجال قتلي، فإنهم يزعمون أن
الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس:
ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقبتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقرياتهم في البر مطلقا - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقرياتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البررة ١٨ - العقوق وأحوال

العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -

احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق

على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم

في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب

والحياله ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهره الاجنبى على القريب ٤٦ -

علاج العدا. الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم فى الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة

الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الحال والخثولة ٥٢ -

مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه

فى علا. ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذالم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار

المتخلفين الأندان عن تخلفهم عن آبائهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن

آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام يعد

الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه ٦٠ -

الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويا ضعيفاً ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

- تحفي الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون على البخل ٦٥ - مدح الجود
 وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندی مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم على الجود حتى
 في حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوى الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد في
 اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
 لسيدنا رسول الله في الحث على الإحسان ١٠٦ - هيات أن أبيت مبطاناً: لسيدنا
 على ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة
 الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق في زهده وتقواه ١١٢ - عبقرياتهم في الجود من
 بابات شتى ١١٣ - قرى الأضياف ١١٨ - وصية بخيل لابنه ١٢٤ - بخيل
 يبيع القرى ١٢٨ - عبقرياتهم في قرى الأضياف ١٢٩ - محادثة الضيف
 والحديث على الطعام ١٣٢

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

- ذم السؤال ١٣٥ - عبقرياتهم في آداب السؤال واستدجاج الحوائج ١٣٩ - المسئول
 تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من يسأل حاجة
 يزعمها صغيرة ١٤٨ - الحث على الصبر والأناة في طلب الحاجات ١٤٨ -
 العطية لا تجدى في غير وقتها ١٤٩ - التأسف على الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
 خبيهم ١٥٠ - الهدايا والرشي مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
 شكوى العافين من تفضيل بعضهم على بعض ١٥٢ - بلاغة المكدين ١٥٢ -

حسن الخلق

- حسن الخلق ١٥٤ - نهيهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تفيير الطباع ١٥٨ -
 مداراة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كريمة في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أباديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحيائهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هازم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأها ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

مصابه كصاب المصاب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح الموم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا هموم وغوم ٢٥٣ - نقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر بحبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضي الزمان وذمهم حاضره ٢٦٥ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث تخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربته فنى صنع الله ٢٦٦ - لاتعرف النعمة إلا عند
 فقدها ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الانسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنهى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يجرز منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الانسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يسترى بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لاتمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم الشهادة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشروكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيمهم عن الإفراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الانسان ٣١٥ - استكافهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي ننبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأها	فأها
٢٣	٣	الإفول خالد لأبي ذؤيب	أنظر الأغاني فقد جاء فيها
		ج ٦ ص ٢٧٥، أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية	الآيات وهي قصيدة جميلة
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فزع	فزع
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
			إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم *
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلم	وتفرق
٢	٧١	يئس	يئس
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أسرت غير مُقتر

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٧٨	١٦	سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	على ماخيلت ، وهذا هو الشرح : على ماخيلت : أى شَبَّهت ولونت ، يريد : على أى حال ،
٦	٨٤	والجودَ	والجوردِ
١٥	١١٩	تهدده	تُهدد
			« أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقِلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ « ويوضع بعد كلمة تصغير خاصة في الشرح هذه الزيادة :
			قال الزمخشري : الخويصة
			تصغير خاعة بسكون الياء
			لأن ياء التصغير لا تكون إلا
			ساكنة وجوز التقاء الساكنين
			فيها أن الأول حرف لين
			والثاني مدغم ،
١٥	١٩٦	وكلُّ شيء	وكلُّ شيء
١٩	٢٠٢	مأوليتها	مأوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى قول إبراهيم بن العباس الثمولى	
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض	٢٢١	٢
ونضوا	ونضوا ونضوا	٢٢٢	٢٠
مُسْتَهْدَفٌ	مُسْتَهْدَفٌ	٢٢٩	١٣
والضييفُ مُرْتَحِلٌ	والضييفُ مُرْتَحِلٌ	٢٥٥	١٨
ثمَّ رُدُّه	ثمَّ رُدُّه	٢٥٥	١٩
أقول لعله	قوله نراع... أبيت لعله	٢٧٠	٦
لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ	لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ	٢٨٣	٢
ويروى تخونه	ويروى: تخوفه	٢٨٨	١٣
خباهك	خباهك	٣٠١	١٥

